عبد الإله بن عرفة

أختام المدينة الفاضلة

مكتبة ١٢٧٤

رواية

دار الآداب

أَلَمَر

أختام المدينة الفاضلة

عبد الإله بن عرفة

مكتبة 1274

آلمر

أختام المدينة الفاضلة

رواية

دار الآداب - بيروت

أَلَمَر: أختام المدينة الفاضلة

عبد الإله بن عرفة/روائيّ مغربيّ
الطبعة الأولى عام 2022
ISBN 978-9953-89-726-4

مكتبة
t.me/soramnqraa

25 7 23

دار الآداب للنشر والتوزيع

للمزيد من المعلومات عن دار الآداب الرجاء زيارة موقعنا:

www.daraladab.net

يمكنكم التواصل معنا على البريد الإلكتروني:

info@daraladab.net
rana.adab@gmail.com

Facebook: Dar Al Adab Instagram: @daraladab Twitter: @DarAlAdab

إهداء

مكتبة
t.me/soramnqraa

إلى عين كلِّ بدايةٍ بما هي عينُ نهاية؛

وإلى كلِّ نورٍ فاتِح بما هو سِرٌّ خاتِم؛

وإلى كلِّ تَنزُّلِ آيةٍ بما هيَ شُهُودُ غاية؛

هكذا تجلَّت مرآةُ الأمر في كلِّ مَبْدَإٍ ومَعَاد.

فَلْيَنْظُرْ كلُّ أديبٍ واقِفٍ إلى انْفِلاقِ أنوار بدايَتِه حين تَنْشقُّ أسرارُ نهايَتِه.

﴿أَلَمر تِلْك آياتُ الكِتَابِ والذي أُنزِلَ إليكَ من ربِّكَ الحقُّ﴾

(سورة الرعد)

* * *

أَلِفْ لَامْ مِيمْ وَرَا لِوَمِيضِ بَرْقٍ يُبَشِّـرُني بإقبـالِ الرُّعـودِ

ابن العربي

* * *

ولما أتاني الحقُّ ليلًا مبشِّرًا بأني ختام الأمر في غُرَّةِ الشَّهرِ[1]

وقال لمن قد كان في الوقت حاضرًا من الملأ الأعلى ومن عالم الأمرِ

ألا فانظروا فيه فإنَّ علامتي على ختمه في موضع الضربِ في الظهرِ

ابن العربي

* * *

(1) يشير إلى مبشرة ختميته عام 594 في مدينة فاس.

قصيدة الختم

قل لِمَنْ يَسْمَعُ عَنّي مَا أَقُولْ ... أَقْصِرِ اللَّوْمَ، فَذَا قَوْلٌ مَهُولْ
هُوَ رُوحٌ عَارِجٌ في أَرْقُعٍ ... سَبْعَةٍ، قد جَازَهَا هَادٍ رَسُولْ
فَبُرَاقِي فكرةٌ قد أَتْعَبَتْ ... في سِبَاقٍ هِمَمًا تسبي العُقُولْ
وجناحي حيث طَرْفِي مُبْصِرٌ ... رَفْرَفًا[1] يعلو بنا، أَوْ قُلْ يَجُولْ
وبنا الأسرار قد طافت بلا ... عَدَدٍ تَمْشِي على أَرْضٍ ذَلُولْ
يا غُلامًا في طريقِ القَوْمِ لاَ ... تَسْتَحِلْ طَعْمَ شَرَابٍ، يا جَهُولْ
أنتَ لا تَعْرِفُ مَعْنَاكَ وَلاَ ... تَدْري أَنَّ الدَّارَ عَجَّتْ بِالفُحُولْ
واسْمَعَنْ قولي وإيَّاك تَقُلْ ... قد حَسَوْنَا مِنْ دِنَانٍ، يَا ضَلُولْ
كَأْسُنَا فَاتِحَةٌ قَدْ نُسِّمَتْ ... مِنْ قَدِيمِ العَصْرِ راحًا أَوْ شَمُولْ
أَلِفٌ لامٌ وميمٌ، ثُمَّ رَا ... بَرَقَتْ بَرْقًا، وَرَعْدًا قَدْ يَهُولْ[2]

---

(1) مراكب الرجال في معارجهم أربعة: الأفراس للعلماء، والنُّجُب للعارفين، والبُرَاقَات للأنبياء، والرَّفَارِف للمحمديّين. فتسابق العارفون إلى اللّه على نُجُب الهمم، والعلماء على أفراسها، والأنبياء على براقاتها، والمحمَّديُّون على رفارفها. وغاية كلّ واحد بحسب مركوبه، فالفرس يحمله السوط، والنَّجيب يحمله المهماز، والبراق يحمله الجناح، والرفرف يحمله الريح.

(2) إشارة إلى فاتحة سورة الرعد (أَلَمر)، التي عليها مدار هذه الرواية.

ولها صَعْقٌ ودَكٌّ وسُيولْ ... يَنْمَحِي رَسْمُ الحِجَا منها يَحُولْ
كان لي عقلٌ فَلَمَّا ارْتَحَلَتْ ... رَحَلَتْ رُوحِي، وَعَقْلِي في ذُهُولْ
فَاقْرَعُوا البَابَ فَقَدْ يُرْجَى لَكُمْ ... وَتَفُوزُوا بِنَعِيمٍ لاَ يَزُولْ
وإذا البوَّابُ أَفْضَى سَائِلًا ... مَنْ بِبَابٍ؟ فَارْغَبُوا: نَرْجُو القَبُولْ
إِنْ تَكُنْ غُصْنًا فَقَدْ تَذْوِي وَقَدْ ... تُنْبِتُ النَّوْرَ، وَتَعْرَى أَوْ تَطُولْ
خُتِمَ الحُسْنُ بِنَا واكْتَحَلَتْ ... إِثْمِدًا عَيْنِي، فَهَيْهَاتَ الذُّبُولْ
فَلَنَا الدَّارُ التي صَارَ لَهَا ... دَوْلَةٌ في آخِرِ الدَّهْرِ تَصُولْ[1]

د. عبد الإله بن عرفة

(1) ممَّا يُنسب للحاتمي في هذا المعنى: «لنا دولةٌ في آخِرِ الدَّهْرِ تَظْهَر... سَتَظْهَرُ مثلَ الشَّمْسِ لا تَتَسَتَّرُ». الدار هي بيت الولاية، مثلما للحكمة دار، وللشعر بيت، فلا بُدَّ من تَسْكِينٍ للمعنى في وَطَنٍ وعُنوان.

العارف الحكيم

«الحكمة باطن القرآن ونور الإيمان وبهجة العرفان»

(الحكيم الترمذي : كتاب ختم الأولياء)

* * *

«المَرْءُ مع من أَحَبَّ»، وأَحَبُّ المجالس هي تلك التي تجمعنا مع من نُحِبّ في حضن بيت علمٍ وفضيلةٍ وحكمةٍ وأدب، حين يُسْبِلُ الليلُ ستورَه وتأوي الأناسيّ إلى بيوتها، والبهائم إلى مَرابِضها، والطيور إلى وُكُناتِها.

في اللَّيل يرتفع مَنْسوبُ الوحشة والخوف، وفيه أيضًا تزداد الرغبة في الأُنْس، وتتقوَّى في الإنسان أَواصِرُ المحبَّة والتَّضامن والسَّكَنِ بين أفراد الأسرة الواحدة حينما يأوي كلُّ واحدٍ إلى هذا الحضن الذي يحمي من غوائل الطبيعة، كما يحمي من الوحدة والغربة والوحشة والخوف.

في ليلةٍ مبرقةٍ مرعدة ماطرة، جلس محمَّد في ركن من البيت قرب مدفأة يَمُدُّ كفَّيْه نحو مصدر النار ليبعث الدِّفءَ فيهما. كان هذا أوَّل

درسٍ يأخذه محمَّد عن والده علي في علم الحديث بعدما تعلَّم مبادئ القراءة والكتابة والحساب. جلست أمُّه تُحِيكُ ثوبًا صوفيًّا لولدها. كانت تتابع الدرس الأول لابنها في الحديث، وترجو أن يفتح اللّـه عليه حتى يصبح محدِّثًا كبيرًا. كانت امرأةً صالحةً متعلِّمَة تحفظ بعض الأحاديث التي تعلَّمَتها من والدها.

كان البرد شديدًا فَتَنْتَابُ الولدَ رغبةٌ عارمة في مَدِّ قدميه نحو المدفأة حتى يبعث فيهما الحياة والدفء، لكنَّه كان يعلم صرامة والده في مجلس العلم. وبدلًا من تمديدهما كان يعمد إلى تدليكهما بأصابع يديْه، ولا يتوقَّفُ عن فَرْكِهمَا، فَيَشْعُرُ بانتعاش يَدِبُّ إلى أطرافه السفلى.

تكلَّم الوالد وقال: اسمَعْ يا بُنَيّ، سنبدأ اليوم درسَ الحديث، وأرجو اللّـه أن يفتحَ عليك حتى تُصبحَ مِنْ حَمَلَةِ ميراث العلم النَّبويّ الشَّريف.

اعتدل في جلسته، وعَلَتْهُ هَيبةٌ شديدة جعلت الابنَ يتوقَّف عن الحركة ويُنْصِتُ باهتمام لما سيُحدِّثه به والده. كما توقَّفت الأُمُّ عن حياكتها وأَرْهفَتْ سمعَها لتسمع هي أيضًا الحديث. بَسْمَلَ الوالد وحمدل وصلَّى على النبيّ، ثمَّ سكت قليلًا، وبعدها فَتَرَتْ شفاهُه في هدوء:

قال ﷺ: «الرَّاحِمونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمنُ تَبارك وتعالى، اِرْحَموا مَنْ في الأَرْضِ يَرْحَمكُم مَنْ في السَّماء».

أخذ نفَسًا عميقًا وَشَى بِمَدَى التَّركيز الذهنيّ والقلبيّ الذي لزمه في تلقين الحديث النبويّ الذي استحضر فيه من دون شكّ لحظة تلقِّيه الحديثَ نفسَه أوَّلَ مرَّة، ثمَّ أردف قائلًا:

«هذا أوَّل حديث سمعتُه»، وأخذ يذكر سلسلةَ إسناده من شيخه إلى سفيان بن عُيَيْنَة، رضي الله عنهم أجمعين.

كان الابن ينصت باهتمامٍ إلى هذه الأسماء التي تَقْرَعُ سمعَه لأوَّل مرَّة ويُثبّتها في ذاكرته. كان يتخيَّل كلَّ واحدٍ من السّلسلة مُؤْتَمنًا على ميراث مدينة العلم، وكان يرى نفسَه واحدًا منهم. لقد أحسَّ بشعورٍ عجيبٍ حين سمع هذا الحديث، وتخدَّرت أعضاؤه حتى ذَهَلَ عمَّا يقتضيه تلقِّي العلم من أَدَبٍ فَمَدَّ رجليْه في حركةٍ قهريَّةٍ نحو المدفأة ليتلَقَّى الدِّفء. نظرَتْ إليه أمُّه نظرةً تريد أن تُنَبِّهه بها إلى التَّأَدُّب في جلسته مخافةَ أن يوبِّخه والدُه على إساءة الأدب أثناء تلقِّي الحديث النبويّ، لكنَّ شعوره بلذَّةِ الدفء يسري في قدميْه جعله يتَمَادَى في تأبِيدِ تلك اللَّذة حتى ذَهَلَ عن عواقبها.

نظر إليه والده نظرةً غريبة لَمَحَ فيها الولد شيئًا ممتزجًا من حرص المؤدِّب على حرمة الدرس، وإشفاق الوالد على الابن. لم يوبِّخ عليٌّ ابنَه، بل طلب منه في هدوء، وبصوت تملأه الرَّحمة، أن يعيد عليه الحديث الذي سمعه.

تعجَّب الابن من عدم مؤاخذة والده له على تمديد رجليْه في حضرة تَلَقِّي الحديث الشريف، وبعدما اطمأنَّ إلى ناحيته، سحب قدميْه في هدوء واعتدل في جلسته، وأدرك أنَّ الذي نجَّاه من توبيخ والده كان بِحُرْمَةِ الحديث الذي سمعه. أدرك للتَّوِّ سطوةَ العلم الشريف وكيف يُمْكِنُهُ أن يؤثِّر في سلوك الناس وأحوالهم. لقد أحبَّ هذا العلم في أوَّل درس يتلقَّاه لأنَّه أدرك أنَّ سلطة العلم أقوى من سلطة والده، وأنَّه بإمكانه أن يستفيد من تعارض هذه السلط ليفعل ما يريد حينما يريد. كان في

حرز أمان من أيّ سلطة أخرى حين يُقْبِلُ على الحديث ويَرويه. لقد كانت الرحمةُ التي يدعو إليها الحديثُ العاصمَ الذي جعله ينجو من غضبة الوالد. وعندما أدرك هذا السّر في أنَّ هذا العلم مبنيّ على الرحمة، اندفع يردِّد الحديثَ الذي كان قد انتقش في ذاكرته وَلَوْحِ صدره. كان حريصًا على أن يَعْرِضَه على والده لأنَّ ذلك كان دليلَ دخوله في سلسلة النُّور التي تحمَّلَتِ الحديثَ عبر الزمن، ومرسومَ انتمائه إلى المدينة الروحانيَّة الشريفة.

سعد الوالد والوالدة حينما روى محمَّد الحديثَ كما لُقِّنَه، وبدت عليهما غبطةٌ لا تخطِئُها العين.

كان البرقُ يَخْطِفُ الأبصار، والرَّعد يَهْدِرُ بكلِّ قوَّة في تلك الربوع، وينهَلُّ المطر يروي الرُّبى ويحمل الماء إلى التُّرَع والوديان. لقد تخلَّقَ محمَّد بين **برق ورعد ومطر**، وجرت إليه الحكمة في هذه اللَّيلة التي وُلد فيها من جديد، وانخرط ضمن سلسلة النور كواحدٍ من سكَّان **مدينة العلم ودار الحكمة**.

استمرَّ الولد زمنًا يأخذ عن والده ويراجع مع والدته ما كان يحفَظه من أحاديث، إلى أن اخترمت المنيَّةُ الوالدَ فانقطع عن الابن مَدَدُ ذلك العلم النبويّ وتاقت نفسُه للمزيد، بَيْدَ أنَّ المنبَعَ الذي كان يَرِدُ منه قد انقطع، وكان عليه أن يسافر في الأرض ليجد منبعًا أو منابع أخرى يَنْتَجِعُ فيها. واتَّفق أنَّ زمرةً من أصحابه وأقرانه عزموا على طلب العلم والسياحة في الأرض ورغبوا إليه في مرافقتهم. كانت نفسُه تُحدِّثه بأن يصحَبَهم في طلب العلم الذي من أجله كان والده يحرص على تلقينه إيَّاه في البيت وفي مسجد مدينتهم، ترمذ.

جاء إلى أمّه التي تقدَّمت في السِّن، وقد بيَّتَ النيَّة في أن يخبرها عن عزمِه السَّفر في طلب العلم. وما إن أخبرها بما قرَّ عليه قراره حتى أخذَتْ في البُكاء والنَّحِيب. شعر الولد بالذَّنْب وَتَأْنِيبِ الضَّمير حيث لم يُفَكِّر في أُمّه التي تُعَوّل عليه في خدمتها، ولم يفكّر إلَّا في نفسه.

قالت له: إنّي مريضةٌ يا ولدي، وليس لي مَنْ يَعُولُنِي سواك بعد وفاة والدِك، فَلِمَنْ تتركني؟ وإلى مَنْ تَكِلُنِي في غيابك؟

كان هذا العتاب مزلزلًا لمحمَّد، فارتمى في حضن والدته وقبَّلَ كَفَّها اليمنى وطَمْأَنَها قائلًا: لن أَتْرُكَكِ يا أُمَّاه، بل سأبقى في خدمتك، ولعلَّ اللّـه أن يُعَوِّضَني خيرًا.

ابتسمتِ الأُمُّ وتنهَّدَتْ ثمَّ رَفَعَتْ أَكُفَّ الضَّراعَة في صَمْتٍ تدعو لولَدِها، ودموعُها تجري على خدَّيْها. أَمَّنَ محمَّد على دعاء والدته رغم أنَّه لم يعرف بما كانت تدعو به، لكنَّه كان متيقِّنًا أنَّه دعاءُ خير، وكان متأكِّدًا من استجابة الحقِّ لدعواتها الصالحة.

كان محمَّد مهمومًا بعد خروج صاحبيْه في طلب العلم وقعوده في بلدته لِتَوَلِّي شؤون والدته وخدمتها. وحتى يُسَرِّيَ عن نفسه، كان يذهب للمقبرة التي دفن فيها والده لكي يترحَّم عليه، لكنَّه أيضًا كان يريد أن يبقى بعيدًا عن الأنظار يبكي بكاءً حارًا متحسِّرًا على ما سيفوته من العلم ببقائه في بلدته، فَتُحَدِّثُهُ نَفْسُه بأنَّ صاحِبَيْهِ سيعودان بعلم غزير بينما هو سيبقى جاهلًا مُهمَلًا خامِلَ الذِّكْر.

وذات مرَّة، وبينما هو على تلك الحال منَ الهمِّ والغَمِّ، إذ أخذته سِنَة، فإذا به يرى فجأةً شيخًا مُشْرِقَ الوَجْه، بهيَّ الطَّلْعَة، وَقُورَ الشَّيْبَة. سأله الشَّيخ عن سِرِّ بكائه فأفضى الفتى إليه بحاله.

تبسَّمَ الشَّيخُ، وقال له: لا تحزن يا ولدي، سيكون لك شأنٌ عظيم، وسَأَسْهَرُ على تعليمِك، ولن يَمُرَّ عليك وقتٌ طويل حتى تصبحَ عالمًا، ولن يَبْلُغَ أصحابُكَ ما ستبلغُه من العلم.

استبشر محمَّد بكلام هذا الرجل وأجابه إلى ما اقترحه عليه.

دأب محمَّد على التَّرَدُّدِ إلى تلك المقبرة يجلس إلى ذلك الشَّيخ الذي كان من رجال الغيْب يأتي فيعلِّمه كلّ يوم، ولا يكاد يشعر بهما أحد، ولا يشكُّ محمَّد في أنَّ الرجلَ من أساطين العلم وأوعيته. كان ذلك المجلس يتمثَّل للفتى في مشهدٍ برزخيّ، ولا يعلم إن كان غيره يحصل له مثل ذلك، لكنَّه كان متأكِّدًا بأنَّ نتائج ذلك المجلس حقيقيَّة إذ كان يلمس تقدُّمه في اكتساب العلوم.

لزم الفتى ذلك الرجل الغيبيَّ يومًا بعد يوم، وعامًا بعد عام، يأخذ عنه العلوم والحكمة مـمَّا لا يَرُوجُ مثله عند أحدٍ مِمَّنْ يعرف حتى أصبح محمَّد عالِمًا في تلك الفنون والعلوم الحكمية، وظهر نجمُه على من سواه.

كان الشيخ يحدِّثه عن تلك العلوم والأسرار، ويحذِّره من الأدعياء الذين تناسلوا في كل البلاد، فلا تجد صاحبَ بضاعةٍ مُزْجَاةٍ في فرع من فروع المعارف والعلوم إلا وَعَدَّ نفسه من الملأ الأعلى في أقرانه. لم يَخْلُ مجالٌ من مجالات الفنون والمعارف والعلوم من أدعياء يُشَغْبِنُون على الناس بنهاية التاريخ في كل إبداع، سواء في الشعر أو الفلسفة أو الفقه أو غير ذلك. فهذا فلان خاتمة الشعراء، وذاك خاتمة الكتَّاب والأدباء، وفلان خاتمة الفلاسفة والحكماء، والآخر خاتمة الفقهاء والعلماء. أما أدعياء الولاية فحدِّث ولا حَرَجَ، لكنَّ الفرق مع من سبقهم من أدعياء

باقي المعارف هو أنَّ للولاية مستندًا إلهيًا من أسمائه الحسنى على خلاف غيرها، فالوليّ على الحقيقة هو الله، وبهذا المعنى فإنَّ الولاية لا تنقطع من الوجود على خلاف النبوَّة التي ليس لها مستندٌ من اسم إلهيّ.

كان يسمع الخوارق والدَّعَاوَى العريضة من أناسٍ لا يُحسنون حتى الوضوء فيتعجّب من أمرهم. كان كثيرٌ من هؤلاء في بلاد ما وراء النهر بقدر ما كان فيها من المحدِّثين. لم يستوعب كثيرٌ من الناس مفهومَ النهايات وختام الرسالات الذي جاءت به الرسالة المحمَّديَّة، فارتدَّ مَنِ ارتَدَّ بعد وفاة الرسول.

كانت هناك حاجة إلى أنَّ خبر السماء لا يمكن أن ينقطع مع الرسالة الخاتمة، بل لا بدَّ أن يستمر الأمل وتستمر الأخبار التي تأتي من السماء. كان الناس متشبِّثين بهذا الأمل، فظهر أدعياءُ لِمَلْءِ هذا الشُّغُور. كان نور النبيّ عليه الصلاة والسلام، ومن بعده نور آل البيت والصحابة كافياً لمعاصريهم. أما وقد أفضوا إلى ربِّهم، فَعَلامَ يستند كلُّ طالبٍ لأخبار السماء؟

لم يبقَ إلَّا المبشِّرات وهي المرائي التي يراها الصالحون من عباد اللَّه أو تُرى لهم، لكنَّ الأدعياء اقتحموا أيضًا هذا المدد المستمر، فكثُرت المراثي الكاذبة أو الملفَّقة والموضوعة.

تحيَّر محمَّد في هذا الأمر وكان يرغب في أن يكون له فيصلٌ فارق يَمِيزُ به الحقَّ عن الباطل، ويختبر به أدعياء الولاية. كان مِثْلُ هذا العلم عزيزًا، لكنَّ شيخه الغيبيّ كان يحدِّثه عنه في جلساتهم بين القبور. كان يرغب أن يعرف شروط الصلاح، هل هو العلم؟ هل هو التقوى؟

هل هو مجموعهما؟ هل هو اصطفاءٌ إلهيّ ومنحةٌ ربَّانيَّة، أم هل هو شيءٌ مكتسب؟

أسئلةٌ كثيرة كانت تُراوِدُ الشَّاب، فقرَّر أن يسأل شيخه عن هذا العلم الغريب. كان عليه أن يضع قائمةً بعددٍ من الأسئلة التي لا يوجد لها جواب فيما بين أيدي الناس من كتب، يختبر بها أدعياء الولاية. لقد قَرَّ قراره على أن ختم الولاية ينبغي أن يكون قادرًا على الإجابة عن هذه الأسئلة المعجزة من العلم اللدنيّ، وأنَّه لن يعترف بمن يدَّعي الولاية أو تُدعى له إلَّا إن كان بمقدوره أن يجيب عن هذه الأسئلة المضنون بالجواب عنها على غير أهلها. إنَّها اختبارٌ حقيقيٌّ من عالم الغيْب. كان الفتى يُعَوِّلُ على شيخه الغيبيّ أن يساعده على حصر عددها وطبيعتها خلال لقاءاتهما العرفانيَّة. وكان الشَّيخ الغيبيّ يباسطه في كلِّ مرَّةٍ بالجواب عن سؤالٍ يطرحه في بداية لقائهما، ثمَّ يتركه يجيب، لكنَّ الشاب المتعلِّم لم يكن قادرًا على الإجابة. إنَّه لم يدَّعِ الولاية، ولم يَدَّعِ أنَّه ختم الولاية، لكنَّ الشَّيخ أبلغه أنَّه سيكون ذلك الشاب الذي سَيُبَلِّغُ هذه الرِّسالة على رؤوس الأشهاد لكلّ الأُمَّة حاضِرِها ومستقبَلِها، ويتحدَّى بأسئلتها مَنْ نَبَغَ يطلبها. ولعلَّه أن يكون قد راوده شعورٌ بأنَّه من أهل الخصوصيَّة، ولعلَّه أن يكون قد استشعر أنَّ حيازَتَه للأسئلة في حدِّ ذاتها مؤشِّرٌ على استحقاقه لنفحةٍ من الختميَّة.

كان الشَّيخ يفتتح كلَّ يوم بالحديث عن العلوم التي خلف كلّ حرفٍ من حروف اللِّسان العربيّ، وأمر تلميذه، بعد أن يُطَوِّفَ في الأرض وتكتمل تجربته ومعارفه، أن يضع كتابًا يفهرسه على عدد حروف العربيَّة يتكلَّم فيه على علم النبوَّة وعلم الولاية، ويضمِّنه الأسئلة المعجزة الكفيلة بفرز القائم للّـه بالحجَّة عن غيره.

رسم الشَّيخ لتلميذه نطاق الحياة الرُّوحيَّة بين **الصِّدْق والمِنَّة**. فالأوَّل شرطٌ لنيل الثانية. فبقدر تحقُّق الصدق من الإنسان بقدر ما تكون المنَّة الإلهيَّة والعطاء الربَّانيّ. أخبره أنَّ الحياة الرُّوحيَّة لا تكتمل ولا تصحُّ إلَّا بوجود الجهد الإنسانيّ بالصدق، وشهود الجود الإلهيّ بالمنَّة. فالحياة الرُّوحيَّة لها مظهرٌ إنسانيّ يقوم على الصِّدق، ومظهرٌ إلهيٌّ يقوم على المنَّة والجود. وكلاهما مَن يؤسِّس للولاية سواء كانت ولاية عامَّة بحفظ حقوق اللَّـه، أو ولاية خاصَّة قائمة بحفظ اللَّـه حقًّا.

اتَّضَحَتْ معالم الولاية لمحمَّد، وأدرك أنَّ الحياة الرُّوحيَّة يتنازعها الصِّدق والمنَّة.

ثمَّ أخبره الشَّيخ عن الأولياء: الأولياء صنفان: أولياء حقوق اللَّـه، وأولياء اللَّـه حقًّا. فالصِّنف الأوَّل هم الذين اتَّخذوا الصِّدق شرطًا وقاعدةً للعمل والسُّلوك ظاهرًا وباطنًا وصحَّحوا نيَّاتهم، وألزموا نفوسهم بصدق علانيَّتهم وسرائرهم، فلم يكتفوا بمجرَّد الرَّغبة فيما يؤمِّلون، بل واصلوا المجاهدات في بذور البدايات حتى حصَّلوا ثمار النهايات. لقد لزموا العبوديَّة حتى ظفروا بالتحرُّر والحرِّيَّة بعد جهادٍ عسير، وسَيْرٍ على شارع الصِّدق ومحجَّة الإخلاص.

عليك أن تسلك على هذا الطريق وتُبارز كلّ الأخلاق الدَّنِيَّة التي تعترض الإنسان وتَحْرِفُهُ عن المسار السَّويّ. عليك أن تَسْتَأْنِي في سيْرك هذا حتى تقضي على الكبْر والبغض والحقد والبخل والجبن والجَوْر. ثمَّ بعد ذلك ستقوم لك نقيضاتها تريد أن تنتزع منك الرضا على النفس بطلب الجاه والعلم فتقع في شَرَك حلاوة هذه اللحوظ والحظوظ. وتلك مصْيدة ينبغي أن تفطن لها حتى لاتسقط في محظور ما منه أَفْلَتَّ أوَّلًا.

ثمَّ أضاف الشَّيخ قائلًا: إنْ قهرتَ الشهوة في الحرام جاءتك متبذِّلَةً في حُلَلِ الحلال، فتسقُطُ فيها، ونسيتَ أنَّك أقبلتَ على حظوظ نفسك؛ والقصد من وراء ذلك.

احتار محمَّد من كلام الشَّيخ، وبقي يتفكَّر فيما سمع، وأراد أن يسأل، لكنَّ الشَّيخ فطن لحيرة محمَّد، فواصل كلامه قائلًا: لا شكَّ يا بنيْ أنَّ المرء يصاب بحيرةٍ من أُبُوقِ نفسه بتحوُّل الشهوة فيها من مطلوب إلى مطلوب، ومن مرغوب إلى مرغوب، فلا يجد له من مُعينٍ في حيرته سوى رحمة اللَّـه، حينها يلجأ مضطرًّا إلى ربِّه، مستجيرًا به، لائذًا إليه وعائذًا منه به، معتمدًا عليه ومستندًا إليه، مستميحًا بأركانه، متحسِّرًا على ما كان منه، مستميتًا في طلب معروفه القديم.

بعد أن تحدَّد لمحمَّد هذا الصِّنف الأوَّل من الأولياء، لم يغب عنه أن يسأل الشَّيخ، فقال: وما هو الصنف الثاني من الأولياء؟

أجاب الشَّيخ: الصنف الثاني من الأولياء هم مِمَّنْ أقاموا حياتهم الرُّوحيَّة على المنَّة والجود الإلهيّ، فبقدر شهودهم لهذا الجود ارتقوا في سيْرهم من **تطهير** الجوارح إلى **تنوير** النفوس و**تعمير** القلوب والأسرار. فبقدر ما تنطبع آثار التطهير على جوارحهم تنطبع في نفوسهم آثار التَّنوير، وينطبع في سرائرهم آثار التعمير. إنَّ هؤلاء لا يشعرون بثقل مجاهدات الصنف الأوَّل من الأولياء الصادقين على نفوسهم، بل أصبحت أفعالهم على مقتضى الفطرة.

أدرك محمَّد من كلام شيخه الغيبيّ أنَّ الوليّ في نطاق الصدق حرٌّ مختارٌ في إرادته؛ بينما الوليّ في نطاق الجود الإلهيّ مسلوب الإرادة لمولاه، فاحتار مرَّةً أخرى في أمره من فقدان أعزِّ ما يميِّز الإنسان، وهو حريَّته واختياره وإرادته.

أدرك الشَّيخ حيرة الطالب، فقال له: لا تعتقد يا بنيّ أنَّ السَّائر في نطاق الصدق مريدٌ تام الإرادة، وحرٌّ تامّ الحرية، وأنَّ السائر على طريق المنَّة مسلوب الحرِّيَّة والإرادة؛ بل إنَّ السائر على نطاق المنَّة والجود قد سما بإرادته من نطاقها الفرديّ لتعانق إرادةً أسمى منها، إنَّه عروج من شرنقة الأنا إلى ذاتٍ مطلقة مستوعِبة. إنَّ الإنسان خرج عن نطاق آدميَّته الضيِّقة وسما إلى أن أصبح كائنًا روحانيًّا وإلهيًّا. لم يَعُدْ مقياس الوليّ في نطاق المنَّة الإلهيَّة محصورًا في نطاقِ وأُفُقِ الإنسان، بل سما به ليبلغ مرتبةً أعلى وأفقًا أسمى. وإذا كان الوليّ في نطاق الصدق واعيًا بحرِّيَّته وإرادته في اختياراته، فإنَّه أيضًا معذَّبٌ لأنَّه كثير الشَّكوى والتَّبَرُّم من الإنسان، يحصر خَلاصه في نفسه؛ بينما الوليّ في نطاق الجود الإلهيّ راضٍ بكلِّ شيء هو عليه، متخلِّقٌ بأسمى الفضائل الإنسانيَّة والخصال الآدميَّة، مُؤْثِرٌ للناس على نفسه محبٌّ لهم غاية المحبَّة.

توضَّحت أمام محمَّد معالم الحياة الرُّوحيَّة بين نطاقيْن هما: الصِّدق والمنَّة؛ أو بين نوعيْن من الرجال: وليُّ صدق، ووليُّ منَّة، فكان عليه أن يختار أحد الطريقيْن، وأدرك الشَّيخ أنَّ الفتى سيُسارع في الاختيار بين أحد الصنفيْن، فأراد أن يرفع همَّتَه فقال له: لا تنسَ يا بنيّ أنَّ الحياة الرُّوحيَّة منحصرةٌ بين خدمة الأُجراء، وخدمة الأمراء. فإذا اكتفيتَ بالأولى كنت أجيرًا عاملًا ينتظر أجرته نهاية النهار على خدمته جزاءَ تَعَبِه ومجاهداته. إنَّه لم يَبْرَحْ حدودَ ذاته الضَّيِّقة، وحظوظَ نفسِه العاجلة منها أو الآجلة. أمَّا إذا لم تقف عند باب الخدمة وسعيتَ إلى المنَّة، فقد رُمْتَ التّحرُّر من قيود نفسك الضَّيِّقة وعانقتَ بلاد الإطلاق حين لم تقنع بغير مولاك. آنئذٍ أنت أمير بعد أن كنتَ مجرَّد أجير. هنا تَصحُّ لك المحبوبيَّة بعد أن وطَّنتَ نفسَك في بلاد المحبَّة.

ثمَّ أضاف الشَّيخ محذِّرًا الفتى من أوحال هذه المعاني: إيَّاك، إيَّاك أنْ تظنَّ أنَّ الإنسان قد يصبح إلهًا، أو أن الإله تحوَّل إلى إنسان.

ثمَّ استدرك الشَّيخ مستبعدًا هذا الاحتمال: أبدًا، إنَّ الحقَّ أَنْزَهُ أن يَحُلَّ في شيء أو يَحُلَّ فيه شيء، لكنَّ أعظم توحيدٍ هو أن تصبح شاهدًا من شواهد الحقّ. الآن، عرفتَ الطريق وبقي لك أن تسلكه حتى تعرفَ هل أنت صادقٌ من أهل الخدمة، أم صدِّيقٌ من أهل المنَّة.

* * *

مرَّت السنوات واستوى محمَّد على عوده شابًّا، وتوفِّيت والدته فحزن عليها، وأدرك أنَّه حصَّل ببركة دعائها علمًا غزيرًا لا يوجد مثله عند أحد، فقرَّر حينما بلغ من العمر سبعًا وعشرين سنة، أن يخرجَ حاجًّا إلى بيت اللَّه الحرام. كانت هذه فرصته ليستزيد من العلوم التي لم يحصِّلها بعد، ويرى العالم من حوله.

كانت بغداد حاضرة العلم، فيمَّم شطر بغداد أوَّلًا، واستكمل أخذ الحديث هناك، ثمَّ انتقل إلى البصرة، ومنها إلى مكَّة التي وصلها في شهر شعبان. بقي هناك ملازمًا الطاعات والعبادات. وكان كثيرًا ما يُحِبُّ أن يَقِفَ للدُّعاء عند الملتزم سَحَرَ كلِّ ليلة.

كان محمَّد يشعر بنقصٍ كبيرٍ في تكوينه العلميّ والرُّوحيّ، فقد حفظ الحديث قبل أن يحفظ القرآن إلَّا ما كان من قِصَار السُّوَر ممَّا لا بُدَّ منه لأيّ مُكلَّف بأداء الصلوات. لقد كان محتارًا في هذا الأمر، إذ غالبًا ما يحفظ الأطفالُ القرآنَ أوَّلًا ثمَّ بعد ذلك ينتقلون إلى العلوم الأخرى اللُّغويَّة والفقهيَّة والحديثيَّة، بينما لم يحصل هذا معه، فكان يستشعر هذا النقص وقرَّر أن يكمله.

كان يقف عند الملتزم يدعو بدعاءٍ صادق أن يصلحه اللّـه وأن يُزَهِّده في الدنيا وأن يرزقه حفظ القرآن، ولم يكن لسانه يطاوعه على الدُّعاء بغير هذا. ومهما توالت الليالي والأسحار كان الدُّعاء نفسه هو الذي تَفْتُرُ به شفاهُه، فأدرك بنوعٍ من الإدراك العميق أنَّ اللّـه لم يطلق لسانه بالتَّعبير إلَّا لِمَا أراد له من العطاء والتَّنوير، وأنَّ هذا الذي جرى به لسانه هو ممَّا كان ينقصه ويُعذِّبه.

أدَّى المناسك على وجهها ثمَّ قَفَلَ راجعًا إلى بلاده، وعزم على أن يستغلَّ الزمان الذي تستغرقه رحلةُ العودة في حفظ القرآن خلال الطريق، فكان يقضي وقته أثناء السَّفر في ترديد آيات كتاب اللّـه حتى تنتقش في صدره. انتبه إلى أنَّ سور القرآن كلّها تبتدئ بالبسملة، ولاحظ أنَّها تتضمَّن ثلاثة أسماء إلهيَّة، واحد منها عَلَمٌ على الذات، والثاني والثالث معنى قائم بالذات، هو الرَّحمة.

تذكَّر أنَّ أوَّل حديث لقَّنه له والده كان حديث الأوَّليَّة وموضوعه الرَّحمة، ثمَّ لمَّا تعلم القرآن كان يبدأ بقراءة البسملة وهي مُتَوَّجَةٌ بالرَّحمة. لم يغب عنه أنَّ الرَّحمة هي جماع هذا الدِّين، وأنَّها حاكمة على الباقي، حتى فيما يناقض الرحمة كالآيات التي تتحدَّث عن القتال والعذاب، فهي ترجع في مآلاتها إلى الرَّحمة. كان هذا منهج حياة ينبغي أن يسلكه، وأن يعمل بهذا المقصد الكلّيّ الذي يحكم على غيره من المقاصد الشرعيَّة.

أدرك فجأةً أنَّ المؤمن الذي لا يمشي على هذا المنهج القويم قد تدخل عليه شُبَهٌ تُشَوِّهُ إيمانه وتُشَوِّهُ تَدَيُّنَهُ وَتَحْرِفُ الدِّينَ عن مساره القويم. إنَّ البدء بحديث الأوَّليَّة عن الرَّحمة، والتَّأكيد على الرَّحمة في قراءة القرآن بل في كلِّ أمورِ الخير نموذجٌ للحياة.

ثمَّ تفكَّر قليلًا واتَّضَحَ له أهمِّيَّة هذا المنهج القويم الذي لا يُمكن أن يُخَرِّجَ المتنطِّعين. فقد يقول قائل متنطِّع إنَّ النبيّ قال في الحديث الصحيح «أُمِرتُ أن أقاتلَ الناس حتى يقولوا لا إله إلَّا الله»، أفلا نقتل الكفَّار كما قاتلهم؟

لا شكَّ أنَّ هذا المتنطِّع المتحمِّس لم يفهم أنَّ الخطاب هنا للنبيّ، فهو المأمور الذي أُمِر من ربه، وليس غيره مَنْ أُمِر. وثانيًا، يتحدَّث الحديث عن «المقاتلة» أي مدافعة العدوّ، ولم ينصَّ الحديثُ على «القتل»، فالفرق شاسعٌ بينهما، والمسكين يخلط بين القتل والقتال. ثمَّ هناك قضيَّة ثالثة، وهي أنَّ المنهج السَّليم يؤكِّد على اعتبار أربعة أشياء في النصّ: معرفة الزمان والمكان والأحوال والأشخاص. فهذه السِّياقات المختلفة هي التي تمنع من التأويلات الخاطئة والأفهام السقيمة. فقد تكلَّم النبيّ بحديث المقاتلة في سياقٍ محدَّد، وقد كان المشركون يحيطون به في المدينة المنوَّرة ويحاصرونه من كلِّ جانب ليقضوا عليه، في الشرق، وفي الشمال وفي الجنوب. فمقاتلته للمشركين كانت من أجل الدِّفاع عن الحقّ. وهذا سياقٌ يغيب عن أولئك الذين يوظِّفون مثل هذه النصوص للغُلُوِّ في الدِّين.

إنَّ منهج التَّعليم كما أخذه عن والده انطلاقًا من السُّنَّة، أو تعلَّمه من القرآن، وكما دأب العلماء الربَّانيُّون على تبليغه للناس وتعليمه لهم، يلتزم بهذه الشروط التي تحفظ النصّ من شُبْهَةِ التَّحْريف والتأويل الفاسد، وتحفظ قارئ النصّ من الغلو في الدِّين والشَّطط في التأويل والإفساد في الأرض.

فتح اللَّـه عليه فَحَفِظَ شطرًا منه خلال رحلة العودة. ولمَّا وصل إلى ترمذ في بلاد ما وراء النهر قرَّرَ أن يتمادى فيما فتح اللَّـه به عليه

وهداه إليه. كان القرآن يجتاحه ويملك عليه ليله ونهاره مثلما يجتاح نهرُ جيحون بَسِيطَ تلك البلاد، فتنمو الجنبات بكلِّ الخيرات من تينٍ ولوزٍ وجوزٍ ورمَّانٍ وأعناب.

كان يمضي الليلَ كلَّه يقرأ في كتاب اللَّـه ولا يشعر بالتعب إلى أن يطلع الصَّباح حتى أتمَّ حفظه. ولمَّا انتهى إلى غايته وحقَّق أمنيته باستظهار القرآن عزم على الاشتغال بنفسه في المجاهدات والزَّهادة في الدنيا وتحقيق مَنَاطِ الصِّدق أوَّلًا. كان يتتبَّع الكتبَ لعلَّه يجد فيها ما يعينه على سلوك طريق الآخرة، وجَدَّ في البحث عن مرشدٍ يسترشد به فيما عزم عليه فعزّ عليه وجودُه.

كان صادقًا في عزمته، متحيِّرًا في أمره، يريد بكلِّ كيانه أن يحصل على المطلوب، فلم يجد أَوْفَقَ له من المداومة على الصَّوم والصلاة. داوم على ذلك حتى انتهى إلى سمعه كُتُبُ الرَّقائق وما ألّفه أهلُ المعرفة في سلوك طريق الآخرة، فبحث عنها وانتهى إليه كتابُ الأنطاكيّ من أقران السَّرِي السَّقطِيّ والمحاسبيّ، فنظر فيه نظرَ مسترشِد، وتعلَّم منه كيفيةَ رياضة النَّفس حتى هداه اللَّـه لما كان ينشُده. ثمَّ زهدت نفسه في الشَّهوات، بل لكأنَّه تمادى في ذلك يمنع عنها حُرَّ الطيبات، فكان يزهد في الماء البارد ويمنع نفسه من شربه ويصرفها عنه. كما كان يمتنع عن شرب مياه الأنهار الصَّغيرة مرجِّحًا أن تكون قد جرت في مواضعَ بغير حقّ، أو على أراضٍ مغصوبة أو انتُهِكت بها محارم، ويفضِّل أن يشربَ من مياه الآبار لبعدها عن تناول الناس وجريانها في جوف الأرض. كما كان يشرب من مياه نهر جيحون.

وبفضل ما قرأه في كتاب الأنطاكيّ وقع في نفسه حبّ الخلوات، فكان يخلو في منزله أو يخرج إلى الصحراء بعيدًا عن الخلق، لا يشتغل

إلَّا بالذِّكر والفرائض. ثمَّ إنَّه كان يقصد المقابر والأماكن الخَرِبَة حيث النَّواويس التي بها رِمَمُ أموات الأمم الماضية. فلم يزل ذلك دأبُه حتى كان يحسُّ بالوحشة. بحث عن أصحابٍ يطلبون الأمر نفسه، فلم يجد من يقوى على مجاهداته ويرغب في مثل صنيعه.

بَقِيَ على حاله تلك لا يجاور إلَّا القبور وَمَنْ بها من الأرواح والعظام النَّخِرة والرِّمَمِ البالية حتى يقهر نفسَه عن طلب الشهوات ويُمِيتَها عنها.

وذات ليلةٍ، رأى فيما يرى النائم كأنَّ رسول اللَّـه ﷺ قد دخل المسجد الجامع في بلدته، ورأى أنَّه قد اقتفى أثره لا يَحِيدُ عنه. فما زال النبيّ يتقدَّم داخل المسجد حتَّى دخل المقصورة، فدخل محمَّد خلفه يضع قدمه في موضع قدمه بمجرَّد أن يرفعَ النبيُّ خطوتَه حتَّى ليكاد أن يلتصق بظهره.

ثمَّ صعد النبيّ المنبرَ فصعد محمَّد الترمذيّ خلفه. كلَّما رقي دَرَجَةً رَقِي على إثره. حتى إذا وصل إلى أعلى درجة في المنبر قعد عليها، فقعد المقتفي في الدرجة التي دُونَها عند قدميْه. كان يجلس ويمينه إلى رسول اللَّـه، ووجهه متوجِّهٌ إلى أبواب المسجد التي تلي السُّوق. أمَّا شِماله فكانت إلى جهة المصلِّين. وبينما هو على هذه الحال من الاقتفاء والقرب انتبه من نومه.

أحدثت هذه الرؤيا تحوُّلًا في الرائي الذي أدرك أنَّه على قدم رسول اللَّـه ﷺ، وأنَّه في موقع الدلالة على اللَّـه، إذ إنّ جلوسه على المنبر كان إذنًا في التَّصَدُّر لتعليم الناس وتربيتهم، فَوَجْهٌ إلى رسول اللَّـه للاستمداد، ووجهٌ إلى الناس للاستنهاض.

وتعزَّزت تلك الرؤيا بِمَرَاءٍ أُخَرٍ حيث رأى ذات ليلةٍ نفسه يصلِّي حتى ثَقُلَ، فوضع رأسه في مُصَلَّاه جَنْبَ فراشه، ورأى صحراءَ عظيمة،

ورأى فيها مجلسًا عظيمًا وموضعًا مرتَّبًا للتَّصَدُّر فيها، وستائر مضروبةً على ذلك المجلس، وثيابًا رفيعة تزيِّن ذلك المكان، فكأنَّه سمع قائلًا يقول له: إنَّه ذاهب به إلى ربِّه، وأمره أن يدخل تلك الحجب. دخل محمَّد بين تلك الحجب، فلم يرَ أحدًا ولا صورةً، لكنَّه فزع واستحاش من ذلك الحجاب، فأدرك أنَّه بين يدَي اللَّـه عزّ وجلّ. ثمَّ ما لبث أن خرج من تلك الحجب بالقرب من بابٍ يُقال له باب الحجاب، وقال يخاطب نفسه: قد عفا عنِّي ربِّي.

فلم يبقَ به فزعٌ من تلك المشاهدة، واستأنس بذلك الجوار.

لقد كانت هذه الرؤيا إيذانًا باستيفائه لنطاق الصدق في الحياة الرُّوحيَّة ودخوله في نطاق شهود المنَّة الإلهيَّة. لقد تحوَّل من وَلِيٍّ يرعى حقوقَ اللَّـه إلى وَلِيٍّ للَّـه حقًّا.

كانت هذه المبشِّرات مرسومَ دخولٍ في طريق سادات القوم. جاءت بعد أن أثمرت تلك المجاهدات والأذكار في نفس محمَّد حقيقة ما كان يبحث عنه. وبعدما ذاق حلاوةَ تلك الخلوات، وسماعَ تلك المناجيات، ومشاهدةَ تلك المنازلات لم يزده ذلك إلَّا إدمانًا عليها وطلبًا لمزيدٍ منها. بلَغَ أصحابَه ما فُتِحَ به عليه من ذلك فطلبوا أن ينضمُّوا إليه ويُرَتِّبوا لقاءً يجتمعون فيه إليه بشكلٍ منتظم. تقوَّى قلب محمَّد لذلك، وزاد انتباهُه وقلَّتْ غَفْلَتُه، فأجاب الطالبين لعقد مجلسٍ يجتمعونَ فيه يتذاكرونَ ويَذْكُرُون، ويُحَدِّثُهُمْ بتلك الرَّقَائِق وما فُتِحَ به عليه من العلوم والحقائق.

لم يمنع أحدًا قَصَدَه حتى كَثُرَ الصَّادِرُ والوارد، واختلط الصَّادِقُ بالكاذب، وتسامَعَ النَّاسُ بما كان يحدِّثُ به من أُمُورٍ عن الولاية والوليّ،

والنُّبُوَّةِ والنَّبِيّ، فاستعظَمَ قومٌ تلك القَالَةَ، وتأوَّلها آخرون، والرجل لا يتكلَّم إلَّا عن ذوق، ولا ينطِقُ إلَّا بِشَوْق، وكُلّ مرماه إلى فَوْق.

* * *

كان الترمذيّ يفكِّر في طريقةٍ يميِّزُ بها الأولياء عن الأدعياء.

رجع إلى بيته وأوقد الحطب في المدفأة فاشتعلت النار، ودبَّت الحرارة في جنبات البيت الباردة، ثمَّ خَلَعَ ثِيَابَهُ الفوقية وانْحَشَرَ في سَرِيرِ نَوْمِه.

سَرَحَ بِفِكْرِهِ حتى أَخْلَدَ إلى النَّوْمِ، ثم رأى نَفْسَه في مدينةٍ عجيبة ليس لها مثالٌ في المدن التي زارها أو تلك التي يعرفها. كانت مدينةً مفتوحةً لا أسوارَ حولها، وتحيط بها حقولٌ وغابات على مَدِّ البصر، فيها مِن كُلِّ زوجٍ كريم. كان سُكَّانُ المدينة على طبقاتٍ مختلفة، كل طبقة لها لباسٌ خاص تتميَّزُ به. وجد نفسَه بلباسٍ لا يشبه لباسَ أهلِ المدينة، فكان منظَرُهُ يُثِيرُ العَجَبَ في أهلِها فيقتربونَ منه ليلمسوه حتى يَتَعَرَّفُوا عليه. كان يستغرب من فعلِهم، لكنَّه أدرك أنَّ تصرُّفَهُم طبيعيّ لأنَّه كان على هيئةٍ مختلفة أثارت فضولَهم. مشى في المدينة يستطلِعُ معالِمَها. كانت مرتّبةً على أحسن ما يكون الترتيب، ولكلّ طبقةٍ من طبقاتها حَيٌّ مستَقِلٌّ له حدائقُ غَنَّاء ومَرافِقُ مختلفة ممَّا يحتاجونه في شؤونهم. لم يكن في المدينة شُرطة أو جيش يحرسها لأنَّ أهل المدينة لا يعرفون الجريمة والشرّ، فكلّ أفعالهم خيرٌ محضٌ. ومضى محمَّد يمشي في دروب المدينة وسِكَكِها يقف على عادات أهلها وأنشطتهم. رأى في بعض حاراتها حَلْقَةً فيها من كلّ طبقات المدينة بألبستهم المختلفة، فاقترب من الحلقة وجلس إليهم يسمع ما يدور بينهم. كانوا يتحدَّثون في الحكمة والفلسفة،

وكان كلُّ واحدٍ يتكلَّم على السعادة التي يشعر بها، ويُخْبِرُ أصحابَه عن مصدر تلك السعادة. مضى المتحدِّثُونَ يعربون عمَّا في ضمائرهم ممَّا يعتقدونَه في السَّعادة وأسبابِها وعلاماتها. تكلَّم أَحَدُ المتحلِّقين وأفاد بأنَّ السَّعادة في الملذَّات الحسِّيَّة، فَرَدَّ عليه آخر بأنَّها في التَّفكير والوعي العقليّ. ثمَّ رَدَّ عليهما ثالث بأنَّها مجموع الحسِّيَّات والعقليَّات. وقام رابع يقول بأنَّ السَّعادة ترتبط بتحقيق الخير فتحصل لصاحبها لَذَّةٌ هي أُمُّ الفضائل، وتابع قوله بأنَّه يرى أنَّ السعادة جماعيَّة وليست فرديَّة. ثمَّ عقَّب عليه متحدِّثٌ آخر بأنَّ لكلّ أمرٍ غاية، وغاية الاجتماع الإنسانيّ سياسة المدينة، وغايةُ السياسةِ السَّعادة. فردَّ عليه أحدهم بأنَّه من اللَّازم التَّمييز بين سعادة العَوَامّ وسعادة الخَوَاصّ؛ فغايةُ عامَّة الناس من السَّعادة إشباعُ الملذَّات الحسِّيَّة، بينما غايةُ الأمر عند خاصَّتهم هو أنَّ السعادةَ تَكْمُن في نَيْل التشريفات التي يَسْعى إليها أهلُ الطَّبقة السياسيَّة.

ثمَّ قامت امرأةٌ، فقالت: أراكم لم تتحدَّثوا عن السعادة التي يشعر بها الإنسان حينما يطلق العنان لطاقة التأمُّل في داخله. ثمَّ قالت امرأةٌ أخرى: أراكم تتحدَّثون فقط عن السَّعادة في هذه الحياة الدنيا، بينما الأصل أنَّ هذه الدُّنيا مزرعة الآخرة، وأنَّ الكَدَّ في الأولى كفيلٌ بنيل السعادة في الآخرة.

شكَّك أحد الحاضرين فيما ذهبت إليه هذه المرأة، وردّ عليها بأنَّه يجد من الصعوبة أن يفترض وجودَ سعادةٍ أخرى مظنونةٍ غير ما يعيشه الناس في هذه الحياة التي يحيونها بذواتهم وأحاسيسهم.

قام الترمذيُّ من تلك الحلقة وواصل طريقه بين تلك المنتزهات البديعة والسواقي الرقراقة المنسكبة والنَّوافير الراقصة ماشيًا في ممرَّاتها

بين أفياءٍ وظلال. كان كلُّ شيء جميلًا مرتَّبًا، وكأنَّ السكينة قد نزلت على أهل هذه المدينة. كان يرى في تلك الممرَّات جماعةً من ثلاثة أو أربعة أشخاص يحدِّثهم حكيمٌ مَشّاءٌ يمسك كتابًا في يده ويتوقَّف أحيانًا فيفتحه فَيَكُبُّ عليه أصحابه ليتابعوا ما يشير إليه. ثمَّ رأى ثلاثَ نسوة مثل الأقمار حُسنًا وجمالًا وَوَضَاءَة. اقترب منهنَّ فتبسَّمن له، ثمَّ ابتعد قليلًا. جلست الأقمار تحت ظلّ شجرة وارفة الظلال، فأمسكت الأولى عودًا، والثانية نايًا، والثالثة دُفًّا، ثمَّ بدأن في الغناء فأعربن عمَّا في الضمير والأحشاء من حبٍّ له في الرُّوح نسمةٌ وترجيع، وفي القلوب لَذْعَةٌ وتَلْويع.

وبينما هو يستمتع بذلك المجلس البديع الذي تنساب بالقرب منه ساقية تجري وسْط خميلَةٍ غَنّاء، رُشِقَتْ بالنَّوْرِ والقَرَنْفُل والحِنّاء، إذ أقبل ثلاثةٌ من الرجال كأنَّهم يطلبون هَاتِيكَ النِّساء.

كان بمنزلةٍ بحيث يرقبُ الجَمْعَ ولا يثيرُ الانتباه، بل كأنَّه حكَمٌ في تلك الرِّبَاع.

أقبل الأوَّل وفي يده كتاب، وعليه طيلسان، فسلَّم على الجمع، وجلس في صدر المجلس فوق سجَّادٍ عليه طنافِسُ رُقِمَتْ بِطِرازٍ من الورد والسَّوْسَن والياسمين. هَشَّت في وجهه ربَّات الحُسْن والبهاء في هذه الجِنان، ووقَّعَت بلحنٍ من رائق نغم الأصبهان.

ثمَّ قَدِمَ الثاني وعليه عمامةٌ بدت من تحتها وَفْرَةٌ غطَّتْ شَحْمَةَ أذنيْه، فسلَّم على ربَّات الحِجَال وفائقاتِ الجمال، فرددنَ التحيَّة بنغمةٍ وتوشيحٍ من رائقِ نغمَةِ الاستهلال.

ثمَّ أقبل الثالث يستند على عُكَّازَةٍ يُوقِّعُ بها سَيْرَهُ ويلتمس طريقَه بين المماشي، تُمَغْنِطُهُ نحو مجلسِ الطَّرَب تلك الألحانُ حتى وقف بتلك

الأفياءِ، فَسلَّم بما يَليقُ من التَّحيَّة والاستئذان، فردَّتْ عليه باهراتُ الغُنج والدَّلال بما يطيب للأرواح، من تحيَّاتِ نَغْمَةِ عُشَّاقِ ذَهَبِيَّةِ الإصباح، وما يرتجع في الغُدُوِّ والرَّواح.

أخذ الجالسُ الثاني بيد القادم الأخير، فأقعده بجانبه.

ولمَّا اكتمل المجلسُ بربَّات الحُسن والبهاء، وأرباب العلم وخاتمة البُلَغاء والشُّعَراء والحُكَماء، قدَّمَ كُلُّ واحِدٍ نفسَه وعرَّفَ باسمه وَوَسْمِه.

فقال الأوَّل: أنا أبو نصر محمد الفارابيّ، حكيمُ الفلاسفة، ولقبي الذي عُرِفْتُ به هو «المعلِّم الثاني».

وقال الثاني: أنا أبو الطيِّب أحمد، خاتمة الشُّعراء وحكيمُهم، ولقَّبني أعدائي بلقب فيه دعوى وجناية هو «المتنبّي».

وقال الثالث: أنا أبو العلاء أحمد المعرّي، فيلسوفُ الأدباء وحكيمُهم، ولقبي هو «رهين المحبِسيْن».

وَضَعَتْ صاحبَةُ العود آلَتَها بجانبِها ثم الْتَفَتَتْ تسألهم: إنَّ سُكَّانَ مدينَتِنا يعيشونَ في سعادةٍ غامرة، وكلُّ فئةٍ تعيش حياتَها وِفْقَ ما تُقَدِّرُهُ وتراه مناسبًا، فما هي في نظركم أسبابُ السَّعادة؟ وما هي الطُّرُقُ الموصِلَةُ إليها؟

استأذن الفارابيّ صاحبَيه في الكلام لأنَّه كان أكبرَ الثلاثة سِنًّا، فقال: السَّعادةُ ليست أمرًا فرديًّا، بل هي أَمْرٌ جماعيّ، فلا يُعْقَلُ أن يكونَ الإنسانُ سعيدًا في مجتمعٍ شَقِيٍّ، لأنَّ الإنسانَ لا يعيشُ مُنْفَرِدًا بل هو كائنٌ اجتماعيٌّ يعيش في الحواضر والمدن، لذا ينبغي الحديثُ عن الأسبابِ الكَفيلةِ بتحقيقِ السَّعادة في المدينة الفاضلة.

استشكلت المرأة: لم تُخبِرْنا عن الأسباب الموصِلَةِ إلى هذه السعادة، وإنَّما تكلَّمتَ عن تَعلُّقاتِها.

فردّ أبو نصر: نعم، فعلتُ ذلك لأنِّي أعتَبِرُ أنَّ الحديث عن المدينة الفاضلة التي تتحقَّقُ فيها السَّعادةُ كفيلٌ بالإبانة عن فضل الاجتماع البشريّ على الفضائل الموصِلَةِ إلى السعادة. والحقُّ أنِّي أرى أنَّ السعادةَ لا ترتبط بإشباع الشَّهوات الجسديَّة كما قد يعتقد البعض، بل أرى أنَّ السَّعادَةَ لا وجودَ لها في عوالم الحِسّ، بل إنَّنا لا نُولَدُ سُعَدَاء، لكنَّنا نكتسب تلك السعادة بعد تحصيل التَّفكير والفهم والتَّعَقُّلِ العميق لأنفسنا وللأشياء من حولنا. إنَّ السَّعادةَ تَحْصُلُ بالمنطق الذي هو ميزان العقل لتمييز الصحيح من الخطأ. وكلَّما كان المرءُ أَقْدَرَ على تشغيل ذهنه للتمييز بين الباطل والحقّ كان سعيدًا.

ثمَّ ختم قولَه: إنّ السُّعداءَ في المدينة الفاضلة هم الفلاسفةُ لأنَّهم أَقْدَرُ الناس على التَّفكير الصائب، والتمييز بين الحقّ والباطل بالمنطق العقليّ. ثمَّ التَفَتَتِ الثانيةُ إلى أبي الطيّب تسأله: وأنتَ يا أبا الطيّب، ما قولُكَ في السَّعادة وتحصيلِها، وأنت الذي ملأتَ الدنيا وشغلتَ النَّاسَ بشعركَ وبليغ بيانِك؟

فأجاب أبو الطيّب: مدينتي الفاضلة هي مدينة يرأسها الشُّعراء أصحابُ البيانِ، والقولِ الأوَّل، والجوهرِ الفَرْد؛ فمهما قال قائل من القدماء، فالشِّعْرُ أو النَّظْمُ أَسْبَقُ منزلةً وأعلى مرتبة. كان النَّظْمُ ولم يكن معه شيءٌ سواه، ومن تلك الشجرة خرج غصنُ النَّثر.

تململ أبو نصر في مجلسه، واعترض عليه: لسنا نسلِّم لك ما تزعم، فهذا الحكيم أفلاطون لم يسمح للشُّعراء بدخول مدينته الفاضلة.

فانتفض أبو الطيِّب منتقدًا: ما كلامي مع الأعاجم، ولا رأيَ لهم فيما نحن فيه من الفضائل والمغانم. لا يتكلَّم على العربيَّة وشعرها إلَّا عربيٌّ حُرٌّ فصيحٌ خالص في عروبته، فاضلٌ في معرفته بها وبخصائصها. فرجاء، لا تكلِّمني على فلان وفلان من حكماء يونان، فليسوا عندي بحجةٍ على العربيَّة، وإنَّما هي حجَّةٌ عليهم، على الرَّغم من فاضل علمهم وحكمتهم التي يشتركون فيها مع غيرهم من أجناس البشر.

تأفَّفَ الفارابيّ من قوله مبديًا اعتراضه على هذا الكلام، لكنَّه لزم الصمت لأنَّ نوبته في الكلام قد مضت.

ثمَّ أضاف أبو الطيِّب، وكأنَّه ينبو بشاعريَّته عليهم، ألم تسمعوا قولي:

سيعلم الجمعُ ممن ضمَّ مجلسُنا ... بأنني خيرُ من تسعى به قَدَمُ
أنا الذي نظرَ الأعمى إلى أدبي ... وأسمَعَتْ كلماتي مَنْ به صَمَمُ
أنامُ مِلْءَ جفوني عن شوارِدها ... ويَسهرُ الخلقُ جَرَّاها ويختصمُ

أحسَّ أبو الطيِّب بِتَمَلْمُلِ أبي العلاء بجانبه، فاستدرك فيما قد يكون قد ساءه من التعريض بالعميان في شعره: يا أبا العلاء، كم من المُبصرين ليس لهم مثلُ ثاقبِ بصيرتِك، فأنت وحدَكَ أُمَّة.

فقال أبو العلاء: صدقتَ يا أبا الطيِّب، لقد أسمعَتْ كلماتُك هذا الأعمى، ولم يَطْرُقْ مثلها شِعْرُ شَاعِر، ولا ضَيْرَ عليك، فإنِّي رهين المحبسيْن: بيتي وعَمَاي. يا أبا الطيِّب أحمد، إنَّ شعرَكَ مُعجزٌ.

فانتشى المتنبِّيّ: أنا ابنُ الأكرمين يا أبا العلاء، وأفضلُ من قال شعرًا بلغة الضاد، وقد صدقتَ لمَّا كتبتَ عن شعري كتابَكَ «مُعْجِزُ أَحْمَد»، فقد وفَّيت، جازاك اللَّـه خيرًا.

فسأل أبو العلاء: لكنْ، أخبرني، لماذا قلتَ متحدِّيًا أمام سيف الدولة الحمدانيّ، فتى العربِ في زمانه، وفارسهم الأوَّل وأميرهم المقدَّم بأنَّك أفضلُ مَنْ في مجلسه الذي أسمعتَه فيه الأبيات السابقة؟

فأجاب أبو الطيِّب: لعلَّ نسبي قد خفي عليك يا أبا العلاء، فأنا ابن الأكرمين من سادات آل البيت الكرام، المضطهدين في حقِّهم المسلوب. وقد سُلِبْتُ من حقِّي في نسبي، فلم يقبل قومي أن أُظهره بسبب عقائدهم المذهبيَّة، وخوفًا على سرِّيَّة قضيتهم من الاستعلان، لكنَّ سيف الدولة كان يعلم نسبي. وأنت تعلم أنَّ الحمدانيِّين كانوا علويَّة المذهب مناصرين لهم، وإن لم يكونوا علويَّة بالنسب. وقد أطلعتُ سيف الدولة على أمري واطَّلَعَ عليه من الثقات، فلمَّا أنشدتُ بين يديْه تلك الأبيات التي لا يُنْشِدُهَا الشُّعراءُ بين أيدي الملوك، ولا يفتخرون عليهم بنسبهم، لم يعترض لأنَّه كان يعرف نسبي، وأنِّي ابنُ الإمام.

ثمَّ أضاف مجيبًا عن السؤال الأوَّل: السعادةُ هي في هذا البيان العربيّ، والشَّرفُ كلُّ الشرفِ في طلب المعالي التي دُونَها الموت. ألم تسمعوا قولي:

إذا غامرتَ في شرف مَرُومٍ ... فلا تقنَعْ بما دونَ النُّجومِ
فَطَعْمُ الموتِ في أمرٍ حقيرٍ ... كطعمِ الموت في أمرٍ عظيمِ

أنا الشاعر الذي أنشد أيضًا:

لا بقومي شَرُفْتُ بل شَرُفُوا بي ... وبنفسي فَخَرْتُ لا بجدودي
وبهم فخرُ كلّ من نَطَقَ الضَّا ... دَ وعَوْذُ الجاني وغَوْثُ الطّريد
إن أكن معجبًا فعُجبُ عجيبٍ ... لم يجدْ فوق نفسه من مَزيدِ

أنا تِربُ النَّدى وربُّ القوافي وسِمامُ العِدى وغيظُ الحسود
أنا في أُمّة تداركها اللـ ـهُ غريبٌ كصالحٍ في ثَمودِ

ثمَّ سكت أبو الطيّب، فقد تكلَّم الشعرُ وأعربَ البيانُ بأنّ السعادةَ الأبديَّة هي في مدينة الشعر التي يقف إمامًا على رأسها وختمًا لشعرائها.

ثمَّ نطقت ربَّة الحسن الثالثة، فسألت: وأنت يا أبا العلاء، ما عندك من الجواب عن السَّعادة وطرقها وأسبابها؟

فأجاب أبو العلاء: لقد تكلَّم أبو الطيّب شعرًا، وأجدني أنا الأديب الشاعر الحكيم مضطرًّا لأن أنشد شعرًا أيضًا:

وإن يَكُ في الدُّنْيَا سُعُودٌ تكون قليلًا كالشَّذوذِ الشَّواردِ
أرى كَدَرًا عَمَّ الموارِدَ كلَّها فَمُتْ أوتجرَّع من خبيث الموارد

أنا أرى أَنْ لا وجود للسَّعادة في هذه الدنيا، وانظروا إلى حالي بينكم، فأنتم تتنعَّمون بحسن هذا المكان، وصَبَاحَةِ هذه الأقمار الصادحة بِبَهِيِّ الألحان، وأنا لا أعرف عنها إلَّا ما قد تخبروننني عنها، فأيُّ سعادة عندي، وقد حُرمت حتى هذا الذي يستوي فيه كل إنسان مِمَّن له بصرٌ وحِسٌّ وجَنان؟

أنا لا أجد سعادةً إلَّا في عزلتي حيث أُطلق العِنان لخيالي وأدبي، فيسرحان بي في مدينةٍ فاضلة ليست من مدن هذه الدنيا، بل هي من مدن الآخرة.

فقال أبو نصر: لعلَّك تشير إلى كتابك «رسالة الغفران» التي نصبتَ فيها محكمةً، وأدخلتَ إلى جنَّاتها ما شئتَ من أهل اللُّغة والشعر والبيان، مثل زهير بن أبي سلمى والأعشى والنابغة ولبيد وحسَّان بن

ثابت، وأخبرتنا عن صاحبك ابن القارح الذي سافر إلى تلك الجنان، والتقى بأهلها ونقل لنا حكاياتهم وأسبابَ دخولِهم الجنَّة، وأحيانًا بسببِ بيتٍ صَدَرَ عنهم. ثمَّ عرَّج صاحبُك بعد ذلك على السَّعير فحاور أهله وسامرهم، والْتَقَى هناك ببعض أعلام أهل الأدب والشعر والشجاعة مثل عنترة وامرئ القيس وبشَّار بن بُرْد وعمرو بن كلثوم وطرَفة بن العبد.

ردّ أبو العلاء: أرى أنَّك اطَّلعتَ على رسالة الغفران يا أبا نصر، ولم تمنعك مدينتك الفاضلة مع فلاسفة يونان أن تطالع مصير شعراء العربيَّة من عَبْس وذُبْيان.

فسأل أبو نصر: وما يمنعني من ذلك، وفي مدينتي من أصنافِ هؤلاء وأولئك؟

ثمَّ ختم أبو العلاء قائلًا: مدينتي أيُّها الأفاضل مدينةٌ لا تتحقَّق إلَّا في الآخرة، وهي مدينة أهل الأدب وأهل اللُّغة. إنَّها مدينتهم وفيها يتنعَّمون ويتفاضلون. إنَّها مدينةٌ فيها جنَّة ونار، ولكلّ واحدٍ مقعده في واحدة منهما. وقد أشهدني اللّـه حقيقتهم فسكنتُ لغتي رغم أنّي رهين محبسيْن وسجين موطنيْن. أنا خاتمة الأدباء الحكماء وأنا ختمهم، وعند اللّـه نلتقي وهو الحكيم الخبير.

اعترضت إحدى ربَّات الحسن والدلال، واستشكلت: أرى أن كلَّ واحدٍ منكم أيُّها السادة الأعلام يزعم أنَّ مدينتَه أفضلُ المدن، وأنَّ كلَّ واحدٍ منكم هو خَتْمٌ في الفلسفة والشعر والأدب. وأنَّ ما يجمعكم هو الحكمة، فأنتم حكماء الفلاسفة والشُّعراء والأدباء، لكنْ أليس في مدينتكم نساء؟ ومالي لم أسمَعْكم تتحدَّثون عن **فَضِّ الختام** الذي هو بالنساء حقيق، ولا يحلُّ لكم إلَّا بِمَهْر ورضى وقبول. أفلا تكون المدينة

الفاضلة في أرحام النساء لأنَّهنَّ صاحبات الأختام، وأنتم مهما تفاخرتم لا بُدَّ لكم من فَضِّ الختام والاستئذان بتكبيرة إحرامٍ وسلام.

سكتت المرأة ولم يُحِرِ الأختامُ جوابًا، وصاروا يتفكَّرون في كلام المرأة التي أفحمتهم بالحُجَّة وأسكَتَتْهُم بالدَّليل.

كان الترمذيُّ يرمق الجماعة وينصت إلى حديثهم ويتسمَّع حواراتهم، وراقه جوابهم وأطمعه كلامهم، فقام من مكانه وانحدر نحو مجلسهم فسلَّم عليهم وبشَّ في وجوههم.

ثمَّ كلَّمهم: أيُّها السادة الأفاضل وأكرمُ أناسٍ من الأماجد والأماثل، لقد سمعت مقالتكم، واطَّلعت على حججكم، وإنِّي مُلْقٍ إليكم بإشكالات وأَسْولَةٍ، فإن أجبتم فقد وفَّيتم، وإن كانت الأخرى فَلِي رأيٌ فيكم، وعليَّ أن أحكم بينكم، كما لي رأيٌ في مدنكم بالأفضليَّة والمفضوليَّة، فهل تقبلونني قاضيًا في هذه القضية؟

فسألته ربَّةُ الحُسْنِ التي أفحمَتْ وألجمَتْ لسانَ الأختام من قبل: وهلَّا أخبرتنا أوَّلًا عنك وعرَّفتنا باسمك ونبَّهتنا إلى صفتك قبل أن تقتحم مجلسنا وتقوم قاضيًا بين هؤلاء الحكماء؟

فأجاب محمَّد: صدقتِ يا امرأة. أنا أبو عبد اللَّـه محمَّد، الملقب بالحكيم الترمذيّ، وقد ألَّفت كتابًا عنوانه «ختم الأولياء»، أَمْلَى عليَّ معارفَه وعلومَه رجلٌ من رجال العلم اللَّدُنِّي لأمتحنَ به الأولياء، وأَرُوزَ به الأصفياء من الأدعياء.

فتكلَّم الأختام جميعُهم، وقد أخرجهم بكلامه من حيرتهم: رضينا بك قاضيًا يا أبا عبد اللَّـه، فمن جاءه علمٌ لَدُنِّي حَقيقٌ بالتَّحكيم في أمثالنا. ونحن نمشي معك سيرة موسى مع الخضر.

فردّ أبو عبد اللّـه: هذا من إنصافكم وعدلكم وشهامتكم وفضلكم.

ثمَّ أضاف قائلًا: لا بُدَّ لكلِّ قاضٍ قبل أن يقضي بين المتقاضين أن يسمَع منهم أوَّلًا.

فقالوا جميعًا من غير اتِّفاق: هذا عين الإنصاف والعدل.

ثمَّ باشر أبو عبد اللّـه مهمَّته للتّو: فلتتفضَّل بالحديث يا أبا نصر، فإنَّكَ أَسَنُّ الجماعة، ولْتُخبرْنا عن حياتك من مبدئك إلى مماتك حتى أستطيع أن أقول قوْلي فيك، وأحكم بعدُ في أمرك. ولْتُخْبِرْنا عن الحكمة وعن المدينة الفاضلة التي كتبت عنها.

فاستجاب أبو نصر للدَّعوة: نِعْمَ ما قلتَ يا أبا عبد اللّـه، وها أنذا أسرد عليكم سيرتي من أوَّلها إلى آخرها حتى تعلموا من أمري ما ينبغي أن تعرفوه.

ثمَّ انطلق أبو نصر الفارابي يسرد سيرته على الجماعة.

* * *

الفيلسوف الحكيم

«هذا الرجل[1] أفهمُ فلاسفة الإسلام وأدراهم للعلوم القديمة، وهو الفيلسوف فيها لا غير، ومات وهو مدركٌ محقِّق».

(بُدُّ العارف: ابن سبعين)

* * *

ولدت سنة 259 للهجرة في وَسِيج على الشاطئ الغربي من نهر سَيْحون، وكانت أقرب ولاية إلينا هي فَاراب التي تتبع لها، فَعُرِفت بالفارابي. ولدت مسلمًا، وقد دخل الإسلام إلى بلادنا في عهد السَّامانيِّين حين غزا نوح بن أزاد المنطقة. كانت بلادنا بلادًا سَبِخَة يصعب الوصول إليها، فتمنَّعتْ على جيش المسلمين لوعورتها.

اسمي محمَّد، واسم والدي محمَّد بن طرخان، وكنيتي أبو نصر. كان والدي قائدًا عسكريًّا من أصلٍ تركيّ، ولغتي هي التركيَّة، لكنِّي تعلَّمت الفارسيَّة والعربيَّة واليونانيَّة وأتقنتها، كما أتقنت لغاتٍ أخرى غير هذه.

---

(1) يقصد الفارابي.

تعلَّمتُ في مسقط رأسي جملةً من العلوم الرياضيَّة والآداب والفلسفة واللغات، ثمَّ خرجت من بلدي سنة 310 للهجرة، وقصدت مواطن المعرفة في حرّان التي ورثتْ علومَ مدرسة الإسكندريَّة، وكنتُ وقتئذٍ في حدود الخمسين من عمري. وليس في حياتي شيءٌ يُذكر سوى أنَّني وهبتها للعلم والفلسفة والدِّراسة والتَّحصيل. وقد درست على رؤساء مدرسة حرَّان، ثمَّ انتقلتُ إلى بغداد حين انتقلوا إليها في عهد الخليفة المعتضد بين سنوات 279 و289.

قصدتُ العراق وأتممتُ هناك دراستي، وتعلَّمت علومًا جديدة. درستُ الفلسفة والمنطق والطبّ على يوحنا بن حيلان، الطبيب المنطقيّ نصرانيّ الديانة. وقد بلغت في دراستي عليه المنطق إلى آخر كتاب البرهان. كما درست الفلسفة والمنطق في بغداد على نصرانيٍّ آخر من فرقة النساطرة هو يونس بن مَتَّى. كان يونس من أشهر مترجمي التراث اليونانيّ إلى العربيَّة والسريانيَّة، ومن أكبر المناطقة. وقد لزمت حلقته لِسَعَة اطِّلاعِه على فلسفة أرسطو وتَصدُّرِه في المنطق رغم ركاكة عبارته وقلقها. وقد فُقْتُ أقراني بل أساتذتي في العلوم الحكميَّة، لكنِّي لم أرغب في التقرُّب من السلاطين، وبقيتُ خاملَ الذِّكْر في بغداد. ثم درست على ابن السّراج في مدينة السَّلام علومَ العربيَّة. وتعلَّمتُ فيها الموسيقى وأتممتُ دراسة اللغات والطبّ والعلوم والرياضيَّات.

استنتج أبو العلاء: لقد تعلَّمتَ هذه العلوم وتتلمذتَ في سنٍّ متقدِّمةٍ يا أبا نصر.

فأجبتُه: نعم، العلم يا أبا العلاء، من المَحْبَرَة إلى المَقْبَرة، وليس عيبًا أن يبقى الإنسان يتعلَّم حتَّى آخر حياته.

فاعترض أبو الطيّب موضّحًا: بل إنَّ أبا العلاء يقصد أنَّ نبوغك تأخَّر على خلاف المعتاد في النابغين.

فأجبتُ: إنَّ العلوم التي نبغتُ فيها تحتاج إلى طول مداومة وصبر ومعاناة، وليست من جنس العلوم والفنون التي قد ينبغ فيها الإنسان في سنٍّ مبكرة.

سأل أبو العلاء: وهل تزوَّجت يا أبا نصر؟

فأجبته: أبدًا يا أبا العلاء، فإنّي لم أتأهل للزواج، وهذا ممَّا نشترك فيه، فكلانا بقي عازبًا وَهَبَ نفسه لأمرٍ آخر غير الزواج والإنجاب.

لقد آثرتُ مثلَك أيضًا حياة الزهد والتقشف والوحدة والعزلة عن الناس على طريقة الحكماء.

فقال أبو الطيّب: أذكر أنَّك لَمَّا قبلت دعوة سيف الدولة في حلب، اشترطت عليه أن لا تأخذ منه إلَّا أربعة دراهم في اليوم على الرَّغم من أنَّ الأمير استقلَّ ذلك كثيرًا، ولولا حرصك وإصرارك لما قبل بهذا الترتيب الذي وإن كان يرفع من قدر المشترِط الآخذ ويَدُلُّ على عُلُوِّ همَّته، إلَّا أنَّه قد يقدح في كرم المُعطي مِمَّن كان على قدر سيف الدولة.

فقلت: صدقت يا أبا الطيّب، لكنّي لم أشترط هذا الشرط إلَّا لكي أحفظ نفسي من بَطَرِ المال، كما اشترطتَ أنت أيضًا اشتراطاتٍ على سيف الدولة وقَبِلَها منك. ولولا أنَّه أميرٌ كبيرُ القدر يحرص على احترام جلسائه من أئمة العلماء والأدباء لَمَا قَبِلَ أن يُشترَط عليه فيما يملك.

أمَّا غيره من الأمراء مِمَّن كانوا لا يوقِّرون العلماء ويرفعون من شأنهم، فقد كان يَكبُر على نفسي أن أجالسهم. وقد ذكر الحكيم أرسطو قولًا كنت أتمثَّله «أعظمُ ما على النفوس إعظامُ ذوي الدنيا»، فقد كان يثقل على نفسي تعظيم أصحاب الدنيا ممَّن خَلَوْا عن الفضائل، وتباهوا بالمال وما في جنسه من الفانيات.

فقال أبو الطيِّب: وقد كان يثقل عليَّ أيضًا، يا أبا نصر، تعظيمُ هؤلاء الكبراء من صغار النفوس. وممَّا قلته في هذا المعنى الذي تَتَّفِقُ فيه النفوس الكبيرة:

وإنِّي رأيتُ الضُّرَّ أحسنَ منظرًا وأهونَ من مَرْأَى صغيرٍ به كِبْرُ

وافقت على كلامه: صدقت يا أبا الطيِّب، وقد أحصيتُ في شعرك عشرات الموافقات مع كلام الحكيم أرسطو.

فسأل أبو الطيِّب: وهل ذكر صاحبك أرسطو شيئًا من هذا المعنى الذي أذكره لكم:

كلُّ حِلْمٍ أتى بغير اقتدارٍ حُجَّةٌ لاجِئٌ إليها اللِّئامُ

تفكَّرتُ قليلًا ثمَّ أجبتُ: نعم قد قال مثل هذا المعنى حين قال «الفرق بين الحِلم والعجز أنَّ الحلم لا يكون إلَّا عن قدرة؛ والعجز لا يكون إلَّا عن ضَعف، فليس للعاجز أن يسمَّى بالحليم، وهو عاجز».

فتعجَّب أبو الطيب: عجيب مثل هذه الموافقات مع اختلاف الزمان.

ثمَّ أضاف: وهل وجدت في كلامه مثل قولي:

والظلمُ من شِيَمِ النُّفوس فإن تجدْ ذا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لا يَظْلِمُ

فقلت: نعم يا أبا الطيّب، فقد قال الحكيم أرسطو في هذا المعنى «الظلم من طبع النفس، وإنّما يَصُدُّها عن ذلك أحد أمريْن، إمَّا علَّةٌ دينيَّةٌ كخوف مَعاد؛ أو علَّةٌ سياسيَّةٌ كخوف السَّيف».

ثمَّ رجعتُ إلى الحديث الذي كنتُ فيه سابقًا: على كلِّ حال، كانت الدراهم المعدودة التي كنتُ أتلقَّاها من سيف الدولة كافية، أُنْفِقُهَا فيما أحتاج إليه من ضرورات الحياة، وكنت قانعًا بها، وإن كانت لا تفي عادةً بغرض الناس في قضاء حاجاتهم.

فقال أبو الطيّب: هذا يزيدك شرفًا يا أبا نصر. وقد كنتُ أعلم أنَّك كنتَ تستضيء بقنديل الحارس في الليل ساهرًا في المطالعة والتصنيف، ولم تكن تملك قنديلًا في بيتك، وقد بقيتَ على هذا الأمر زمنًا طويلًا.

فقلت: نعم، يا أبا الطيّب، فأنا زاهدٌ متقشِّفٌ كأبي العلاء، وهبتُ نفسي للحكمة وأعرضت عن طيّبات الدنيا وملذَّاتها. كان بإمكاني أن أبني الدُّور والقصور وأقتني الضياع وأجمع الذَّهب والفضَّة، لكنِّي كنتُ منشغلًا بما هو أجدى وأنفع، وهو وضع أسس السعادة البشريَّة في المدينة الفاضلة.

استذكر أبو الطيب: أذكر أنَّك كنت على هيئة من البذاذة والتَّقَشُّف، وما زلتُ أذكر قلنسُوَتَك البلقاء.

فقلت: نعم يا أبا الطيّب، فقد مرَّ زمنٌ طويلٌ على ذلك العهد. أذكر أنِّي كنت أوثر العزلة عن الناس وتخريب الظاهر، وانصرفت إلى العلم.

فقال أبو الطيّب: كثيرًا ما كنَّا نفتقدك، فيخبرنا سيف الدولة أنَّك كنت تعتزل مجالسنا لتخلو بنفسك، وتتردَّد بين دمشق وحلب لتكتب فصولًا وتعاليق على قضايا فلسفيَّة.

فوضَّحت: لولا أنَّ الأمير سيف الدولة كان يجمع حوله أئمة العلوم ويقرّبهم ويُعلي من شأنهم لما قبلت دعوته. ثمَّ إنَّه كان يترك لي حرِّيَّتي في التنقُّل بين دمشق وحلب، حيث كنت أحب أن أجلس بين الرياض والبساتين والمياه المنسابة أكتب تأمُّلاتي الحكميَّة بين تلامذتي. كنتُ أحبُّ أن أَخْطُرَ في تلك البساتين مع أصحابي كما كان يفعل الحكماء المشَّاؤون يلقِّنون الحكمة أثناء مشيهم.

فسأل أبو العلاء: ألم ترجع إلى مسقط رأسك حين خرجتَ منه؟

فأجبته: أبدًا، لقد كان خروجي خروجًا نهائيًّا، وقد زرتُ مصر حين كانت دمشق تابعة لحكمها، ثمَّ عدت إلى الشام، وكتبت في مصر بعض الفصول الفلسفيَّة.

سأل أبو عبد اللَّه الترمذيّ: ما هي أهمّ انشغالاتك العلميَّة يا أبا نصر؟

فأجبتُه: اشتغلت كما قلت لكم بعدَّة علوم، لكنِّي آثرت من الفلسفة بعض أجزائها مثل السياسة والموسيقى.

فقال أبو الطيِّب: أذكر يا أبا نصر حكاية سمعتها في مجلس سيف الدولة عن نبوغك الموسيقيّ.

اقتربَتْ منَّا صاحبة العود من ربات الحسن الثلاث، وقالت: نعم، أخبرنا يا أبا نصر عن هذه الحكاية.

قلت: إنَّها حكايةٌ عجيبة.

فقالت ربَّة الحسن: ذلك ما يُطمعنا في سماعها.

فقلت: إليكم البيان. دخلت يومًا على سيف الدولة وكان المجلس غاصًّا بجلسائه من الأمراء والعلماء والشعراء ومن سواهم. وكان العازفون

يعزفون إلَّا أنَّ عزفهم كانت تشوبه أخطاءٌ فنِّيَّةٌ واضحة. رأى سيف الدولة امتعاضي من العزف فسألني عن رأيي فيما سمعت، فأجبته بأنَّ أخطاءً فنِّيَّة شابته وأَبَنْتُ عنها، فسألني إن كنت أستطيع أن أعزف بين يديْه.

فسألت ربَّة الحسن: وهل عزفت، وعلى أيِّ آلة؟

فأجبت: كنت قد صنعت آلةً جديدة أسميتها «القانون»، لأنَّها بمثابة القانون الذي يضبط باقي الآلات، فطلبتُ الإذن من الأمير في أن أذهب إلى بيتي لآتي بتلك الآلة. لم يكن بيتي بعيدًا، فذهبتُ وعدتُ أحمل تلك الآلة. وبعد أن سوَّيتها انطلقتُ أعزف عليها بعيدان صغيرة في يديَّ أضرب بها الأوتار على طبلة الآلة. كان اللحن الذي اخترته في البداية لحنًا مَرِحًا أطربَ السامعين وابتهجوا به.

فسألت ربَّة الحسن: وماذا بعد؟

أجبت: كان عدد أوتار القانون 78 على عَدَدِ شُعَبِ الإيمان لأنَّها جمعتْ شُعَبَ الألحان. غيَّرت تسوية الأوتار، وعزفت لحنًا مختلفًا عن الأوَّل. كان لحنًا حزينًا، فتأثَّر الجالسون عند سماعه وانتابهم خشوعٌ رقَّت له قلوبهم.

فقالت ربَّة الحسن: وماذا حصل؟

قلت: غيَّرتُ تسوية آلَتِي وعزفت عليها لحنًا ثالثًا مختلفًا تمام الاختلاف عن اللحنيْن السابقيْن. كان لحنًا يبعث على الاسترخاء حتى أخذتِ الحاضرين سِنَةٌ من النوم.

تعجَّب جمع الحكماء والحِسان من كلامي، فقالت ربَّة الحسن: لم نسمع بآلة تصنع مثل هذا من قبل، ولها هذا التأثير في طباع الناس وأمزجتهم.

فقلت لها: ليس الشأن في الآلة، وإنَّما السِّر في العازف على الآلة. ثمَّ إنَّ الألحان مقاماتٌ وطبوعٌ موسيقيَّة تناسب ما في طبائع النفس. إنَّ كلَّ عازفٍ ماهرٍ عارفٍ بأحوال النفس ومقامات النغم يمكنه أن يفعل الشيء نفسه لو تَمهَّر في صناعته وفي معرفة النفس البشريَّة، بحيث إنَّ هناك توازيًا بين الطبوع الموسيقيَّة والطبائع النفسيَّة. وقد تكلَّم حكماء يونان عن ذلك، وعلى رأسهم الحكيم فيتاغورس. وفي كلِّ موسيقى العالم مثل هذه الأمور. فهناك أنغام حزينة وأخرى مرحة، وثالثة تدعو للاسترخاء إلى حَدِّ النوم، وأخرى تعالج الأسقام، ورابعة تثير الأشواق والأشجان إلى حدِّ أن يهيم من يسمعها على وجهه، بل إنَّ مثل هذا ليس مقصورًا على الإنسان، وإنَّما يؤثِّر في البهائم، وإن من الإبل من هلك بغناء حُداة العرب وترجيعها.

فقالت ربَّة الحسن: هلا علَّمتني مثل هذا العلم يا أبا نصر؟

فقال أبو عبد اللَّـه الترمذيُّ: هذه الحسناء تنظر إليك نظر المغشيِّ عليه من العشق، وفي نظراتها محبَّة وتولُّه، فهلَّا لحظتَها بمثل ما لحظَتْكَ به من لوعةٍ ومحبَّة يا أبا نصر؟

ثمَّ أضاف: إنَّ في طلبها الأخذَ عنك ما يعفّ عن الذِّكْر، وإنَّ لسان العشاق يستتر بالحياء، فتزوَّجها لتستعيض بحبِّها عن الحرمان الذي عشته في حياتك حين بقيتَ عَزَبًا دون امرأة.

تهلَّلت أسارير الحسناء وانحاشت إلى القرب منِّي.

ابتسمتُ لها وقلت لها: أقبلي هنيئًا يا وجه السَّعد، واجلسي بجانبي، وانفحيني من سِرِّ عَرْفِ حسنِك الباهر.

أدنيتُها منّي بل أدناها قلبي لما رأيت إقبالها وانشراحَها. ثغرها كأنّه الأقحوان، وثدياها كأنّهما رُمّان، أسفَلُها كَثِيبُ رَمْل، وَأَعْلاها قَضِيبُ نَخْل، قَسِيمَةٌ وَسِيمَة، غانيةٌ مِعْطَال، وَضِيئةٌ مثل البدر. كنت أُمَنّي النَّفْس بمثل هذه الحوريَّة، فها قد ابتسم الزمان لي أخيرًا. إنَّها عَرُوبَةُ الدَّهر، وفِينُوسُ يونان، وساحرةُ بابل، وهَيُولَى الحكماء.

قال الترمذيّ: يا أبا نصر، أين أَلَّفتَ كتاب «آراء المدينة الفاضلة»؟

فقلت: يا أبا عبد اللّه، هذا كتاب فيه أثر من كلّ البلاد التي سافرت إليها. فقد بدأت كتابته في بغداد. ورأيت أن أكتب إلى جانب الكتابة عن «المدينة الفاضلة»، الكتابة عن المدينة الجاهلة، والمدينة الفاسقة، والمدينة المُبدِّلة، والمدينة الضَّالَّة. وقد رأيتُ أنَّ هذه المدن تتجاور في الحواضر الكبرى مثل بغداد. ثمَّ حملت ما كتبت من هذا الكتاب معي إلى الشام ودمشق وأتممته هناك. ثمَّ سألني بعض الأصحاب أن أجعل له فصولًا بحسب المعاني الواردة فيه، فعملت له فصولًا في مصر. ففي هذا الكتاب أثر من العراق والشام ومصر. كما له أثر من البلاد التي ولدت فيها، وله أثر أيضًا من بلاد حكماء يونان.

ثمَّ سألني أبو العلاء المعرّي: ما السبب في قلق العبارة في تصانيفك يا أبا نصر؟

فقلت: مرجع ذلك إلى سببيْن رئيسيْن، أوَّلهما تزاحم الألسن على تفكيري حيث إنَّني أتقن عدَّة لغات، فكأنَّ المنافسة تحصل بينها فتتسابق هذه الألسن في حمل أفكاري، فأحيانًا لا يتخلَّص السبق للسانٍ واحد بل يأتي مَشوبًا بغيره فيظهر ذلك في العبارة ويشوبها قلق. وثانيهما أنَّ الاصطلاح الفلسفيّ على عهدي لم يكن قد ترسَّخ تمامًا

بين فلاسفة العربيَّة؛ وكنت أحاور الفلاسفة الذين تقدموني، وجلُّهم من يونان، فكانت العبارة تخرج عربية في ألفاظها عجمية في مصدرها وموضوعها، وفيمن أحاور من الحكماء. وكان هذا التراوح بين ترجمة معنى يونانيّ إلى العربيَّة يَعْسُرُ نقله لعدم رسوخ الاصطلاح الفلسفيّ العربيّ بعد.

ثمَّ سأل الترمذيّ: وما هو موضوع هذا الكتاب يا أبا نصر؟

فقلت: لقد أنشأت مدينةً فاضلةً مثاليَّة جعلتها قائمة على السعادة والأخلاق. وقسَّمت الكتاب قسميْن، قسم لخَّصت فيه المبادئ الفلسفيَّة التي أؤمن بها والتي ينبغي مراعاتها في إنشاء المدينة الفاضلة. أمَّا القسم الثاني، فقد تحدَّثت فيه عن هذه المدينة وشؤونها ومرافقها.

فقال أبو العلاء: وما هي المبادئ الفلسفيَّة التي بُنيت عليها مدينتك الفاضلة؟

فقلت مجيبًا: لقد بحثت في الموجود الأوَّل وهو اللَّـه تعالى، وتكلَّمت على صفاته، ونفيت عنه ما لا يليق به من الشريك والضدّ، ونفي الحدّ عنه، وتكلَّمت في وحدته وأنَّها عين ذاته، كما تكلَّمت على صفاته من العلم والحياة والحكمة والحقّ. وتكلَّمت في الأسماء التي ينبغي أن يسمى بها. ثمَّ تكلَّمت على صدور جميع الموجودات عنه، وعلى مراتبها.

فقال أبو الطيِّب: لكنَّك افترضت أنَّ هناك عقولًا وأرواحًا تفيض عن اللَّـه.

فقال الترمذيّ: بل إنَّك ذهبت أبعد من ذلك حين قسَّمت الموجودات إلى موجودات روحيَّة وموجودات مادِّيَّة. وجعلت الحقّ تعالى ضمن الموجودات الرُّوحيَّة، وجعلته أول تلك الموجودات وسببَها.

فقلت: لا يغيبنَّ عنكم أيُّها الحكماء أنِّي نفيتُ الشَّريك في بداية الكتاب عن اللَّـه تعالى.

فقال الترمذيّ: إنَّ نظريَّة العقول نظريَّةٌ غامضة وملتبسة يا أبا نصر. ولو كنت بدلًا من الحديث عن الفيض تحدَّثْتَ عن التجلِّيَّات الإلهيَّة في مراتب الوجود لَقُبِلَ كلامُك ولم يُنكَر عليك.

فقلت: أُقِرُّ بذلك يا أبا عبد اللَّـه، فالعبارة لم تتخلَّص لي إلَّا بصعوبة، ولو كنت وجدتُ من يُسعِفُني بالقول بالتَّجليَّات لقلتُ به، فذلك قصدي. وقد كنتُ مِنْ أوَّلِ من تكلَّم في هذه الأحياز القَلِقَة من فلاسفة المسلمين.

فقال الترمذيّ: لا عليكَ يا أبا نصر، التَّفَكُّرُ في هذه الأمور صعبٌ، ولا شكَّ أنَّ الزَّلَلَ يَصحَبُه. وهذا من علوم الختميَّة التي عالجتها في إطار التَّجلِّيَّات والحضرات الإلهيَّة الخمس، والتَّنزلات الوجوديَّة من اللوح المحفوظ إلى القلم الأعلى فما دونهما.

قال المعرّي: دعنا من نظرية العقول يا أبا نصر، وحَدِّثنا عن المدينة الفاضلة، وكيف يعيش الناس فيها.

فقلتُ: صدقت يا أبا العلاء، فالحديث عن الاجتماع الإنسانيّ في المدينة الفاضلة أجدى من الحديث عن نظرية العقول. إنَّ الإنسان كائنٌ اجتماعيّ، والناس يحتاجون إلى التعاون والاجتماع، وأكمل اجتماع هو الذي يحصل بين كل سكَّان العالم، وأَقَلُّه ما كان بين مجموعاتٍ بشريَّة إلى أن يصيرَ إلى اجتماعِ أسرةٍ صغيرة.

فقال أبو الطيِّب: فأنتَ ترى أنَّ الإنسانيَّة واحدة وأنَّ كمالَها في اجتماعها ضمن دولة واحدة، أمَّا اجتماع أجزاء منها فهو ناقص عن درجة

الكمال المطلوب، لكنْ كيف تجتمع الإنسانيَّة في دولةٍ واحدة وعلى أمرٍ واحد، وهي أهواء مختلفة وأديان متفرِّقة ومذاهب متعدِّدة وأعراق متنابذة وألسن متباينة؟

فقلت: هي واحدةٌ بالآدمية، فأصلها واحد ومَآلُها واحد، وإن اختلفَتْ بالاعتبار. وإنَّ هذا الاجتماع في دولةٍ واحدة لم يسبق أن ذكره فلاسفةُ يونان، وعلى رأسهم الحكيمان أفلاطون الإلهيّ وأرسطو العقلانيّ، بل هو من حُرِّ أقوالي. فقد كان أولئك الفلاسفة ينظرون فيما تحت أيديهم من الدُّوَل فلم يجدوا سوى أثينا وسبارطة وما شاكلهما، وهي مدن ـ دويلات. وحيث إنَّ التجربة الإنسانيَّة لم تُحقِّق وجودَ دولة واحدة تجمع البشرية كلَّها، فقد قَصَرْتُ الحديثَ عن المدينة الفاضلة بدل الحديثِ عن الدَّولة الفاضلة.

فقال أبو العلاء: وما هي المدينة الفاضلة في نظرك؟

فقلت: هي المدينة التي تتحقَّقُ فيها سعادةُ الأفراد على أكمل وجه. ولا يكون ذلك إلَّا إذا تعاونَ أفرادُها على الأمور التي تحصِّل السَّعادة للجميع. فإذا أحسنَ كُلُّ واحدٍ ما أُنِيطَ به من مَصْلحَةِ الجماعة وما يُتْقِنُهُ من صنائع تَنْسَجِمُ مع ما في استعداده وطبعه، تحقَّقتِ السَّعادة للجميع.

فقال أبو العلاء: إنَّ المدينة الفاضلة التي تتحدَّث عنها أشبه ما تكون بالبدن الصحيح المؤلَّف من عدَّة أعضاء، فإذا تعاونت أعضاؤه كلُّها على حفظ صحَّة الكل تحقَّقت السعادة.

ثمَّ قال الترمذيّ: لكنَّ الوظائف بين أفراد المدينة تختلف حتمًا، وبعضها أكمل وأعلى من بعض.

فقلت: صدقت يا أبا عبد اللّـه، فوظيفة الرياسة والحكمة مثلًا أسمى من غيرها من الوظائف الأخرى في المدينة الفاضلة.

فقال أبو الطيّب: الإمامة هي الشرط الذي تقوم عليه الأمة، فإذا صلح الإمام صلحت الأمة.

فقلت: ليس دائمًا، بل إذا فسدت الأمة قد يُوَلَّى عليها من كان على شاكلتها. لكنَّ الإمامة ليست امتيازًا وراثيًّا، بل لا يتولاها إلَّا من كان فيه استعدادٌ فطريٌّ وكفاءاتٌ مكتسبة تحقّق الكمال في الشخص الرئيس، في بدنه وعقله وعلمه وأخلاقه ودينه. فمن حاز الكمال فيها صحَّ له أن يكون رئيسًا.

فقال أبو العلاء: لكنَّك لم تذكر فضيلةَ حُسْنِ العبارة وإتقانِ اللِّسان.

فقلت: بلى، لقد ذكرتُها في الصِّفات الفطريَّة في الرئيس، إذْ إنَّ البيان عمَّا في الضمير بأحسن عبارة من صفات الرئاسة.

ثمَّ قال الترمذيّ: وما هي الصفات المكتسبة يا أبا نصر؟

فقلت: أن يكون الرئيس حكيمًا عالمًا حافظًا للشرائع، جيِّدَ الذِّهْنِ في الاستنباطات من المصادر حين لا يجدُ نَصًّا منَ النُّصوص الشَّرعيَّة، وأن يكونَ عالمًا بالمقاصد الشَّرعية فيما يُستَجدُّ من نوازل وأمور ممَّا لم يسبق للأوَّلين أن ذكروه أو عرفوه. كما ينبغي أن يكون الرئيس شجاعًا مقدامًا يباشر شؤون الحرب والدفاع عن المدينة إذا تعرَّضت للهجوم.

فقال أبو العلاء: من النَّادر أن تتوافر كلّ هذه الصفات في شخص واحد.

فقلت: إن لم تتوافر كلُّها، كان تحصيلُ أغلبِها كافيًا في تَوَلِّي رئاسة المدينة.

ثمَّ قال الترمذيّ: هل هناك صفةٌ أخرى ذكرتَها لم يتعَّرض لها حكماء اليونان؟

فقلت: نعم، من بين هذه الصفات العزيزة التي يَنْدُرُ وجودُها، اتِّحادُ الرئيسِ بالعقل الفَعَّال، وهو العقل العاشر المشرف على الإنسانيَّة.

فقال الترمذيّ: هذه صفة من صفات الأنبياء والرسل، إذ هم الواسطة بالرسالة التي يبلغونها بين الحق والخلق، فكيف تجعلها فيمن دونهم.

فقلت: إنَّ جميع الصفات التي ذكرتها عن رئيس المدينة الفاضلة لا تتحقَّق إلَّا في الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد يتحقَّق بعضها وراثةً يرثها في نوابه الذين يحكمون المدينة الفاضلة بالرشد. فبموجب هذه الصفة يتحوَّل الرئيس إلى كائنٍ روحيّ يمتزج بالعقول ويتَّصل بالملأ الأعلى، ويتلقَّى عنهم نفحاتٍ من الإلهام والإشراق، ثم يفيض على العقول البشريَّة ما تلقّاه من العقول الكلِّيَّة.

فقال أبو الطيِّب: لكنَّ الرسول يا أبا نصر ليس فيلسوفًا، وأنت تزعم أنَّ رئيس المدينة الفاضلة فيلسوف. والصفات التي ذكرت لا تنطبق إلَّا على الرسول، فكيف تُوفِّق بين هذه المتناقضات؟

فقلت: أُقِرُّ بأن هذه الصفات المطلوبة لم تتوافر على الحقيقة إلَّا في الرسول الذي هو خاتم الأنبياء، بمعنى أنَّه لن يكون بمقدور أحدٍ أن يكون على القدر نفسه من الكمال البشريّ. لكنْ هذا لا يمنع من أن يتولَّى رئاسة المدينة الفاضلة من هو مفضول يجتمع فيه أكبر قدرٍ ممكن من هذه الصفات المطلوبة، وإنَّ الفلاسفة الإلهيِّين هم أقدر من يتحقَّق فيهم هذا الشرط.

ثمَّ قال أبو العلاء: قد علمنا صفات الرئيس، فما هي صفات المرؤوسين من سكان هذه المدينة؟

فقلت: إنَّ سعادة أهل المدينة الفاضلة لا تتحقَّق إلَّا إذا سار أفرادها على غرار رئيسهم في الأخلاق والصفات. فبقدر سُمُوِّهِم وتحصيلهم لتلك الصفات تزيد السعادة في مدينتهم ويكثر الخير والفضيلة ويَقِلُّ الشرّ والرذيلة، وتصل أرواحهم إلى درجات عليا من الصفاء والطُّهر.

قال الترمذيّ: هذه صفات أهل اللّـه من الأولياء الأصفياء الذين تخلَّصوا من أدران الحس والمادّة، وتروحنوا حتى صاروا كجواهر الأرواح.

فقلت: أنا أحاول التوفيق أيُّها الحكماء بين الفلسفة والدين، وأرى أنَّ من كان على هذه الصفة كان أقدر على رئاسة المدينة الفاضلة التي تجمع بين مقتضيات العقل ومقتضيات الإيمان.

فقال الترمذيّ: دائرة الدين محيطة بغيرها، وليست على شرط غيرها من الدوائر الجزئيَّة. أمَّا الفلاسفة أنفسهم، فقد سمعنا أنَّهم يقولون إنَّ دائرة الفلسفة أوسع من غيرها من الدوائر، فكيف العمل؟

فقال المعرّي: يتفاضل الناس في العمل وليس في الفكر والنظر.

فقلت: لقد بيَّنتُ أن تحصيل السعادة القصوى لا يتمّ إلَّا بأربعة أجناس من الفضائل: الفضائل النظريَّة، والفضائل الفكريَّة، والفضائل الخلقيَّة، والصناعات العمليَّة.

فقال الترمذيُّ وكأنَّه يريد أن يحسم القول: هذا لا يختلف عن قول صاحبك أرسطو الملقَّب بالمعلِّم الأوَّل، وقد لُقِّبْتَ بلقب المعلِّم الثاني لأنَّك تابعته فيما يقول، فأنت خليفته بلا منازع.

* * *

فلمَّا انتهى أبو نصر إلى هذا الحدّ في سرد سيرته، التفت إلى أبي عبد اللّـه الحكيم الترمذيّ، وقال له: هذه سيرتي التي أطلعتكم عليها، وأنت الآن على بيِّنةٍ منها، ولا شكَّ أنَّ من كان مثلي كان حقيقًا بأن يكون ختم الفلاسفة الحكماء.

فقال الحكيم الترمذيّ: شكرًا لك يا أبا نصر، لقد سمعنا مقالتك ووعينا سيرتك، وليس الآن أوانُ النُّطق بالحكم فيمن هو ختم المدينة الفاضلة.

ثمَّ التفت إلى أبي الطيِّب، وقال له: حان دورك يا أبا الطيِّب، فأخبرنا عن سيرتك، ولا تُسقط منها ما يتعلَّق بنسبك المنكوب.

فقال أبو الطيِّب: نعم سأخبركم بسيرتي بعدما استمعت إلى سيرة أبي نصر الذي يزعم أنَّه حكيم الفلاسفة، وأنَّه يستحقّ أن يكون الختم في المدينة الفاضلة.

فقال أبو نصر: يا أبا الطيِّب، إن كنت أزعم أنِّي حكيم الفلاسفة، فإنِّي أعترف أيضًا أنَّك حكيم الشعراء، وقد وجدت في شعرك ما يطابق أقوال الفلاسفة الحكماء مثل الحكيم أرسطو في كثير ممَّا قلته في شعرك. وإنِّي حائر في هذا التطابق، لأنَّك قد أتيت في شعرك بأغراضٍ فلسفيَّة ومعان منطقيَّة لا تتأتَّى إلَّا بالدراسة وطول الملازمة مع الحكماء. فأخبرني إن كان هذا عن فحصٍ ونظرٍ وبحث أو أنَّه محضُ اتِّفاق؟

فقال أبو الطيِّب: واللّـه ما قلت ما قلته من معانٍ حكميَّة في شعري إلَّا بما تخلَّق في ذاتي وصقلته تجارب حياتي فانتزعتُه حِكَمًا.

ثمَّ أضاف: لكنْ، قل لي يا أبا نصر، ما هي مواطن هذا الاتِّفاق بيني وبين الحكيم أرسطو؟

فقال أبو نصر: من ذلك قوله «إذا كانت الشهوة فوق القدرة كان هلاك الجسم دون بلوغ الشهوة».

فقال أبو الطيّب: وماذا تعتقدُ أنْ يُطابقَ هذا القولُ من شعري؟

فقال أبو نصر: لقد قلتَ:

وإذا كانت النفوسُ كبارًا تعبَتْ في مُرادها الأجسامُ

فقال أبو الطيّب: لعلَّ ذلك يكون اتّفاقًا، فهل معك غير هذا؟

فقال أبو نصر: معي كثيرٌ غيره، وكلَّما قرأت شعرك أستغرب من هذا التطابق بين ما قاله أرسطو وبين ما أنشدته في شعرك. فمن ذلك قوله «الألفاظ المنطقيَّة مُضرَّة لذوي الجهل لِنُبُوّ إحساسهم عن إدراكها». وقد قلتَ في هذا المعنى:

بذي الغباوة من إنشادها ضررٌ كما تُضِرُّ رياحُ الوردِ بالجُعَلِ

فانظروا، رحمكم اللّـه، إلى جمال هذا المعنى الذي جاء في غاية السَّبْك والإيجاز والبيان باللّفظ العربيّ البليغ.

انتشى أبو الطيّب من هذه الشهادة، فأراد استزادةً وقال: زدنا من هذه المقابلات يا أبا نصر؟

فقال الفارابيّ: ممَّا قاله أرسطو «العِيان شاهد لنفسه والأخبار تدخل عليها الزيادة والنقصان، فَأَوْلَى ما أُخِذ، ما كانَ دليلًا على نَفْسِه»، أي أنَّ ما قَرُبَ منك عِوَضٌ عمَّا بَعُدَ عنك، سيما إذا كان هذا القربُ أفضلَ من البعد. وقد أوجزتَ يا أبا الطيّب هذا المعنىو فقلتَ:

خُذْ ما تراه وَدَعْ شيئاً سمعتَ به في طلعة البدر ما يُغنيكَ عن زُحلِ

فقال أبو الطيّب: وقد زاد انتشاءً: زدنا من فاضل مقابلاتك يا أبا نصر.

فقال الفارابيّ: ممَّا قاله أرسطو «عِلَل الأفهام أَشَدُّ من عِلَلِ الأجسام». وقلتَ:

يهونُ علينا أن تصابَ جسومُنا وتَسْلَمَ أعراضٌ لنا وعقولُ

ثمَّ أضاف أبو نصر: نظر أرسطو مرَّةً إلى غلام حَسَنِ الوجه فاستنطقه فلم يجد عنده علمًا، فقال: «نِعْمَ البيتُ لو كان فيه ساكنٌ». وقلت:

وماالحسنُ في وجه الفتى شرفًا له إذا لم يكن في فعله والخلائقِ

ثمَّ قال أبو نصر: ويكفي هذا الحد في بيان هذه الموافقات بينك وبين أرسطو يا أبا الطيِّب.

فقال المتنبِّي: جزاك اللَّه خيرًا يا أبا نصر، فقد أوقفتنا على سرّ **المقال فيما بين الحكمة والشعر من الاتِّصال**، وإنَّهم وإن انتزعوه بالبحث والنظر، فقد انتزعناه من صفاء ضمائرنا وجودة عقولنا حينما عرضَتْ لنا تجارب الحياة فقلناها شعرًا. وإنِّي محتارٌ في حرص فلاسفة المسلمين على طلب شيءٍ عند فلاسفة يونان مع أنَّه موجودٌ عندنا برائق الكلام وبليغ العبارة التي لن تبلغها ترجمة أقوالهم إلى اللسان العربيّ.

ثمَّ تحوَّل راضيًا عمَّا عرض له الفارابي ولم ينتظر جوابًا على حيرته، وقال: وإليكم الآن البيان عن سيرتي وحياتي **بلسان السَّارد العليم** الذي سيتحدَّث نيابة عنِّي، وإنِّي أعتذر إليكم لأنَّ المروءة تمنعني من الفخر على أمثالكم من جِلَّة الحكماء، ولأَتْرُكْ هذا السارد يُفْصِحُ بلسان الإنصاف، ويتحدَّث عنِّي بلغة التفويض.

الشاعر الحكيم

«وعلى الحقيقة فإنَّه **خاتم الشعراء**، ومهما وُصِفَ فهو فوق الوصف وفوق الإطراء».

(ابن الأثير: المثل السائر)

* * *

«والد المتنبي كان علويًّا ينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه»

(محمود محمَّد شاكر: المتنبي)

* * *

ثمَّ بدا وكأنَّ طيفًا من الأطياف على هيئة شخص ظهر أمام جماعة الحكماء، وله لسان ناطق، فسلَّم واستأذن.

ثمَّ قال: في ليلةٍ من ليالي الشتاء الباردة، طرق رجلٌ أربعينيّ مُلثَّم ومعه رفيق له، بيتَ امرأة كوفيَّة من أصل يمنيّ همدانيّ تسكن في محلَّة كندة على الجانب الشرقيّ من مدينة الكوفة.

وقد كان نزل في الكوفة عدَّة بطون من القبائل اليمنيَّة عند تمصير المدينة زمان عمر بن الخطاب، فلمَّا أَسْهَمَ سَعْدُ بن أبي وقّاص بين المسلمين، خرج سهمُ أهل اليمن أوَّلًا، فسكنوا الجانبَ الشرقيّ للكوفة الذي كان خيرَ بقعة فيها. وكان بطنٌ من بطون قبيلة كِندة ضمن قبائل أهل اليمن، فنزلوا هذا الموضع الذي تسكنه أسرة هذه المرأة مع زوجها الحسين الجُعْفِي، فَسُمِّيت المحلَّة باسم القبيلة.

أمَّا سكان المدينة فهم وقتئذٍ شيعة إماميَّة وزيديَّة، وسُنَّة مالكيَّة في أغلبهم، والزيديَّة كانت نسبًا وتوجُّهًا سياسيًّا ضمن أهل السنة والجماعة في الجملة. كانت أسرة هذه المرأة علويَّة النَّسب، وكان العلويُّون فرقتيْن، فرقة علويَّة النسب، وفرقة علويَّة المذهب.

طلب الرجلان استضافتهما تلك الليلة في بيت المرأة وزوجها. وبعد حديثٍ مقتضب بينهما، علمت المرأة أنَّ الرجل من كبار العلويِّين، وأنَّ رجال العباسيِّين يَجِدُّون في طلبهما، فسمحت لهما بالضيافة في بيتها. جلس الرجلان، فقامت المرأة تُعِدُّ لهما مع ابنتها طعامًا. حسر الرجل الملثَّم عن وجهه فبدا حسنُه وشَرَفُ مَحْتِدِه وأصله. كان ناصعَ اللَّون واضحَ الجبين. برأسه وَفْرَةٌ سمحاء سَبِطَةٌ تُطالع شحمةَ أذنيْه.

وبعد قليل، جاءت بنت المرأة تحمل الطعام وقدَّمته للضيفيْن. أُعجب الرجل بالبنت ونالت من قلبه موقعًا. أكل الرجلان، ثمَّ أمضيا تلك اللَّيلة في غرفة الضيوف في بيت المرأة الكوفيَّة وزوجها.

في صباح اليوم التالي، قام رفيق الرجل، فكلَّم زوج المرأة وسأله عن ابنته، فأخبره أنَّها غير متزوجة وأنَّها تعيش مع أبويْها. آنئذٍ، أخبر الرجل أنَّ سيِّده يرغب في الزواج منها. تعجَّب الحسين الجعفي من طلب

الرجل، وسأله أن يُمهله حتى يكلّم زوجته. كان الزوجان من أتباع العلويَّة وأنصارها، فتكلّما في الموضوع وطلبت الزوجة من الرجل أن يُعرّفها بنفسه، فقال لها بأنَّه رجلٌ من الأشراف، وأنَّه رغب في مصاهرة المرأة وزوجها لأنَّه يعلم شرفهما وولاءهما للعلويّين. ومن حديث الرجل، أدركت المرأة أنَّه من كبار الأشراف، ولربَّما كان مطلوبًا للعبَّاسيّين. سارَرَتِ المرأة الشريفَ بما في ضميرها من شكوك، فأكَّد لها صدقَ ظنِّها وأخبرها أنَّه لا يستطيع أن يُفْصِحَ لها عن الأمر لكنَّه بالفعل مُلاحَقٌ من العباسيّين، وأنَّه يتنقَّل بسِرِّيَّة تامَّة بين الأمصار، وأنَّه سيقضي بعض الوقت في الكوفة، وعليه أن لا يسترعي انتباه أعدائه، لذا فإنَّه يطلب مصاهرةَ المرأةِ وزوجِها. فكَّرت المرأة الصالحة جيِّدًا وتشاورت مع زوجها، ثمَّ وافقا على تزويج ابنتهما من الرجل الذي اشترط عليهما أن يبقى هذا الأمر مكتومًا. وافقت المرأة لما أدركت بحدسها أنَّ الرجل الذي ذكر لهما أنَّ اسمه محمَّد هو أحد نبهاء البيت العلويّ، وأنَّ التَّكَتُّم على هويَّته الكاملة بهذا الشكل استدعته ضرورة الإبقاء على القضيَّة التي يناضل من أجلها تحت جناح السرِّيَّة مخافةَ أن يطلبه العبَّاسيُّون ويبطشوا به. ولا شكَّ أنَّه قائد حركة أو أحد قوادها الكبار. ذكر الرجل للمرأة وزوجها بأنَّ اسمه هو محمَّد بن الحسن، ولم يزد على ذلك. هذا أقصى ما استطاع أن يقوله للمرأة وزوجها بعدما أخذ عليهما الأيمان المغلَّظة أن لا يُحَدِّثُوا أحدًا عنه.

تزوَّجَ محمَّد بن الحسن من ابنة أصحاب البيت دون إقامة عرس ولا احتفالات ولا بهرجة أو إعلان لضرورة كتمان أَمْرِ الرجل أو كتمان وجوده في الكوفة، وبَقِيَ بضعة أشهر في هذه المدينة يخرج لكي يلتقي بأتباعه من العلويّين ثمَّ يعود متخفِّيًا لا يشعر به أحد من الجيران. كان لطيفًا مع زوجته يداعبها ويعتني بها ويحدِّثها عن آبائه وأجداده، ويأمرها

أن تكتم كلّ شيء يُخبرها به عن غيره، وينصحها أن تعتني بجنينها أيّما عناية. ثمَّ جاء أوانُ وضع الفتاة التي كانت مسرورةً بزواجها من سيِّدٍ من سادات العلويِّين. وضعَتْ ولدًا فسمَّاه والده أحمد.

كانت الأمّ سعيدةً برضيعها، وكانت الجدَّة وزوجها سعيديْن بحفيدهما، لكنَّ محمَّد بن الحسن أخبرهم بأنَّ عليه أن يغادر الكوفة على وجه السرعة، وأنَّ أمورًا طارئة اضطرته إلى هذه المغادرة، لكنَّه أوصى أحد رجاله، اسمه أبو القاسم الحسين بن روح النوبختيّ، بالعناية بالولد وأمّه والجدَّة وزوجها.

حزنت الفتاة على غياب زوجها، وَوَجِدَت عليه بعدما صارحها بأنَّ حياتَه محكومةٌ بالتَّنَقُّل بين الأمصار، وأنَّه لا يستطيع أن يمكث في الكوفة خوفًا على حياته، فقد أمضى زمنًا منذ ولادته يتخفَّى عن أعدائه الذين يطلبون رأسه، وأنَّ على زوجته أن تتفهَّم هذا الأمر، وعزاؤها أنَّها أنجبت منه ولدًا من سراة الأشراف وساداتهم.

لم ينفع هذا الكلام مع الفتاة الذي بدأت تنتحب وتبكي بكاءً شديدًا حتى خاف الرجل أن تفضحه، وتدخَّل مُرافقه واسمه أبو جعفر بن عثمان فحذَّرها تحذيرًا شديدًا بأنَّها ستتسبَّب لنفسها ولولدها ولسيِّده في مشكلة عظيمة. تدخَّلت جدَّةُ الصبيّ فهدَّأت من روع ابنتها وحَضَنَتْها، وذكرت لمحمَّد بن الحسن ورفيقه أبي جعفر بأنَّها ستتولَّى الأمر.

خرج الرجلان وهما يعلمان أنَّهما ربَّما لن يعودا إلى هذا البيت مجدَّدًا بعدما علم والي الكوفة بأمر اختفائهما في محلَّة كندة وأعطى أوامره للبحث عنهما. كاد رجال الوالي يصلون إلى محمَّد بن الحسن ورفيقه، لكنَّ الرجليْن استطاعا أن يُفْلِتا بجلديْهما. ولمَّا وصل رجال

الوالي والشرطة إلى بيت المرأة الصالحة وزوجها لم يجدوا أحدًا سوى أهل البيت ممَّن لا خَطَرَ تحتهم. سألوا عن والد الابن فأخبرتهم الجدَّة على وجه السرعة مداراةً لهم بأنَّ اسمه الحسين الملقَّب «عيدان السّقاء»، لُقِّبَ بذلك لِدِقَّةِ سيقانِه وشَبَهِهِمَا بالعيدان التي يُحْمَلُ عليها السّقاء. رَضِي رجال الوالي بما سمعوه بعدما فتَّشوا البيت فلم يجدوا مطلوبهم، ثمَّ غادروا.

كانت المرأة قد أدركت بفضل تحريَّاتها الدَّقيقة أنَّ محمَّد بن الحسن هو أحد أئمة آل البيت، وقد نالت شرف القرب منه والمصاهرة معه، وحصل لبنتها شرف الإنجاب منه. سعدت بذلك سعادةً لم يعدلها إلَّا حرصُها على كتمان هذا الأمر عن أخصِّ أقربائها، فلم يكن أحدٌ يعلم بهذا السرّ.

أمَّا ابنتها فقد حُمَّتْ ومرضت بعد غياب زوجها الذي تركها بعد وضعها وإنجابها. وتزايد مرضها، ثمَّ بدأت تتضاءلُ وتَنْحَلُّ حتى ماتت حزنًا وكمدًا على مُصابها.

توالت هذه الأحداث بسرعة عجيبة على هذا البيت الوادع، لكنَّ المرأة الصالحة كانت قويَّةً لا تَفُتُّ في عزمها مثل هذه النوائب، فأخذت على نفسها أن تربِّي حفيدها كما يُرَبَّى أبناء الأشراف، لكنْ كيف لها أن تُقنِع الآخرين بأنَّ حفيدها واحدٌ منهم، وهم لا يعلمون، وهي لا تستطيع أن تعلن عن هويَّة الوالد خوفًا على نفسها وعلى الولد وعلى القضية التي يقودها والده في سرِّيَّة تامَّة. كان أمامها بابٌ واحد هو الرجل الذي أمره محمَّد بن الحسن بالعناية بولده وأسرته أثناء غيابه. اتَّصلت المرأة بذلك الرجل، وأخبرتْه بموت ابنتها، فواساها في مصابها ثمَّ أعطاها مبلغًا من المال تستعين به على قضاء ما تحتاج إليه، ثمَّ توسَّط لها في إدخال ابنها

إلى مدرسة أبناء الأشراف حتى يتعلَّم ما يتعلَّمون ويَشِبَّ كما يَشِبُّون. طَمْأَنَ أبو القاسم الحسين بن روح النوبختي المرأةَ، وطلب منها أن تأتي بحفيدها إليه في يومٍ تواعد معها عليه إلى مدرسة أبناء أشراف العلويِّين.

وفي اليوم المعلوم، ذهبت المرأة بحفيدها فوجدت أبا القاسم في انتظارها مع ناظر المدرسة، فَهَشَّ في وجهها وكَلَّمَ النَّاظرَ للعناية بالطفل الذي كان عمره وقتئذٍ أربع سنوات حتى يتعلَّم مثلما يتعلَّم أبناء الأشراف، ونبَّهه إلى ضرورة الاهتمام به، حتَّى فهم الناظر أنَّ الولد له خصوصيَّة لا يعلمها الناس، لكنْ لا يمكن الإفصاح عنها إلَّا بين كبار رجالات العلويِّين.

بدأ الولد يحضر الدروس التي يتلقَّاها أبناء العلويِّين في اللُّغة والأدب والشعر والفقه ومكارم الأخلاق وما سوى ذلك على كبار المربِّين والأساتذة.

أمضى سنواتٍ في مدرسته، وكان الناس يظنُّون أنَّ أباه هو الحسين، لكنَّه كان يَعْلم من جدته أنَّ والده الحقيقيّ ليس هو الحسين الملقَّب بعيدان السَّقاء[1]، بل هو رجلٌ آخر من كبار الأشراف، إلَّا أنَّ

(1) وهذا ما جعل الأصفهانيّ يتعجَّب من دخول «ابن عامي سَقَّاء» إلى مدرسة أبناء الأشراف العلويِّين ليتعلَّم ويدرس معهم بقوله: «ودخول أحمد بن عيدان السَّقاء بين أبناء العلويِّين في كُتَّابٍ لهم غريب عجيب». وقد صحَّح الزبيديّ في تاج العروس: «وعيدان السَّقَّاء (بالكسر): لقبُ والدِ **الإمام** أبي الطيب أحمد ابن الحسين بن عبد الصمد المتنبِّي الكوفيّ الشاعر المشهور، هكذا ضبطه الصاغانيّ... وابن ماكولا أيضًا». وليس صدفة أن يذكر الزبيديّ أبا الطيِّب بنعت «**الإمام**»، ففيه إشارة إلى اتِّصال نسبه بأئمة البيت. وقد أطلق الفيروز آباديّ عليه اللَّقبَ نفسَه في القاموس المحيط. ولسنا نعتقد أنَّ الفيروز آباديّ أو الزبيديّ يَنْحُلان المتنبِّي صفةَ «**الإمام**» لكونه كان إمامًا في مسجد أو إمامًا في الفقه والتَّفسير وما سوى ذلك، ولم يبقَ إلَّا أنَّ ذلك إشارة إلى نسبه العلويّ.

جدَّته لم تُخبره عنه، وكانت تأمره أن لا يفتح هذا الموضوع مع زملائه أو أيِّ أحدٍ آخر. كان هذا الأمر يزعج أحمد ويُحزنه، لأنَّ أبناء الأشراف كانوا يتباهون بآبائهم ويفخرون عليه بذلك، وهو لم يكن يستطيع أن يخبرهم بالحقيقة التي كانت تُلْهِبُ صدرَه. كان دومًا يقاوم من أجل أن لا ينتفض في وجوههم ويقول لهم من هو، أو على الأقلّ في حدود ما يَعْلم من جدَّته التي كانت لا تُطلعه إلَّا على جزءٍ من الحقيقة، وتخفي عنه أشياء كثيرة كان يدرك أنَّها كبيرةٌ جدًّا وخطيرةٌ جِدًّا. كان يُدرك أنَّها تخفي عنه سرًّا كبيرًا لأنَّ تحذيراتها المتكرِّرة له حتى لا يتكلَّم مع أحد في هذا الموضوع جعلته يتوقَّع أنَّ نسبه غامض إلى درجةٍ تجعل الكلام عليه خطرًا عليه وعلى أسرته. لا شكَّ أنَّ والده إذن يحمل سرًّا خاصًّا، لكن ما هو هذا السرّ؟

كان الحفيد يمضي يضع الاحتمالات في رأسه فلا يجد لها جوابًا، لكنَّ جدَّته كانت دومًا تقول له بأنَّ والده من كبار القوم، ولا تُفصح له أكثر من ذلك، وتطلب منه أن ينتظر ساعته حتى يظهر هذا السرّ الخفيّ.

كان الحفيد يجلس في البيت مع جدَّته تحكي له عن أمّه ووالده وآبائه، وتخلّل أصابعها على فروة شعره التي كانت تغطّي شحمة أذنيْه. كان أحمد يحسُّ بانتعاشٍ كبير واسترخاءٍ لذيذ في حضن جدَّته الصالحة، التي كانت لا تملّ من الحديث عن آبائه من الأشراف، وتزرع فيه قيم النبل والشجاعة والصدق والعزَّة والأنفة والإباء.

بلغ أحمد العاشرة أو يزيد قليلًا عام 313 للهجرة. كما أنَّه لم يعرف والده الذي كانت جدَّته تحدِّثُه عنه إلَّا بأنَّه من أشراف العلويّين دون أيَّةِ تفاصيل أخرى. كان في بيتهم رجلٌ يخدمهم ويسعى في قضاء

حوائجهم، اسمه عيدان السَّقَّاء لاشتغاله في سقاية الماء للناس على جَمَلِه في الكوفة. وكان الصبيان يُعيِّرون أحمد بمن يظنّونه والده، وهو يعلم أنَّه ليس كذلك، لكنَّه كان لا يملك إلَّا أن يسكت عن التصريح بالحقيقة. كَبُرَ هذا الألم في صدره ولم يفهم كيف يُحْرَمُ ابنٌ من أبيه ويُبعَد عنه؛ وكيف يُجبَر على كَبْتِ هذه النسبة؟!

هذه عقوبة لا يستحقُّها إنسان، لكنَّ الولد حوَّل هذا الكَبْتَ من شعورٍ بالمهانة إلى شعورٍ مُناقِضٍ له تمامًا، وهو أنَّه كان فخورًا بنفسه، تيَّاهًا على أقرانه، حتى وهو في هذه السِّنِّ المُبكِّرة.

كان السَّقَّاء يخدُمهم في البيت ويتعهَّد الولد بالخدمة تحت إرشاد جدَّته. وكان أحمد يمضي يومه في المدرسة الخاصَّة بأبناء أشراف العلويَّة لا يَلِجُهَا سواهم، يتعلَّم العربيَّة والشِّعر والأدب والعلوم المختلفة، وكان قد أناف على أقرانه بتوَقُّده وتوهُّج ذكائه، ثمَّ يعود مساءً إلى بيته ليجد جدَّته في انتظاره يُخبرها بما تعلَّمَه ذلك اليوم، فَتُدارِسُه فيما تُحْسِن وَتَسْكُتُ عَمَّا لا تُحْسِن. كانت حريصةً أن تزرعَ فيه النَّخوةَ والعِزَّة والإباء، وتُذكِّره بمجد آبائه وأجداده، لكنَّها كانت دومًا حذرة في كلامها، وتتجنَّب أن تحدِّثه عن والده. وقد علم منها أنَّه مِنْ كبار أشراف العلويِّين وأنَّ اسمَه محمَّد بن الحسن، لكنَّه لم يستطع أن ينتزع منها أسباب حذَرِها في الحديث عنه وعن كلِّ ما يتَّصِلُ به. نشأ هذا السِّرُّ مع أحمد منذ البداية. هو يدرك أنَّه ابنُ رجلٍ كبيرِ القَدْر من الأشراف، لكنَّه لا يعلم السَّبَبَ الحقيقيّ الذي يجعل جدَّته تتكتَّم في إخباره عن الحقيقة. لماذا تُسقِط دومًا هذا الحديثَ في كلامِها معه؟

هل تخشى مِنْ أمرٍ معيَّن؟

لقد دخل هذا الرجل بأمّه فأنجبت منه أحمد، لكنَّها تُوفِّيتْ بعد وضعه بقليل. ثمَّ قامت الجدَّة مقامَ الأب والأم، فربَّت الابنَ وحَرِصَتْ على أن يدخلَ كُتَّابَ أبناء الأشراف الذي لا يدخلُه إلَّا من كان منهم. فكيف لابنِ سَقَّاء أن يدرسَ مع أبناء الأشراف؟

كان هذا ما يجعل أحمد يتعذَّب منذ صغره لأنَّه يعلم أنَّه ليس ابنَ سَقَّاء، لكنَّه كان لا يستطيع أن يذكر شيئًا عن والده الحقيقيّ الذي لم يره ولا يعرف عنه شيئًا سوى أنَّه رجلٌ خَطِرُ المقام.

أمَّا جدته، فكانت تَعْلم علم اليقين أنَّ أعداء أسرتها يريدون أن يسلبوا عن ابنها حقَّ النسبة العلويَّة لأمرٍ لا تستطيع أن تُخبر به حفيدها اليوم، لكنَّها ستزرع فيه هذه النِّسبة حتى لا يَشُكَّ فيها في يوم من الأيَّام. عليها أن لا تجعله يشعر بالنقص والمهانة، لأنَّ أُناسًا أرادوا نَكْبَه في نسبه الشريف لأسباب متعدِّدة. لقد نجحت في إدخاله للمكتب الذي يتعلَّم فيه أولاد الأشراف، وهذه معركة أولى كَسِبَتْهَا حتى يتربَّى حفيدها ويتلقَّى أفضل تعليم يتلقَّاه أبناء الأشراف في مدينتهم.

ومضى شأنُ الجدَّة مع حفيدها على هذا النحو من المقاومة الناعمة التي تنبني على الاستحقاق وانتزاع الحقّ بما يتفتَّق في القرائح والفِطَر من النبوغ الكامن، ومضى شأنُ الفتى مع جدته في احتمال هذا السِّرّ حتى يأتي اليوم الذي تَبِينُ فيه الأمور.

كانت هذه الجلسات التي يجلس فيها أحمد إلى جدَّته قادِحًا في مَضَاءِ عَزْمِ الفتى ونباهتِه وشهامتِه، وكانت الجدَّة تحدِّثه حديثًا طويلًا لا يَمَلُّ سماعَه حتى غرست فيه أنَّه كائنٌ لا يمكنه أن يقنعَ بما يقنعُ به أقرانُه من المجد الزائل، بل إنَّه يملك شيئًا فريدًا عزيزًا لا يستطيع أن يصفه

أو يَسُكَّهُ في جملة الكلام، لكنَّه يحسُّ به إحساسًا عميقًا يملك عليه ليله ونهاره، ويستحثُّه على طلب المزيد من التَّميُّز والتَّفوُّق والفرادة. فإن كانت الحياة قد وهبته شيئًا عزيزًا، فعليه أن يصقله بالاستحقاق. تحسَّس أحمد كتفه وأحسّ بحكَّة، فكشف عن قميصه ثمَّ استرعاه وجودُ الشَّامَةِ العجيبة التي كانت على كتفه، وكانت دائمًا تثير فضوله، فَيُنَاوِشُهَا بالتَّلَمُّس لعلَّ أصابعَه تخبره عنها بما لم يستطع عقلُه الصغير أن يخبره عنها. سأل جدَّته عن هذه الشامة العجيبة التي تميَّزَ بها فصارت له مثلَ الوَسْم.

قالت الجدَّة لحفيدها: يا بُنَيْ، تلك الشَّامةُ خِلْقَةٌ وُلِدَتْ معك، وهي من دون شَكٍّ تدلُّ على أَمْرٍ خُصصتَ به.

زاد فضولُ الفتى، فقال: وما هو هذا الأمر الذي خُصِصتُ به؟

أخذت الجدَّة مرآةً صغيرة وقرَّبتها من الشامة حتى يستطيع حفيدها أن يُعاينها، وقالت: يا بنيْ، لقد سمعنا في الأخبار أنَّ من كان له مثل هذه العلامة لا بد أن يكون له شأنٌ عجيب، ومقامٌ عظيم.

ازداد أحمد فضولًا، لكنَّه أدرك أنَّ هذا الشأن يصطدم مع صخرة الحياة التي يعيشها، والتي كانت جدَّته تحرص على أن تُربِّيه على معرفة مداخلها ومَحاذيرها. ليس الشَّأنُ أن يكونَ مميَّزًا، لكنَّ الشَّأنَ هو أن يستطيع انتزاعَ ذلك التَّميُّز باستحقاق. أمَّا في البداية، فهذه العلامةُ مثلُ الحرفِ لا تتمُّ به الفائدة إلَّا بالمعنى الذي هو روحه وسرُّه. الكُلُّ مُتساوٍ في الحرفيَّة، ويبدأ الاختلاف ويتَّسع مع تحصيل ثمار المعنويَّة. الناس حروف مُتَّصلة أو منفصلة أو هي معًا على صفةٍ من الاتِّصال حينًا والانفصال أحيانًا، لكنّ الذي يعطي للحروف مادَّةَ سيرِها هو الرُّوحُ

السّاكنُ فيها، والمعنى النُّورانيّ المُستجلَبُ من دياجيرِهَا. في ظلمة الأرحام تتخلَّقُ الأرواح، ومن شامة الكتِفِ تتعرَّقُ هامَةُ كُلِّ هاتف.

قالت الجَدَّة: إيهٍ بُنَيْ، فيك علامَة، وهي بالخِتام مثلُ بَيضِ حمامة.

قال الفتى: ولماذا تصلح تلكم الخِتامة؟

فأجابت الجدَّة: من وظائف الأختام تأمين الحماية؛ والإشهاد بصحة الرسالة، وإيصال الأوامر بالأمانة.

فقال الفتى: وما قيمة العلامة؟

فقالت الجدَّة: لكلِّ ختمٍ علامة، وقيمَتُها في أن يتعرَّف الناسُ عليه ويشهدوا بصدقه، وبصحَّة ما في المراسلات من أوامرَ وسُلَطٍ وتوجيهات.

هكذا تحدَّثت الجدة إلى أحمد تخبره عن شأن الأختام، وتجد لذلك طريقًا بالحديث عن شامة الحفيد. فأيُّ شيءٍ تمنحه شامةٌ ضائعة على ظهر فتى مضطهدٍ في نَسَبِهِ، في إحدى مدن العراق؟

ومضى الفتى يحمل هذا السِّر الذي وقر في صدره وكيانه، يجلوه بالنور، ويستعلنه بالفتوَّة، ويستأني ساعتَه حتى تَحِين. كان يسخر من هذه التقادير، ويقول مداعبًا نفسه: ما جُعلت علامةُ الختام إلَّا للنساء، فلا يكشف المرء عنها إلَّا حين يخلو بعِرْسِه. إنَّ شهادة النساء في الختامة أصدق شهادة وأوثقها، فأوَّل امرأةٍ تشهد بذلك هي القابلة ثمَّ أمّه التي تنجبه وتتلقَّاه على صدرها. وحين يكبر الطفل ويصبح زوجًا لا يكشف عن جسده إلَّا لزوجته، فتكون خيرَ أمين يطالع تلك العلامة.

ثمَّ صار يسأل نفسه: أفلا تكون الختميَّةُ كَتْمِيةً إلَّا على النساء؟ فلعلَّ للنساء ذوقًا كبيرًا في الختميَّة ليس للرجال، إذ هُنَّ من يشهد بصحَّة علامة الختميَّة. ومن صحَّحَ صِدْقَ العلامة صَحَّ له التَّقَدُّمُ على مَنْ حُرِمَ ذلك التَّصحيح والإشهاد.

كان أحمد قد أنافَ على سِنِّه بكثير وهو في مثل عُمْرِ الأحداث. وما كان يَمُرُّ عليه عام بعد آخر إلَّا وقد ازداد توهجًّا وتوقُّدًا، مع ما حباه اللَّـه من السَّمْت الحَسَن وخِفَّة الروح، وما خُصَّ به من دُعابَة ساخرة، وما يطبع فطرَتَه من مَرَحٍ وطرب مَمْزُوجَيْنِ بِتُؤَدَةٍ ووقار.

كان في طريقه إلى الكُتّاب جيئةً وذهابًا يعرِّج على حوانيت الورَّاقين يقتني منهم كتبًا سمع عنها أو تحدَّث في شأنها الأساتيذُ والشيوخ، فيقتنيها ويُعَمِّقُ دراسَته لها ويستزيدُ علمًا ليس عند غيره من الأقران حتى تناقلَتْ نبوغَه المجالس، ونطق لسانُه صغيرًا بالشِّعْر.

قال له بعض أصحابه من فتية العلويِّين: يا أحمد، ما أحسن فَرْوَةَ شَعْرِك!

فقال أحمد مزهوًّا بأرومة الأصل، صارفًا الأمر عن مظهره الخارجيّ إلى ما يتَّصف به من الشجاعة:

لا تَحْسُنُ الوفرةُ حتى تُرى منشورةَ الضَّفرين يومَ القِتالْ
على فتًى مُعتقِلٍ صَعْدَةً يَعُلُّها من كلِّ وافِي السِّبالْ

بقي في الكتّاب حتى بلغ أربع عشرة سنة، ثمَّ حدثت فتنة القرامطة في الكوفة، ولأنَّه كان مستهدفًا مثل باقي أبناء الأشراف من خطر هذه الفرقة، خرج مع خادمه «عيدان» السَّقّاء إلى البادية القريبة، فنزل في قبائل كلب ليسمع منهم ما بقي من العربيَّة المبرَّأة

من اللَّحْنِ، المصفّاة من العُجْمَة التي فَشَتْ في العراق بسبب تغلُّبِ الأعاجم على الدولة العربيَّة، لكنَّه لم يلبث أن رجع إلى الكوفة بعد أن طوَّف في بلاد نجد بين العرب الأقحاح، فتفتَّقتْ عربيَّتُه بناصع الألفاظ وحُرِّ المعاني.

كانت جدَّته التي مات زوجها الحسين، قد استبطأت غيابَه وطلبت منه أن يعود إلى الكوفة، فعاد إليها يقاسمها آلامها بنكبة أسرته في نسبها العلويّ، لأنَّ قومًا من العلويِّين لم يرضوا بأنْ يستعلن أنَّ والدَ أحمد رجلٌ كبيرٌ فيهم لا تسمح القضيَّة الكبيرة التي يناضل من أجلها أن يَظْهَرَ له ولد. كان وجود الولد خطرًا على تلك القضيَّة وعلى صاحبها، بل على كلّ أصحاب القضيَّة. لذا، كانت الجدَّة تناضل من أجل أن لا يُحرَم الحفيد من أبيه كما حُرم من أمّه التي ماتت حزنًا وكمدًا. كانت تناضل من أجل أن لا يؤدي ابنُها ثمنَ نجاح قضيَّةٍ كان العلويّون يُضَحُّون فيها بكلِّ شيء من أجل بلوغ أهدافها. بدأ الفتى يفهم قصَّةَ نَسَبِه، وصار يعلن هنا وهناك أنَّه ليس ابنَ سقَّاء، وإنَّما هو ابنُ رجل شريف من القوم. لم يقبل حرَّاس عقيدة العلويِّين بهذا الأمر، وزجروا الفتى عن ذلك وسلَّطوا عليه سفهاءَهم وصبيانهم يسخرون منه، لكنَّ الدِّماءَ التي تجري في عروقه كانت أقوى من كيد هؤلاء، فناصبهم العداء، لأنَّهم كانوا يَحُولُونَ دون أن يكون له أبٌ وأجداد يفخر بهم كما يفخر الناس بآبائهم وأجدادهم. لم يكن كثيرٌ من العلويِّين أنفسِهم يعلمون حقيقة نسب أحمد. لهذا لم يكن هناك تأثيرٌ واضح لأقواله المتكرِّرة في أوساطهم، بل كانوا يزدادون له سخريةً وإنكارًا، كلَّما ازداد في نسبه إعلانًا واستظهارًا. وممَّا كان يُعَقِّدُ مهمَّةَ أحمد عَوَزُ أسرته بعد أن مات جَدُّهُ من جهة أُمِّهِ، الحسين الملقَّب عيدان السَّقاء، ومات أيضًا خادمهم عيدان السَّقاء، فبقيت الجدَّة مع

حفيدها، لكنَّ أحد جيرانهم هو محمَّد بن عبيد اللَّـه العلويّ المشطّب تولَّى مساعدتهم.

ومضى على هذا الأمر سنتان بعد ذلك، ثمَّ تاقت نفس أحمد إلى السياحة، فخرج سنة 319 إلى بغداد ليرى ما حلّ بالبلاد والعباد بعد أَنْ تسيَّدتْ دولة الخدم على الخلافة، فعفّ لسانُه أن يمدحَ هؤلاء وأولئك، لأنَّ نفسَه الأبيَّة ما كانت لترضى بأن يصبحَ بوقًا يؤثِّلُ ذِكْرَهم، وأَنِفَ أن يتكَسَّبَ ممَّن كان يَزْدَرِيهِمْ ويحتقرهم، ورضي بالعيش فقيرًا على أن يُسخِّر شعره في مدح من يراهم دون المروءة. كان يرى أنَّ نسبَه العربيّ الشريف أسمى من أن ينحطَّ إلى التكسُّبِ بالشعر ومَدْحِ أُولَئِكَ الأعاجم الذين تسيَّدوا على الدولة العربيَّة حتى صار لهم الأمر والنهي.

وإنَّما الناسُ بالملوك وما تُفْلِحُ عُرْبٌ ملوكُها عَجَمُ
بِكُلِّ أرضٍ وَطِئْتُها أُمَمٌ تُرْعَى بعبدٍ كأنَّها غَنَمُ

وأثناء وجوده في بغداد، أخبره أحد أصدقائه العلويّين من سكان الكرخ عن الشيعة الإماميَّة وعن الحُجَّة صاحب الزمان الذي هو الإمام الثاني عشر في سلسلة الأئمة، الغائب في غيبة صغرى. طلب أبو الطيِّب من صاحبه أن يُخبره عن اسمه، فذكر له العلويّ أنَّ اسمه لا يعرفه إلَّا خاصَّة العلويِّين، وأخذ عليه الأيْمان المُغَلَّظَة في كتمان أمره. وذكر له سلسلة الأئمة قائلًا: هو محمَّد (المهديّ)، بن الحسن (العسكريّ)، بن علي (الهاديّ)، بن محمَّد (الجواد)، بن علي (الرضا)، بن موسى (الكاظم)، بن جعفر (الصادق)، بن محمَّد (الباقر)، بن علي زين العابدين (السّجَّاد)، بن الحسين (سيد الشهداء)، شقيق الإمام الحسن (سيِّد شباب أهل الجنة)، ابني الإمام علي والسيِّدة فاطمة الزهراء عليهم السلام.

سأل أبو الطيِّب: هل الإمام الثاني عشر حيٌّ يُرزق؟

فقال العلويّ: هو في الغيبة الصغرى منذ أن كان عمره خمس سنوات.

فقال أبو الطيِّب: وهل له أولاد؟

فقال العلويّ: سمعنا أنَّ له ولدًا يدعى أحمد، لكنَّ مشايخ العلويِّين يرفضون ذلك ويرون أنَّ دائرة الإمامة قد كَمُلَت، ولا يمكن أن يأتي إمامٌ ثالث عشر بعد الإمام المهديّ الغائب، مثلما ليس هناك شهر ثالث عشر، ولا ساعة ثالثة عشرة.

سكت أبو الطيِّب متأمِّلًا في كلام الرجل، وسأله عن أصحاب هذا الإمام، فقال العلويّ: لقد سُمع خبرُ الإمام وأصحابِه قبل سنوات قليلة عندما قام الخليفة العباسيّ المقتدر بهدم مسجد «بَراثَا» الذي كان مقرًّا للطالبيِّين الملتفِّين حول الإمام محمَّد المهديّ بن الحسن العسكريّ. وقد أمسكوا بحوالى ثلاثين رجلًا من أتباع الإمام يضعون خواتم من طينٍ أبيض كُتب عليها اسمه.

لم يكن اسم الإمام الثاني عشر الغائب غريبًا على أبي الطيِّب، فقد سمع من جدَّته أنَّ اسم والده هو محمَّد بن الحسن وأنَّه من سادة العلويِّين. داخل أبا الطيب الشَّكُّ، لكنَّه خشي على نفسه إن هو ربط بين اسم والده واسم الإمام محمَّد بن الحسن العسكريّ، فَانْكَتَمَ على أمره أَشَدَّ ما يكون الكتمان، وأدرك لحظتَها ما كانت تحذِّرُه منه جدَّتَهُ الصالحة، وتؤكِّدُ عليه أَنْ لا يثق في أيِّ أحد. اضْطَرَمَتْ نفسُ الفتى وماجت ممَّا سَمِع، ومِمَّا عمَّ في الأقطار وسارت به الأخبار، وآثر أن يعود للبادية، فكان يتنقَّل من مضارب قومٍ إلى من يَلُونَهُم يستنفِحُ منهم ما

بقي من عروبةٍ وشهامةٍ ومروءةٍ ورجولة، ويستعلن عندهم شفوفًا لم يجده عند غيرهم ممَّنْ لَيَّنَهُ جِوارُ الذِّلَّةِ والحقارة، والتَّطبُّعِ بالسَّخافة. قَرَّ مُدَّةً في ديار ربيعة بين النهريْن إلى نَصِيبِين ورأس عين وحَرّان ومَنْبِج، ومضى حتى وصل إلى الشام سنة 321، وسكن في بعلبك وطرابلس وحمص، لكنّه كان يُغالب نفسَه التي كانت تطلب المعالي، وترتجي أَنْ تؤوبَ إلى أميرٍ عربيٍّ يَرْفَعُ مَقْتَ هذه السنين ويُعِيدُ للعرب أمجادَهم وعزَّتهم. ثمَّ طوَّف مرَّةً أخرى في منبج وحلب واللاذقية وأنطاكية باحثًا عن منشوده. ولمَّا لم يجد ما كان يُؤمِّل من الخلاص استعلنت ثوْرَتُه وهاجت دخيلَتُه بما نُكِب به في نسبه العلويّ، فلم يَعُد يستأني في مطالبه بل نَشرَ في كلِّ المجالس حقيقةَ نسبِه وأَعْلَنَه، وصَبَّ وَبِيلَ غضبِه، وسَيْلَ نِقْمَتِه على من نكبوه. كان يُعلن في الناس أنَّه ابنُ الأماجد وأنَّه ابنُ سادة العلويِّين، فاتَّبعه كثيرون، ووعدوه بالنُّصرةَ إن قام على الظلم وثار، فقال:

مُحِبِّي قِيامي ما لذلكُمُ النَّصْلِ بريئًا من الجرحى سليمًا من القتْلِ

أمَّا أصحاب الدَّعوة العلويَّة ممَّن كانوا يعملون في الخفاء حتى تظهر قضيتهم وتحصل لها الغلبة، فقد ساءهم تشغيبُ أبي الطيِّب عليهم وإفسادُ تدبيرهم حين أراد القيام مع ما يستدعيه هذا الأمر من ادِّعاء صفة «القائم» التي كانت لقبًا لأبيه وللأئمة؛ فهاج خصومه وماجُوا من حِدَّة هذا الشاب وتَهَوُّرِهِ، وهُجُومِه على رؤوسهم واستِخْفَافِه بآرائهم وتَسْفِيهِه لكثيرٍ من عقائدهم، فلم يجدوا بُدًّا من المَكْرِ والحيلة لِيَكْسِرُوا شوكَتَهُ، فنبزوه بألقابٍ وخيمة، ونسبوا له تهمًا مكذوبة. كان الخلاف بين أحمد وعلويَّة الكوفة في الاعتراف بنسبه لما نكبوه في حَقِّه المشروع، ونفَوْا عنه أن يكون ابنَ كبير زعمائهم، فاحتدم الخلاف واستَحدَّ الاصطفاف بين هذا الفريق وذاك. ثمَّ قيل هنا وهناك بأنَّ أبا الطيِّب أحمد يزعم

أمورًا، وهو لم يقل سوى أنَّه ابن سيِّد العلويِّين في وقته، وشاعت الأخبارُ وأنصافُ الأخبارِ والأراجيفُ بمثل هذه الأكاذيب، وأبو الطيِّب ماضٍ في عزمه غير حافلٍ ولا آبِهٍ بما يَحيكُ له خصومُه من المكائد حتى وصلت تلك التُّهم إلى الحُكَّام، ولم يَعُد معها السُّكوتُ عنه.

كان سيف الشريعة قريبًا إلى الأعناق في تهمة الديانة حينما يجد الكائدون وتجَّارُ الدِّين الطريقَ إلى ذلك بالكذب والبهتان، ولم يكن للحاكم أن يرُدَّ تُهمًا تَطالُ الحُرمات حتى لا يتَّهم بالتَّقصير، إلَّا إذا كان صَكُّ البراءة لائحًا للعِيان.

تورَّطَ أبو الطيِّب مع أعدائه فَقُبِضَ عليه وَأُودِعَ السِّجن حتى ينظر القاضي في أمره. أظلمت الدنيا في وجه أبي الطيِّب، وامتلأت نفسُه الأبِيَّة الحُرَّةُ بالنِّقمة على أعدائه الذين ضاعفوا الكيدَ له حتى يُوئِسُوهُ من كُلِّ محاولة للمطالبة بحقِّه المغصوب، واسْتَعَرَت المواجهة بينهم. كان وحيدًا فريدًا، وكانوا كَفَزْعَةِ الهَيْعَةِ لَفِيفًا في كلِّ مكان، فماذا يَمْلِكُ شاعرٌ غيرَ الكلمة، حتى ولو كان أشجعَ الشُّجعان، وقد كان أبو الطيِّب فارسَ الكلمة والسَّيف كما كان آباؤه من قبل.

أمضى أبو الطيِّب سنتيْن طويلتيْن في السجن، تدبَّر خلالها ما آلت إليه الأمور، وأدرك أنَّ ما كانت تحذِّره منه جدَّتُه قد حصل، فإنَّ إعلانَ نسبِه وانتزاعَ الاعتراف به دونَه أهوالٌ هي قضيَّةُ صراعِ آلِ البيت مع مَنْ نكبوهم في الخلافة منذ البداية. لكنَّ الغريبَ في الأمر هو أنَّ خصومه الذين يقفون في وجهه كانوا من العلويِّين، وهو علويّ.

بعد تجربة السجن جرَّاءَ التُّهَم التي رُمِي بها أبو الطيِّب بهتانًا، استدعى القاضي المتَّهَمَ وأخذ عليه عهدًا أن لا يعود إلى الثورة والقيام،

فحاول أن يوضّحَ للقاضي أنّه طالبُ حقٍّ مغصوب، ومُنافِحٌ عن نَسبٍ منكوب. أدرك القاضي خيوطَ اللعبة التي كادها خصومُ أبي الطيّب له، لكنْ للقضاء مراسيم، فاستخرج من أبي الطيّب عدمَ الثورة والقيام، وأن لا يَدَّعِي نسبًا كالذي يدَّعيه إلّا بشهودٍ وأَدِلَّة، وأشهده على نفسه ثمَّ أطلق سراحه، وسكنت القضيَّة إلى حين.

دخل أبو الطيّب إلى السجن علويًّا مُطالبًا باسترداد نسبه، وخرج منه ثائرًا عربيًّا ضدَّ ما يُسمّيه دولةَ الخدم الذين كانت لُحُونُ ألسنَتِهم مُواليةً، وأفئدتُهم مُعادية:

فلا تَغْرُرْكَ أَلْسِنَةٌ مَوالٍ تُقَلِّبُهُنَّ أَفْئِدَةٌ أَعَادِي

دخل السجن علويًّا، وكان من تسبَّبَ في دخوله وإهانَتِه وسَوْمِه صنوفَ الهوان هم جماعةٌ من العلويَّة، فخرج من السجن منكوبًا في نسبه، كارهًا للعلويّين مُناصبًا لهم العداء، مُزْوَرًّا عنهم أشَدَّ ما يكونُ الازْوِرَار.

كان ما حصل لأبي الطيّب قد طار خبرُه في الآفاق، وأطلقَ الخصومُ والمُغْرِضُونَ على أبي الطيّبِ لَقَبَ «المتنبّي» يريدون في الظاهر أنّه كان متكبّرًا **نابيًا** عن الناس مترفّعًا عنهم جافيًا، ولعلهم يريدون أن يشغلوا أبا الطيّب بالتَّهَمُّمِ بما قد يفهمه الناس من دعوى النُّبُوَّة سَتْرًا لحقيقة مطالبته بنسبه المَنْكوب. ولم يكن يَضِيرُ أبا الطيّب التباسُ هذا اللَّقب في ابتداء أمره، إذ كان هو أيضًا يُجْرِيهِ على معنى **النَّبْوَة** والجفوة، بينما كان خصومُه يريدون أن يُجْروه على معنى **النُّبُوَّة**. كان لا يَضيره هذا الالتباس في المعنى في ابتداء شيوعه، لأنّه كان يذكّره بمقدار العداوة التي كان يُكِنُّهُا هؤلاء الأعداء له، ثمَّ صار يتضايق من سماع

ذلك اللَّقَب المُزْرِي، بالمعنى الذي لم يقصد إليه حينما يجري على ألسنة الناس ممَّن ليست لهم عداوة مع أبي الطيِّب، بَيْدَ أنَّهم كانوا يغارون على الحرمات، وكان يَسوؤُهم أنْ يَدَّعي أحدٌ النُّبُوَّة بعد ختميَّة النبيّ التشريعيَّة. وجد أبو الطيِّب نفسَه في موقف المدافع المتَّهم في أَمْرٍ لم يُرِدْهُ ولم يقصد إليه ولا خطر على باله أبدًا، وهذا كان الهدفَ الذي دبَّره له خصومه حتى يُشغِلوه بالرَّدِّ عن التهمة وتَبِعَاتِها بدل توجيه هِمَّتِه للمطالبة بنسبه، ويُبْعِدوا الناس عن حقيقة مطالبَتِه بحقِّه. كان هؤلاء الأعداء يعلمون بخروج رجلٍ آخر اسمه أحمد بن عبد الرحيم المتنبِّي الأصفهانيّ، يحمل نفس اسم أبي الطيب «أحمد»؛ ولقَّبه الناس بالمتنبي لادِّعائِه النبوَّة وإقراره بذلك. كان هذا الرجل «أحمد المتنبِّي» قد خرج في بادية السَّماوة في العراق، وسُجِنَ في بغداد قبل ولادة أبي الطيِّب بقليل، لكنْ لا ضَيْرَ في حمل هذا على ذاك ونسبة ذلك الجُرم له، ما دام أنَّ الناسَ لا تعرف ولا تُدقِّقُ في صِحَّة التواريخ، ولا سبيلَ إلى تحقُّق عامَّتهم من ذلك.

لم يكن أبو الطيِّب مستعدًّا لكي ينافح عن نفسه، لأنَّه كان يحتقر أعداءَه ويستخفُّ بهم، ويرى أنَّ مكرَهم لا يستدعي منه ردَّ هذه التُّهمَة المغلّظة لأنَّها مَحْضُ كَذِبٍ وبهتان. وقرَّر أن يعود إلى الكوفة ليكون بِمَرْأًى ومَسْمَعٍ من أعدائه، ويُواجِهَهُم في مُكابرتهم بِنَكْبِهِ في نَسَبِهِ العلويّ.

كان أوَّل ما بدأه في الكوفة هو أن يُجَابِهَ جدَّتَه بما سَمِعَه عن الإمام محمَّد المهديّ بن الحسن العسكري. أراد أن يستوثق من ذلك الشُّعورِ الذي اجتاحه، والشُّكوكِ التي ساوَرَتْهُ بأنَّ له صلةً بهذا الإمام. لم تجد الجدَّة الصالحة بُدًّا من مصارحة حفيدها بما تعلم، والاعترافِ بالحقيقة

التي لا يعلمها سوى آحاد، لكنَّها حلَّفته بالأيمان المغلَّظة حتى لا يأتي على هذا الأمر أمام أيٍّ كان كي لا يتسبَّب في حتفه. وَعَدَ أبو الطيِّب جدَّته بما طلبته منه، وقَرَّرَ الانطواءَ على هذا السِّرِّ وكَبْتَه في أعماقه حتى لا يتضرَّرَ من أعدائه، سواء كانوا من العباسيِّين أو العلويِّين أو القرامطة أو الفاطميِّين ومَنْ سواهم، الذين يتَّفِقونَ على الهدف نفسه للنَّيْل من عَدُوٍّ مشترك يهدِّدُ مصالحهم. كان عليه أن يطالبَ بنسبه العلويّ من دون أن يُفْصِحَ عن علاقته بالإمام المهديّ. كانت معادلةً صعبةً، لكنَّه سيحمل صخرةَ مأساته على كتفيه بين متطلَّباتِ إحقاقِ النَّسَب لكلّ إنسان في الوجود، وبين عَدَمِ الزَّجِّ بنفسه في قضيةٍ ليست من شأنه ولم يخترها ولم يُطلِعْهُ أحدٌ عليها، بل عُودِيَ من أَجْلِ إِنْكَارِ أَيِّ صِلَةٍ بها والتَّبَرِّي ممَّا يربطه بها.

أدركَ أبو الطيِّب أنَّها قضيَّةُ جماعةٍ سرِّيَّة وعقيدةٍ مذهبيَّة وحركة سياسيَّة تسعى إلى الثورة على حكم العباسيِّين. وهي حركةٌ عقَديَّة مذهبيَّة لأنَّ الشيعة الإماميَّة ترى أنَّ دائرة الإمامة تتكوَّنُ من اثني عشر إمامًا، ولا ينبغي للإمام الثاني عشر أن يخلفه ولد، وإن حصل خلاف ذلك فلا علاقة للولد بالإمامة، وعليه أن لا ينتسبَ لأبيه الإمام، بل ينبغي أن يُنْكَرَ عليه في ادِّعَائه وأن يُضطهد في ذلك الادِّعاء، أو يُقتل إن هو أَصَرَّ على المطالبة بإحقاق هذا النسب. كما أنَّ باقي أعدائه إن علموا صلته بالإمام سوف يطلبونه للقتل لما يُشَكِّله من خطر.

ثمَّ أدرك أبو الطيِّب ثانيًا خطورة هذه القضيَّة، لكنَّه لم يكن مستعدًّا للتَّفْريط في حقِّه في إثبات نسبه، وهذا أمرٌ لا يملك أحد أن يمنعه منه، لأنَّه حَقٌّ مَكفولٌ لِكُلِّ إنسان، وإلَّا اختلطتِ الأنساب، وعَمَّتِ الفوضى وصار النَّاس إلى شيوع الهَرْجِ والمَرْج، بدل مودَّة الأرحام

وحِفْظِ عَمُودِ الأنساب. تبلور في دخيلته أن يحوّلَ هذه القضيَّة من بُعدها العَقَديّ المذهبيّ إلى بُعدٍ سياسيّ، بحيث ينتصر للدولة العربية وينافح عن أُمَّتِه التي تغلَّب عليها الأعاجم. هكذا بدأت ملامح هذه القضيَّة الجديدة تتفتَّقُ في شعور أبي الطيِّب. كان يريد أن يرتفع عن قضيَّة العلويِّين المذهبيَّة إلى قضيَّة تَهُمُّ الأمَّةَ العربيَّة التي تداعت عليها الأمم الأعجميَّة حتى صار أهلُ البيتِ أغرابًا. وطّنَ أبو الطيِّب نفسَه كي يكونَ حاملَ مِشْعل هذه الثورة العربيَّة، وكان عليه أن يخوضَها وأن يجمعَ الأنصارَ عليها، وأن يجدَ أميرًا عربيًّا شهمًا يشاطرُه الأهدافَ والغاياتِ نفسَها.

لقد ناصب العلويَّةُ أبا الطيِّب في نسبه، لأنَّ عقيدتهم تمنعهم من تَصَوُّرِ إمام يأتي بعد الإمام الثاني عشر، فالدَّوْرُ قد انتهى وخُتم بمحمَّد المهديّ، لكنَّ وجودَ ابنٍ لهذا الإمام قادحٌ في هذا الذي يرومونه، فَلْيُؤَدِّ أبو الطيِّب ثمنَ وجوده ضدّ خصومه. لقد أدرك أبو الطيِّب أنَّه يعاكس عقيدة أكثر ممَّا يعاكس أشخاصًا، في قضيةٍ جوهريَّة هي قضيَّة الإمامة، وهي من أصول العقائد عندهم، فليكن إمامًا على طريقته، وليكن خاتمةَ الشُّعراء وخَتْمَهم في مدينة الشعر المثاليَّة، ثمَّ وَلْيَكُنْ إمامَ الشِّعر العربيّ بعد أن رفض خصومُه أن ينتسب للإمام محمَّد المهديّ. وخيرًا فعلوا، فأبو الطيِّب الشاعر أكبرُ من حدودِ عقيدةِ فرقةٍ أو مذهبِ طائفةٍ أو حدودِ وطن، لأنَّه شاعرُ الجميع وإمامُ شعراءِ العربيَّة مذ كانت وإلى يوم الدين.

كانت تَطِنُّ هذه الأفكار في ضمير أبي الطيِّب وتغزل له خيوطًا رفيعةً تُقوّي بها بأسَه وعزمه. وهكذا، بدأ ينمو في باطن أبي الطيِّب كُرْهٌ لهذه القضيَّة السرِّيَّة التي لم يختر أن يكون طرفًا فيها ولا عنصرًا من عناصرها، لكنَّه أدَّى ثمنًا فاحشًا جرَّاء ما تطاير من شَرَرِ نَارِها عليه

حتى كادت أن تحرقه، وإن هو أصرّ على المضيّ في كشف ملابساتها سيحترق بها حتمًا حتى يَنْحَلَّ رمادًا ويستحيلَ هبَاء.

عاد إذن إلى المدينة التي وُلِدَ فيها مستجمعًا همومَه وسُمومَه ليقصف بها مَنْ خذلوه وناصبوه العداء، لكنَّه آثر أوَّلًا أن يستكملَ تكوينَه، فكبَّ على العلم وطَرَقَ مجالسه وجلس إلى الأساتيذ والشُّيوخ في كل فنون المعارف والعلوم والفلسفة والآداب. كان يحضر مجلسَ «الناشئ الأصغر» من فُحولِ شعراء الشيعة وكبارِ متكلِّميهم في المسجد الجامع في الكوفة، أثناء زيارة الناشئ سنة 325 لهذه المدينة. وفي تلك الأفياء الظليلة التي يَستَجِمُّ عندها المرء من هزعة الجهل وفزعة الأحقاد، تجدَّدَ في الرجل طاقةٌ أخرى لتوسيع مداركه وتجميع قواه للمقاومة والثورة على الظلم.

كان أبو الطيب عَزَبًا، فرأت جدَّته أن يصيبَ من مُتَعِ الدنيا حرارةَ الحُبِّ مع سَكَنٍ يأوي إليها تخفِّف عنه ما كان يلاقيه من كيدٍ وظلم، فَهَفَّ إلى مطلوبها، وعَفَّ عن كَسْرِ جَامِحِ مَرْغُوبِها. تزوَّج أبو الطيب إذن، وصار له عِرْسٌ وأهلٌ يفزَعُ إليهم كلَّما طَرَقَهُ طارق من تلك النَّكبات، أو أَلَمَّتْ به واحدةٌ من هَاتِيكَ النَّائِبات. فما أحْلَمَ المرأةَ حينما تسترفِقُ رَأْسَ حبيبٍ مُثْقَلٍ بالهموم على صدرها الدَّافئ الحانِي.

بعد أن استَوْرَفَ عِلْمُ أبي الطيِّب وَأَدَبُهُ، واتَّخَذَ له زوجًا، ضاق مرَّة أخرى بأعدائه في الكوفة، فخرج منها لعلَّهُ يُصِيبُ في غيرها ما يُعِينُهُ على النَّيْلِ من كيد مُناصِبِيه، ويستجمِعُ قواه ويتَّخِذُ له أنصارًا ليقودَ الثورةَ التي لم ينجح فيها أوَّلًا. وكان قد عاهد نفسَه أن لا يَجْبَهَ أعداءَه في شِعره، أو يمدحَ أحدًا لا يستوفي مرادَه من العِزَّة والشَّهامة، فتوجَّه إلى

الشام حيث كان يؤمِّلُ أن يُصِيبَ ما يساعدُه على تحمُّل الزمان، واتِّخَاذِ العُصْبَةِ أُولِي القُوَّة من الأنصار والإخوان، في كَنَفِ أميرٍ عربي يَنْصُرُه فيما لقي من العَنَت، ويَمْحَضُه العَوْنَ فيما يُؤَمِّل من غايات.

نزل أبو الطيِّب في الشام عند أحد أصحابه هو عليُّ بن إبراهيم التنوخيّ، ثمَّ خرج إلى حلب، وقصد أنطاكية، ومدح صاحِبَها المغيثَ ابنَ علي بنِ بشر العجليّ، ثمَّ تقلَّب إلى حمص ولبنان، وبقي يمدح بدرَ ابنَ عمَّار الذي وجد عنده تلك الخصالَ العربيَّة التي كان يبحث عنها ويَجِدُّ في طلبها، فلم يكن مَدْحُه عند هذا الأمير من أجل المال، لأنَّ أبا الطيِّب لم يمدح ليتكسَّب، بل كان صاحبَ قضيَّة، وحينما يجد هواه يُخلِّدُ ذِكْرَ ممدوحه لا لِمَا أَسْبَغَ عليه من المال، بل لما وافقه فيه من الخِلال. كان بدر فارسًا قويًّا مِغْوارًا شهمًا، فيه من صفات الفُتوَّة ونعوت المروءة ما قَوَّى الوشائجَ بين الرجليْن.

وقد استطاع أبو الطيِّب أن يجد في هذا الكَنَفِ بعضَ الرَّاحة مع أهله، فَأَوْلَدَ من زوجه ولدًا، واستنعم بشعور الأُبُوَّة الذي طوَّقه بمسؤولياتٍ جديدة، فقال:

وترى المُرُوّةَ والفُتُوَّةَ والأُبوّ ... ةَ فيَّ كلُّ مليحةٍ ضرَّاتِها
هنَّ الثلاثُ المانعاتي لذَّتِي ... في خُلوتي لا الخوفُ من تَبِعاتِها

كان أبو الطيب يستطيب هذه المروءة والفتوَّة والأبوَّة الطارئة، لكنَّها كانت تمنعه من استدامة لذاتها حينما يخلو مع نفسه، ويفكِّرُ فيما أصابه من العَنَت. أطلق أبو الطيِّب على ولده الذي رزقه اللَّه اسم «مُحَسِّد»، يرمي به حُسَّاده بتأثيل نسبه وتأبيده ضِدَّ شَانِئِيهِ مِمَّن أرادوا أن يَبْتُرُوا عنه نسبه العلويّ الشريف، وتنقَّصوه وحسدوه.

ولأنَّ الرَّجلَ خَبَرَ الشَّدائد وقارعَ صُروفَ الدَّهر لم يتركه أعداؤه متنعِّمًا في هذا الجوار، وابتلاه اللَّه برجل أعور مُمَتَّعٍ بإحدى عينيْه يدعى ابنَ كَرّوس. اتَّصَلَ هذا الأعورُ بصاحبه ابنِ عمّار وكاد لأبي الطيب عنده كَيْدًا متواصلًا، حتى بدأ بدر يتغيَّر على أبي الطيِّب الذي أحسَّ بغيوم السِّعاية قد لَبَّدَتْ سماءَ مُصافاته، فاضطرَّ إلى مجاراة ممدوحه حتى فيما يكره وتكره نفسه. لم يكن أبو الطيِّب يَغْشَى مجالسَ الشُّرْب، فقد كان زاهدًا في الشَّراب لا يَسْتَطِيبُهُ ولا يَقْرَبُه، وكان بدر مِمَّن يداومون على الشُّرْب فدعا أبا الطيب لذلك الأمر مرارًا، ثمَّ شدَّد عليه، وخشي أبو الطيِّب أن ينالَهُ مكروه من صاحبه بعدما سعى ابنُ كرُّوس في تصوير إبائه من العفَّة والورع عن الشراب على غير وجهه، وأطمع سيِّدَهُ في مَشْنُوئِه، ونَفَخَ في قِرْبَةِ نفسِه بشرارة الغيظ له والافتراء عليه. لم يكن أمام أبي الطيِّب إلَّا أن يتنازلَ عن عوائد نفسِه من العِفَّة واستكراه الخبائث التي تربَّى عليها، فَنَادَمَ ابنَ عمَّارٍ وشربَ معه على استكراهٍ واستِذْمام حتى يُذهِبَ ما في نفسه من الشُّكوك والرِّيَب ويستوقي من بطشه وكيده. كان يفعل ذلك لا مستطيبًا لمجالس الشراب، لكنَّه كان يتحيَّنُ الفرصةَ لِيَهْجُرَ المكانَ ويغادرَ تلك الرِّحَاب، ويَفْلِتَ بجِلْدِه وأهلِه من ذلك المُصاب. ولو كان الأَمْرُ بيده وحدَه لما جلس ذاك المجلسَ ولَمَا صانَعَ ممدوحَه عليه، لكنَّه كان يَجُرُّ من خلفِه أهلَه وولَدَه، وكان يخاف عليهم إنْ أَصابَه مكروه، فاستطعمَ ما يَكرَهُ توقِّيًا مِمَّا يُحَاذِر.

خرج ابنُ عمَّار في بعض حَرَكاتِه، فاغتنم أبو الطَّيِّبِ الفُرصةَ واحتَمَلَ أهلَه على وجه السُّرعة، وخرج من طبريَّة قاصدًا «حِمَى جَرَش» من أعمال دمشق، ونزل عند صاحبٍ له كانت بينهما مودَّة سابقة في طبريَّة، وهو أبو الحسين علي المرّي الخراسانيّ، فاحتمى بحماه واستظَلَّ

بظلّه، لكنَّه لم يُرِدْ أن يتسبَّب لصاحبه في ضرَرٍ أو مَشقَّة، فظلَّ على حاله ينتقل من مكانٍ إلى آخر يحتمل في صدره كمّيةً من الغضب والحنَق على ما كان يُوجِعُ قلبَه من آلام، وما يتسقّطُ في زُجاجِ إنْبِيقِهِ مِنْ قَطِران، ولا يرضى أن يصحبَ أميرًا أو ينادِمَه، مُؤْثِرًا العزلةَ عنهم والاستِخمال منهم. وكان الأعورُ ابنُ كَرُّوس يَجِدُّ في أثره ويسعى للنَّيل منه، ويؤلِّبُ عليه البلاد والعباد، ويُوغِرُ عليه الصُّدورَ حتى أصبحَ أبو الطيِّب يتوهَّم وجودَه في كُلِّ محَلَّةٍ حلَّها، أو باديةٍ طرَقَها، بل إنَّه لَيُخَيَّلُ إليه أنَّه يراه في سَرابِ الأُفق وبين كُثبان الرِّمال وعلى سَابِلِ الطُّرُقاتِ وَمَسِيلِ الوِديانِ وَفِجَاجِ الجِبال، وتفتَّقتْ شاعريةُ هذا اللِّسانِ المبينِ فيما صَكَّ به ذلكَ الأعورَ مِمَّا لا يزال النَّاسُ يُردِّدونَه إلى اليوم، ويُفْطِرُونَ عليه في سُرورٍ بعد صَوْم، وهم يحفظونه ويتمثَّلون به في كلِّ أعورٍ خَسيسٍ مُتلوِّنٍ أَفَّاك.

ولمَّا طَوَى الباديةَ حلّ في أنطاكية، ثمَّ اتَّصل بأبي العشائر من الحمدانيِّين، لَكِنْ وَصَلَهُ كتابٌ من جدّته يستَحِثُّه على المسير إليها، فأعمل الرِّكَابَ نحو الكوفة، بَيْد أن رغبَته في دخولها لم تتمّ لأنَّه حِيلَ بينه وبينها من أعدائه الذين كانوا يُضمِرونَ له العداءَ ويُعلنونَه جِهارًا نَهارًا، فكتب لجدَّته كتابًا يسألها القدومَ عليه إلى بغداد فسُرَّت به. وبينما هو على تلك الحال من الانتظار والتردُّد جاءَه نَعْيُ جدَّته سنة 329، وهو في بغداد، فَبَلَّ ريقَه حنَقًا وغيظًا على أعدائه الذين حرموه من نسبه، وحرموه اليوم من لقاء جدَّته. ثارت نفس أبي الطيِّب، وألقى حِمَمَ شعره على أعدائه يهجوهم ويقدَح فيهم ولا يتورَّعُ أن يستثيرَ غضبَهم وحنَقَهُم بأضعافٍ مضاعفة، لا يستأني في ذلك ولا يتوقَّف بعدما بلغه أنَّهم كذبوا عليها وذكروا لها أنَّ حفيدَها قد مات، فَجَزِعَتْ لذلك وَوَجِدَتْ عليه، ثمَّ حُمَّتْ حتى أسلَمَتِ الرُّوحَ إلى بَارِيهَا.

وممَّا بلغه من أحد أصحابه ممَّن كان على صلةٍ بأسرته أنَّ جدَّته كتبت إلى أبي الطيِّب ليأتي إليها على وجهِ السُّرعةِ، لأنَّها كانت تريد أن تحسم قضيَّة نسبه لَمَّا علمت بوجود الإمام محمَّد المهديّ، والوكيل الرابع للإمام في الكوفة، وهذا الوكيل أحد القلائل الذين يعلمون صلةَ أبي الطيِّب بوالده نسبًا، وقد كان الوكيل الثالث قبله هو من ساعد الجدَّةَ الصالحة من قبل حتى سُمِح لحفيدها بدخول مدرسة أولاد الأشراف العلويِّين في الكوفة. لكنَّ أمل الجدَّة كان قد أُصِيبَ في مَقْتَلٍ لمَّا مات ذلك الوكيل الثالث سنة 326 دون أن تتمكَّن من حسم قضيَّة نسب حفيدها. ثمَّ لمَّا علمت بوجود الوكيل الرابع في الكوفة أرادت أن تحسم مرَّةً أخرى قضيةَ حفيدها فكتبَتْ إليه ليأتي إليها، لكنْ خلال تلك الفترة مات أيضًا هذا الوكيل الرابع، ولعلَّ الإمام محمَّد المهديّ كان قد مات قبله بقليل، فحزنت الجدَّة على اختفاء الرجليْن الوحيديْن القادرين على تحقيق نسبة حفيدها وتأكيد حقِّه في قضيَّته، وازدادت هَمًّا حتى هلكت. وقد رثى أبو الطيِّب جدَّته فيما قال عن نسبه الشريف، وعن شماتة الأعداء بها يوم مماتها، لكنَّه سَيُرْغِمُ أنوفَهُم التُّرابَ انتقامًا لها:

ولو لم تكوني بنتَ أكرمِ والدٍ لكانَ أباكِ الضَّخمَ كونُكِ لي أُمَّا
لَئِنْ لذَّ يومُ الشَّامِتِينَ بيومِها لقد وَلَدَتْ مِنِّي لأَنْفِهِمْ رَغْمَا

حتى قال عن قضيَّته التي كان يسأله الناس عنها:

يقولونَ لي ما أنتَ في كلِّ بلدةٍ وما تبتغي؟ **ما أبتغي جَلَّ أنْ يُسْمَى**

ما هو هذا الشيء الذي جلَّ أن يُسَمِّيه لهؤلاء السائلين؟ إنَّه ليس من قبيل الأشياء الاعتياديَّة التي يمكن أن يُفْصِحَ عنها المرء. نعم، لقد

كان ما يبتغيه أبو الطيّب أجلَّ من أن يسمّيه ويعيّنَه لمن كانوا يسألونه عن سِرِّ نَبْوَتِهِ وكبريائه وأنفته وعزّته. إنَّه أمرٌ جليل دونَه القتل. لهذا لم يذكره لهم، بل سينطوي على سرّه، ويَكْبِتَه في باطنه ويكتُمَه، وليسكن ذلك السرّ في سويداء قلبه:

وإنّي لَمِنْ قومٍ كأنَّ نُفوسهمْ بها أَنَفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحمَ والعَظْمَا

إنَّ هؤلاء السادة الأشراف الذين ينتسب إليهم أبو الطيّب لهم نفوس كريمة تأنف أن تسكن هذه الأجساد التي هي من لحمٍ وعظم، لأنَّها لا تهاب الموت ولا التضحيات الجِسام ولا تخشاها، بل تطلب المعالي التي دونها الحتف.

ومن بغداد انطلق أبو الطيّب مرَّةً أخرى إلى أنطاكية، ومنها إلى دمشق التي لم يُقِمْ بها إلَّا قليلًا، وجاز بعدها إلى طبريَّة سنة 336 للهجرة، بعد أن لم يَبْقَ ظِلُّ ابن كرّوس بها يتهدَّده ويتوعّده ويَكيدُ له. كان يتنقَّل من مكانٍ إلى مكان بعدما هَدَّ كِيانَه فَقْدُ جدَّته الصالحة التي كان لها الفضل في تربيته على قيم الشهامة والإباء والنخوة والكرامة والعزَّة وحبِّ العربيَّة.

وفي طبريَّة آوى عند أحد أصدقائه من ذوي النُّبْل والرِّياسة، واستجمّ عنده ممَّا أصابه من الحادثات التي تَذْوِي لها النفوسُ الأَبِيَّةُ كما تَذْوِي الزَّهرة حِينَ لَفْحِ أوَّلِ ريحٍ قائمة. وما كاد يطمئنُّ قليلًا حتى قامت عليه العلويَّة مرَّةً أخرى بعدما أصبح له أتباعٌ وأشياعٌ ينتصرون لشعره، ويناصفونه مذهبَه في السياسة، ويُغْرونَه بالقيام.

ظلَّ بمرأى ومَسْمَع من أعدائه متوجِّسًا مخافة أن يغتالوه. وبينما هو على تلك الحال، إذ كاتبه الأمير أبو محمَّد ابن طغج في الرَّمْلة لِيَقْدُمَ

عليه، وبلغ الخبرُ أعداءَ أبي الطيّب، فأرصدَ له شقِيٌّ يدَّعي نسبةً علويةً رَصَدًا من عبيدهم وغِلمانهم السُّود حتى يغتالوه. تربَّصوا به الدَّوائِر وكَمَنُوا له على الطَّريق الذي ظَنُّوا أنَّه سيسلكه إلى الرملة في «كَفْر عَاقِب» قربَ طبريَّة، لكنَّ أبا الطيّب بلغه كيدُ الدَّعِيّ فخالَفَ الطريقَ المعتاد الذي يسلكه السائر من طبريَّة إلى الرملة.

فلما جاز من ذلك المنقَلَب، ونجا من ذلك الكيْد، وأفلَتَ بِجِلْدِهِ من أمرٍ عظيم، فاضت نفسُه بهذا البلاء، فقال قبل أن يمدح ممدوحَه ابنَ طغج بما كان يعتمل في صدره من مشاعر، وأنشد مفتخرًا بنفسه:

فما لي وللدنيا طِلاَبِي نجومُها ومسعايَ منهافي شُدوقِ الأَراقِمِ
ومن عَرَفَ الأَيَّامَ معرفتي بها وبالنّاس روَّى رُمحَه غيرَ راحمِ

هكذا كان أبو الطيّب يصوِّر ما في نفسه، فيتغلَّب شرفُ الأصل عنده على المواضعات والمراتب الاجتماعيَّة التي كانت تفرض عليه أن يمدح ممدوحه أوَّلًا.

وتوجَّه السَّارد العليم سائلًا: وما بالُ شاعرٍ يُلقي مثلَ هذا الفخر أمام أميرٍ أيُّها الحكماء؟

لم ينتظر منهم جوابًا وأكمل: ليس لهذا تفسير إلَّا أنَّ أبا الطيّب كان مسكونًا بقضيَّته التي لم تُنْسِهِ أنَّه مِنْ أَشْرَفِ آباءٍ وأكرمِ جدود.

بقي أبو الطيّب في جوار ابن طغج مكرَّمًا معزَّزًا يصحبه في مجالسه وأسفاره، ويتفضَّل عليه الأمير من فضله حتى اطمأنَّت نفسُ أبي الطيّب إلى هذا الأمير العجميّ. وكان في مجلس ابن طغج صاحبٌ له من أشراف العلويِّين، فرأى الأميرُ أن يمدح أبو الطيّب صاحبَه الشَّريفَ المُنيفَ، ورغَّبه في ذلك وألحَّ عليه، لكنَّ أبا الطيّب كان يمانع مِنْ أثر

ما في نفسه على العلويَّة الذين أغمطوه حقَّه وتسبَّبوا في مآسيه وآلامه، لكنَّ أبا الطيِّب كان يعرف آداب المروءة والشَّهامة، ولا يستطيع أن يردَّ فضل الأمير بجفائه وامتناعه، فقال أبياتًا يمدح بها هذا الرجل الشريف القدر، أبا القاسم طاهر العلويّ، لكنَّه هاجم قبل ذلك العلويَّة الذين كادوا يغتالونه:

أتاني وعيد الأدعياء وأنَّهم ... أعدُّوا ليَ السُّودانَ في كَفْرِ عاقِبِ
ولو صدقوا في جَدِّهِمْ لحذَرْتُهُمْ ... فهلْ فِيَّ وحدِي قولُهُمْ غيرُ كاذبِ

يريد أنَّهم لو صدقوا في ادِّعاء نسبتهم إلى جدِّهم رسولِ اللَّه لصدَّقهم ولَحَذِرَ من وعيدهم، لكنَّهم كذَبوا في نسبهم.

ورغم هناءة العيشة في جوار ابن طغج إلَّا أنَّ أبا الطيِّب كان يروم أميرًا عربيًّا في سبيل بلوغ قضيَّته التي كان يناضل من أجلها. خرج من الرملة وقصد أنطاكية في جوار أمير حمدانيّ هو أبو العشائر، وفي طريقه هجا الأعورَ ابنَ كَيْغَلَغ الذي ظنَّ أنَّ أبا الطيِّب كسائر الشعراء يتكسَّب بشعره حينما طلب منه أن يمدحه، وجدَّ ابنُ كيغلغ في طلبه برجاله حتى يظفر به ليقتله، لكنَّه أفلت منهم إلى بعلبك، ومنها سار إلى دمشق فأنطاكية التي كانت تحت يد الحمدانيِّين، وكان بها الأمير أبو العشائر، الشاعر المجيد والفارس المغوار، المحبّ للعربيَّة والعرب والكاره لأعدائهم من الأمم الأعجميَّة التي كانت غاراتها متواصلة على البلاد العربيَّة ليُفرِّقوا شَمْلها بالكيْد والدَّسيسة والغدر. وجد أبو الطيِّب المتنبِّي ضالَّته التي كان يبحث عنها. كان يريد مثل هذا الجوار حتى يحقِّق مآربه وينتصر لقضيته. وكان قد عرف بني حمدان من قبلُ.

***

ورقّةُ وجهٍ لو خُتِمَتْ بنظرةٍ   على وجنتيْه ما انمحى أثَرُ الخَتْمِ

***

تابع السَّارد العليم قائلًا: مع الحمدانيّين وجد أبو الطيّب ضالَّته التي كان ينشدها، وقَوِيَتْ نفسُه في الانتصار على خصومه من العلويَّة المناوئة له، والأعاجم أعداء أمته، كان يفكّر في أن يؤسّس لمدينة الشعر والفتوَّة على غرار المدينة الفاضلة التي كان يحلم بها الفلاسفة، وكان يرى نفسه وجْهَ الشعر، وخَتْمَ الشعراء وخاتمتهم.

قال السَّارد العليم على لسان أبي الطيّب: كان المتنبّي أيُّها السادة الحكماء، إذا مدح أميرًا يبدأ بنفسه فيمجّدها ثمَّ يرسم صورةً عن الحياة ويقدِّم لنا صورةً أخرى عمَّا في نفسه من غليان، ويوالي كلّ ذلك بالتَّهديد والوعيد لمن يقف في طريقه. بَيْد أنَّه مع الحمدانيّين صار شاعرًا آخر لا يقدِّم مدحَ نفسِه على مدح ممدوحيه الحمدانيّين بل يوفّيهم حقّهم، بل لعلَّ مدحَهم والحديثَ عنهم كان كافيًا في قرارة الشاعر عن الحديث عن نفسه. لقد اتَّحدتْ ذاته مع ذوات ممدوحيه واختفت نفسه خلفهم، إلَّا حينما يسعى السَّاعون بينه وبين ممدوحيه فتراه يضطرُّ إلى هذا الفصل الذي لم يأت بَدَهِيًّا ولا طَبَعِيًّا[1]، بل أملاه الحرصُ على عدم إفسادِ ما بينه وبين أصحابه الحمدانيّين، واتّقاءً لما قد يسبّبه ذلك من شَرٍّ بينه وبينهم.

---

(1) النسبة من بديهة وطبيعة: بدهيّ وطبعيّ، وهو أفصح من بديهيّ وطبيعيّ، مثلما نقول مدنيّ ولا نقول مدينيّ في المنتسب إلى «المدينة»، وصحفيّ من صحيفة، باستثناء سليقيّ، كما جاء في ألفية ابن مالك: «وفَعَلِيٌّ في فعيلة التُزِمْ... وشذَّ قولهم في سليقة سليقيّ».

بدأت السّعاية تقوى يومًا بعد يوم بين أبي الطيّب وأبي العشائر، لكنَّ الأمير صَمَّ أذنيْه عنها، ولم يزدَد إلّا عنايةً بأبي الطيّب وإكرامًا له لمّا رأى أنَّه الشّاعر حقًّا، ومَنْ دُونَهُ عِيالٌ عليه. كان أبو الطيّب لا يرضى من المنزلة إلّا ما يجعله يَشُفُّ على الجميع، فتسبَّبَ في قطع أرزاق الشعراء المتكسّبين المتحلّقين حول الأمير. لم يكن يعنيه ذلك الأمر، فهو لم يمدح ليتكسَّب وإنّما يتكلّم الشّعر لأنه يخلّد ذكرَه وذكرَ صاحبه في العالمين. كان يعلم علم اليقين أنَّه بيانٌ فوقَ البيان، وأنَّ لسانَ العربية لم يطاوع شاعرًا مثلما طاوعه، فلكأنّما قد اتَّحَدَ فيه اللّسانُ والبيانُ مع الإنسان. لقد صارت العربيةُ وطنَ أبي الطيّب وبلاده التي يتملّكها تملُّكًا كاملًا لا يبلغه غيره.

وممَّا عزَّز من موقعه عند أبي العشائر كتابٌ وصل من سيف الدولة يوصي فيه أبا العشائر بالعناية بهذا الشاعر الفَذّ. كان سيف الدولة يعلم قدرَ أبي الطيب، ويعلم أنَّه فَلْتَةٌ من الزمان، وكان يرغب أن يصاحبه، ويذكر أوَّل مرَّةٍ التقى به وهما في ريعان الصِّبَا وفَوْرَةِ الشَّباب سنة 321، فأُعجبَ بهذا الفتى العربيّ الثائر، صبوحِ الوجه حَسَنِ السَّمت، صاحب الفَرْوَةِ المسترْسلَة. كان يريد أن يكون لهذه الإمارة العربيَّة شاعرٌ يخلّد ذكرَها، ولسانٌ يُؤَثِّلُ مجدَها. كان سيف الدولة أميرًا استثنائيًّا، وكان أبو الطيّب شاعرًا استثنائيًّا، فَهَلاَّ اجتمع استثناء الملك والإمارة إلى استثناء الشعر والعبارة؟

وما لبث سيف الدولة أن قَدِمَ إلى أنطاكية، وكانت سمعة الرجليْن قد طارت في الآفاق، فعرف كلُّ واحدٍ صاحبه، وأدركا أنَّ اجتماعهما لا يأتي به زمان، فَسَكَنَ الوِتْرُ لمثلِه، واهتبَلَ به. وطلب سيف الدولة من أبي الطيّب أن يصحبه ويمدحه، فاشترط الشاعر المشاكس شروطًا لا

يشترطها الشُّعراء على الأمراء، لكنَّ أبا الطيِّب لم يكن شاعرًا فحسب، بل كانت له نفسُ الملوك وحالة الشعراء. كان شاعرًا في الظاهر، أميرًا وسيِّدًا في الباطن. كان ظاهرُ حالِه قُوَّةَ الشِّعر، وكان باطنُ ما في نفسه عِزَّةَ الأَمْر. قلبٌ كبير ونفسٌ عزيزة، وروحٌ تُطاول الدهور، وشِعْرٌ يَصُكّ ويَفُتّ، ويُدْمي وَيُبَلْسِم. مثلُ هذا في الوجود عزيز.

اشترط أبو الطيِّب على سيف الدولة أن لا يُقبِّل الأرض بين يديْه، وأن لا ينشده الشعر إلَّا وهو قاعد على خلاف الأعراف السَّائدة، فَقَبِلَ سيف الدولة اشتراطاته لأنَّه كان يعلم منزلةَ أبي الطيِّب. من كان بهذه النَّفْس التي تُطاول الجبال عُلُوًّا في السماء لا يمكنه أن يضع نفسَه في مرتبة غيره من الشُّعراء الذين رضوا بالتكسُّب من الشعر. وقد أنشد أبو الطيِّب في ذلك:

فَسِرْتُ إليكَ في طلب المعالي وسارَ سِوايَ في طلبِ المعاشِ

كان الأصلُ الشريف وقُوَّةُ جَنان أبي الطيِّب وشعورُه المرهَف بفرادته يمنَعه من أن يكون قُلَّةً بين القِلال، أو بُوقًا من الأبواق. قَبِلَ سيف الدولة شروطَ هذا الفتى العربيّ الشاعر الذي يشترط اشتراطات الملوك على الملوك، لأنَّ سيف الدولة كان أيضًا فَتَى فتيانِ أمراء العرب، وكان يُمَنِّي النَّفس بالظَّفر بمصاحبة أبي الطيِّب لتخليد اسمه في العالمين، وكذلك كان.

بقي سيف الدولة في أنطاكية، وبقي أبو الطيِّب مصاحبًا له ومنادمًا يخرج معه للفروسيَّة والطِّراد والمثاقفة، وينشده الشعر، حتى إذا أزمع سيف الدولة العودة إلى عاصمة ملكه في حلب طلب من أبي الطيب أن يصحبه، وعزم عليه في ذلك، لكنَّ الشاعر كعادته تأبَّى على الأمير، ولم تكن إبايةَ سُخْفٍ وترفُّع، بل بقي ينتظر وَضْعَ زوجته التي كانت حاملًا في شهورها الأخيرة.

غادر سيف الدولة إلى حلب مؤمِّلًا لحوقَ أبي الطيِّب به بعد وَضْعِ زوجته التي جاءها المخاض إلَّا أنَّها أَعْضَلَتْ وعَسُرَ عليها الوضع فمرِضَتْ حتى رَمَتْ ما في بطنها ثمَّ ماتت. جاء هذا الوليد خِداجًا، فلم يمضِ عليه وقت قصير حتى مات ولحق بأمه. حزن أبو الطيِّب على مصابه، وتقوَّى قلبه على مغادرة أنطاكية التي شهد فيها هذه المعاناة وتلك المأساة، فانتقل الأب إلى حلب مع ابنه محسّد.

وفي حلب الشهباء، درَّ هذا الضَّرْعُ الشَّامي بما أثَّله من القول المبين هذا الشاعر الذي لم تُنْجِب النساءُ مِثلَه شاعرًا من قبله ولا من بعده. وكأنَّ البيانَ في هذا اللِّسان العربيّ لا يخرج عن بيت النبوَّة، فيظهر في الفرع أَثَرُ ما كان في الأصل.

في لقاء سيف الدولة والمتنبّي تفجَّرتْ قريحةُ أبي الطيِّب وتفاسَحَتْ نفسُه بالحكمة الخالدة، حيث وجد في هذا الجوار السَّمْح الأَبِيّ ما رَدَّ عاديةَ الأعاجم عن بلاد العرب، وما استرجع به من كرامة في نَسَبه المنكوب. ومنذ البداية، يُعَرِّضُ أبو الطيِّب بشعراء وشعر ديوان سيف الدولة، إذ لا يعدو أن يكون مثل قول طِمْطِمٍ أو طماطمة لا فصاحةَ عندهم ولا بيان، بل هم إلى العيِّ والحَصَرِ يُنْسَبون:

غضبتُ له لَمَّا رأيتُ صِفاتِهِ بلا واصفٍ والشِّعْرُ تَهْذي طَمَاطِمُهْ

لقد كانت هذه النفس الكبيرة تنطلق كالعاصفة الهوجاء من قلبه إلى لسانه فَتُفرِغُ أحاسيسَها في لحظةٍ شاردةٍ مُركَّزَةٍ تنضَحُ بالبيان، وكانت مواضع الانتقال في شعر أبي الطيِّب هي الزِّمّامُ الذي يستأنس به الداخل إلى أعماق هذه النفس ليستجلي عواطفَها الكامنة.

استصفى سيفُ الدولة أبا الطيّب، وصار مقدَّمًا عنده على غيره من أصفيائه لَمَّا وجد فيه ما يملأُ العين من النبوغ والذَّهاء والسياسة العربيَّة التي كان سيف الدولة يتزعَّمها ويُرْسِي أُسُسَها. كما أنَّ سياسة الإمارة الحمدانيَّة مع العلويِّين جعلتهم يَدْعُونَ إلى مناصرة العلويَّة من أجل النسبة العربيَّة، لمَّا كانت الغلبة للأعاجم على الدولة العباسيَّة. لكنْ لمَّا دخل فسادٌ كبير على العلويِّين بدخول الأعاجم فيهم، أو من فساد الخلافة الفاطميَّة التي كانوا لا يُقِرُّونَها على ادِّعائها النِّسْبَةَ الفاطميَّة، عادوا إلى نصرة الخلافة العباسيَّة مع المحافظة على تعظيمهم للعلويِّين وإكرامهم لهم. كان التوفيق بين الولاء للعقيدة العلويَّة ونصرة السياسة العباسيَّة بتخليصها من سلطان الموالي يدلُّ على دهاءٍ كبير من سيف الدولة الحمدانيّ. وهذا ممَّا قرَّب بين الرجليْن لتوافقهما في المذهب السياسيّ على الولاء للعروبة وتوحيد شمل البلاد العربيَّة، والولاء لآل البيت النبويّ الشريف، وتخليص العلويَّة من سلطان الأعاجم والموالي. وها هو أبو الطيّب يخاطب سيف الدولة، ويُبِينُ عن دهاءٍ سياسيّ كبير، ومعرفةٍ بأسرار السياسة من أجل إعادة مجد الدولة العربية حيث يُصوِّرُ لسيف الدولة أنَّه يحارب على جبهتيْن، في شمال الشام ضدّ الروم الحقيقيِّين، وفي العراق ضدّ الأعاجم المستولين على الحكم فيه؛ كما يصوِّر لممدوحِه عجمَ العراق على أنَّهم رُومٌ أيضًا لتحالفهم مع مَلِك الروم ودفعِه لحرب سيف الدولة في الشام من أجل استنزاف جيش الحمدانيِّين في جبهة الروم الشماليَّة حتى يترك لهؤلاء الأعاجم جبهة العراق التي خلفه:

أنت طولَ الحياة للروم غازٍ فمتى الوعد أن يكونَ القُفولُ
وسوى الرُّومِ خلف ظهرِكَ رُومٌ فعلى أيِّ جانبيكَ تميلُ

* * *

ثمَّ قال السَّارد العليم: أيُّها الحكماء، لقد كان استصفاء سيف الدولة لأبي الطيِّب سببًا في جعل قضيَّته تتسامى من مجرَّد المطالبة بالثأر في إحقاق نسبه العلويّ إلى قضيَّة إحقاق حق العرب وإعادة مجد دولتهم. وكانت الآمال المستخلصة والآلام المعتصرة من هاتيْن القضيَّتيْن في نفس أبي الطيب قد جعلته يولِّدُ من أحاسيسه خلاصةَ شعره وعصارةَ معانيه.مكتبة .. سُر مَن قرأ

لكنَّ الذي سيعطي فورةً جديدة لشعر أبي الطيِّب هو شيءٌ جديد سيعرفه في حلب، وهو تجربة الحبّ لأوَّل مرَّة، وسيتسامى بهذا الحبِّ إلى غاية الغايات، بَيْد أنَّه سيصطدم بعدم قدرته على الإفصاح عن حبِّه هذا. وبسبب كَتْمِ هذا الحب وكَبْتِه في نفسه سيتحوَّل شعر أبي الطيِّب إلى الغزل ليجعلَ منه مادةً لحكمته.

لقد اعتمد أبو الطيِّب في توليد معاني شعره عمَّا يجيش في نفسه وما يضطرم فيها من مشاعرَ متباينة بين الفرح والألم، فتراه يرتفع بكلِّ ذلك من مجرَّد التجربة الشخصيَّة ليصنع منه مادةً للحالة الإنسانيَّة في مجملها. ورغم كلّ هذه التوليدات، فقد بقي في تفجُّر هذا البيان الشعريّ عند أبي الطيِّب كي يبلغ غايته أن يخوض الشاعر تجربة الحبّ في عنفوانها. وكما عوَّدنا أبو الطيِّب أنَّه لا يطلب إلَّا معالي الأمور، فإنَّه لم يكتفِ بأن يحبَّ امرأةً عاديَّة من عامَّة الناس بل أحبَّ امرأةً هي من سيِّدات نساء العرب وقتئذٍ. اصطدم كبرياء أبي الطيِّب بالخضوع لحب هذه المرأة، فصارت ذاته ذاتًا مكتملة بهذا الحبّ الأنثويّ الكاسح. ولم يَعُدْ يرى الحياة إلَّا بعين هذا الحبّ في كلِّ ما نزل به بعد أن كان محصورًا في عشق نفسه. لقد تسلَّلت الرقَّة إلى شعر أبي الطيِّب بعد أن كان شعره ينضح بقوَّةٍ كاسرة وفحولةٍ غالبة.

وأعلمُ أن البينَ يُشْكِيكَ بَعْدَهُ فلستَ فؤادي إن رأيتُكَ شاكِيا
فإنَّ دموعَ العين غُدْرٌ بربِّها إذا كُنَّ إثْرَ الغادرينَ جوارِيَا

ثمَّ سكت السارد العليم عن الكلام، وتلاشى شخصُ الطَّيف عن الأعين حتى لم يعد له أثرٌ ولا خبر، وارتفع شبحُ أبي الطيِّب لِيُمْسِكَ زمامَ القول من حيث انتهى كلامُ السَّارد العليم.

* * *

تكلَّم أبو الطيِّب وقال: أيُّها السادة الحكماء، عند هذا الحد سمحتُ لهذا الطَّيف من مدينة المُثُل أن يحدِّثكم عن سيرتي مِمَّا آنَفُ أن أفخرَ به عليكم، لكنِّي أَبَيْتُ إلَّا أن أتكلَّمَ أمامكم على قضيَّة لا تحتمل التَّفويضَ ولا النيابة، إنَّها قضيَّةُ الحبّ. وسأكون كاذبًا إن تركتُ غيري يتكلَّم بالوكالة على هذه القضيَّة الثالثة، فلتسمحوا لي أن أُواصِلَ معكم من حيث انتهى صديقُنا السَّارد العليم الذي عاد إلى عالم الـمُثُل.

ثمَّ وجَّه كلامه لأبي نصر خاصة، فقال: سأترك هذا الطَّيْف الذي جرَّدْتُه من ذاتي يعود إلى عالم المُثُل حتى يلحق بأفلاطون وحكماء يونان.

تنفَّس أبو الطيِّب طويلًا واستجمع شجاعته، ثمَّ قال بدون مقدِّمات:

أحببتُ خولة أختَ سيف الدولة، ولم أكن أملك أن أُصرِّحَ بهذا الحبّ. كانت تتحايلُ في دعوتي إلى القصر، فأتحايلُ في أن ألتقي بها وأجلسَ إليها، وتُكاشفني عمَّا في نفسها وأُكاشِفُها عمَّا في نفسي. كانت تتذرَّع بأن تسمعَ من شعري، فكنتُ أجعلُه سفيرَ الحبِّ بيننا، وتقوَّتْ آصرةُ ذلك الحبِّ بيننا حتى نسيتُ أنَّ بين حُبِّنا جبالًا من المنع والتَّحرُّزِ لم أُلْقِ لها بالًا في بداية أمر هذا الحبّ، ثمَّ وجدتُني بعد ذلك

أحاولُ أن أصطنعَ لنا مخرجًا حتى لا أُورّطَ خولةَ معي في أمرٍ يمنع ما يجمع بيننا، ويحرمنا من اللّقاء.

وقد فَطِنَ سيف الدولة إلى ما بيني وبين أخته خولة، وأدرك ما في شعري من تلويحات ورسائل، **حين جعلتُ القصدَ إليها من طريق القصدِ إليه**، وتغزّلت بها في طيِّ مدحي له. ولم يكن مثل هذا لِيَمُرّ على أميرٍ ضليعٍ في العربيَّة، وحوله من الشُّعراء واللغويِّين وأصحاب العلوم مِمَّن لا تفوتهم مثل تلك التلويحات على دقَّتها وخفائها، بل كان لهم من البراعة في لحن القول في توريط الأبرياء بَلْهَ المُتلبِّسين بمثل هذا الجُرْم، والسَّعاية في كشف المستور، وإظهار المضمر، وفضح ما استتر. لقد كان الطريق إلى الغزل بخولةَ يسلك على طريقٍ غير سابلةٍ لمدح أخيها سيف الدولة، وهذا المدح الغزليّ من أصعب أنواع الشعر، وهو الذي يَسَّرَ لي الطريق للمدح الهجائيّ فيما بعد مع كافور.

أيُّها الأماثل، إنَّ قولَ أمرٍ في ثنايا أمرٍ آخر لَمِنْ أعقدِ السُّبل، لكنِّي كنت مُجْبَرًا على سلوك هذا الطريق الذي لَمْ يُفلح فيه أحدٌ مثلما أفلحت. وإنَّ إكراهات الحياة قد دفعتني إلى شقِّ هذا السبيل على غير مثالٍ مسبوق، فاعرفوا قَدْرَ ذلك وقدِّروا حالَ امرئٍ يقول شيئًا في تلابيبِ قولِه لشيءٍ آخر. إنَّ الحبَّ يفعل الأفاعيل، وإنَّ التَّكَتُّمَ عليه يَفْسَح في العبارة ما لا يفسحه التصريح، لكنَّ العاشق مهما أبدع في أمره من أفانين الشعر والقول، قد تَخونُه خَطْرة هنا أو رقَّةٌ هناك. ففتِّشوا بين تضاعيف الكلام لعلَّكم تجدون مدخلًا مكتنفًا وحِرزًا منيعًا لباطن النَّفس وحَبَّةِ الفؤاد.

سكت أبو الطيِّب قليلًا ليترك لأهل هذا المجلس فرصةَ التأمُّل في كلامه وتقدير أبعاده.

ثمَّ واصل كلامه قائلًا: ولَمَّا لم يكن من الأمر بُدٌّ، سألت سيف الدولة أن يزوِّجني خولة فوعد خيرًا واستَأْنَاني، ثمَّ تداعى هذا الكلام إلى أبي فراس الحمدانيّ، فأنماه إلى قومه من الحمدانيِّين، وأشعل غيرتهم، وتأبَّى عليهم أن يطلب شاعرٌ تيَّاه أفضلَ نسائِهم. ولم يعلم أبو فراس، وما كان له أن يعلم، أنِّي ابنُ الأكرمين، وأنَّ مصاهرتي من أعظمِ القربات وأفخرِ المفاخر. كان في نفس أبي فراس شيءٌ من الغيرة والحسد لما كان يخصُّني به سيف الدولة من التشريف والتقديم الذي كان يوغر صدور أعدائي. تألَّبَ آلُ حمدان عليَّ وشبَّت نار العداوة حولي، وتجاسر قومٌ عليّ وأنا أَكتُمُ أمري وأستَذِلُّ لهم لَمَّا تقيَّد قلبي بِوَلَهِ خولة، فعند كلّ عاشق ذِلَّةٌ يستذل بها العاشقون، بل لعلَّهم يطلبونها تقرُّبًا للحبيب وفداءً له، وإلَّا فالحُبّ عزيز، وإنَّما دَخَلت الذِّلَّة على العاشقين من تذلُّلهم لعزَّة الحُبّ ودخولهم تحت قهر سلطانه.

لقد بقيت أتلذَّعُ بآلام هذا الحبّ الذي لا أستوفيه ولا يستوفيني تِسْعَةَ أعوام من الحرمان الذي تنفرج بها اختلاساتٌ يتيمة عند لقائي بخولة، كانت هي الدواء الذي يُبَلْسِمُ جراحات قلبي من كتمان هذا الحبّ. وسوّفني سيف الدولة ولم يُنْجِزْ عِدَتَه لي حتى أدركني اليأس من ذلك. وبعد أن نمى خبرُ هذا الحبّ إلى أعدائي صرتُ مَدْعاةً لكلّ تهمةٍ وانتقاد، وتطاول المتشاعرون الذين قطعتُ أرزاقَهم في بلاط سيف الدولة عليّ بإمرةٍ من بعض الحمدانيِّين كأبي فراس وأبي العشائر الذين ثارت ثائرتهم لهذا الحبّ.

ثمَّ كادني رجال أبي فراس ذات يوم بعد خروجي من مجلس سيف الدولة، وأرسلوا رجالًا يترصَّدون بي عند باب القصر، لكنِّي أشهرت سيفي في وجههم فلم يُقدِموا عليّ. فلمَّا علم أبو العشائر بما

جرى أغرى بي بعض غلمانه، فوقفوا لي في باب القصر مرَّةً أخرى، فاشتبكتُ معهم، ثمَّ عدوتُ بفرسي حتى استدرجتهم إلى ظاهر حلب، فرموني بسهامهم، فأصاب سهمٌ نَحْرَ فرسي فنزعته، ثمَّ كَرَرْتُ عليهم لَمَّا أَفْنَوْا سهامهم حتى يئسوا منِّي، وانتسب أحدهم، فأخبرني بأنَّهم غلمان أبي العشائر؛ ورغم كلّ هذا البأس والعداوة، فقد أرسلت لأبي العشائر قصيدة قلت فيها معتذرًا عنه:

ومنتسبٍ عندي إلى من أُحِبُّه ... وللنَّبْلِ حولي مِن يديه حَفيفُ
فهيَّجَ من شوقي وما من مذلَّةٍ ... حَنَنْتُ ولكنَّ الكريمَ أَلُوفُ
وكلُّ ودادٍ لا يدوم على الأذى ... دوامَ ودادي للحسين ضعيفُ
فإن يَكنِ الفعلُ الذي ساءواحدًا ... فأفعالُه اللائي سَرَرْنَ أُلوفُ
ونفسي له، نفسي الفداءُ له ... ولكنَّ بعض المالكينَ عنيفُ
فإن كان يبغي قتلَها يَكُ قاتلًا ... بكفَّيْهِ فالقتلُ الشَّريفُ شَريفُ

قلت هذه الأبيات حبًّا في الرجل الذي أكرمني من قبل رغم أنَّه اليوم يسعى إلى قتلي غيرةً منه على حرمة خولة، لكنِّي إنسانٌ أَلوف لا أغدر ولا أتنكَّر لمن أحببت. إنَّها التَّضحية بالنَّفس التي تدفع الإنسان أن يقبل الحتف في سبيل حُبِّه، لكنَّه لا يرضاه إلَّا شريفًا ساميًا.

بعد أن وصل الأمر إلى حَدِّ قتلي، وما تعاقب عليّ من حرمان وما تلذّعتُ به من آلامٍ وأحزان، قرَّرتُ الرحيل، وأزمعتُ البيْن عن نجلاءِ العَيْن قبل أن تسري نارٌ تحرقني وتحرق حِبِّي.

خرجت قاصدًا دمشق سنة 346، وقد رُزئتُ في حبِّي ورزئت في ما كنت أؤمِّله من سيف الدولة من آمالٍ سياسيَّة، وانقلبتُ محزونًا مشجونًا ضجِرًا بالحياة، فلقيني رجلٌ يهوديٌّ من قِبَل كافور، اسمه ابن

مَلَك، ثقيلُ الظِّلّ تسامت به نفسُه فوق رتبَتِها إلى حدّ أَنْ طَلَبَ منّي أن أمدَحه، فغثَّتْ نفسي من هذا البلاء فعالجتها بالتَّهاون عنه والازدراء له والتَّغَافُل عن قبيح طلبه. وليْتَ الأمور بقيت عند هذا الحدّ، فقد غضب هذا السَّخيف وكادني مع كافور، وكتب له أنّي قلت عن كافور «لا أقصد العبدَ، وإن دخلتُ مصر فما قصدي إلّا ابنُ سيِّدِه».

ثمَّ قصدت الرملة عند صديقي ابن طغج، وكان عاملًا من قِبَلِ كافور عليها، فوصلَتْ كُتُبُ كافور إلى ابن طغج في طلبي فرغَّبني صديقي في الذهاب إلى مصر، وتعسَّرتُ عليه وتبرَّمتُ من مشقَّة الطريق. فلمَّا أعياني إلحاحه أجبته لما طلب، وخرجت إلى مصر، فبالغ كافور في إكرامي ولم أمدحه، حتى إذا لم أجد بُدًّا من ذلك مدحته بعد أن قيَّدني إحسانه فتقيَّدت، وكنت أرجو أن أظفرَ عنده بولايةٍ من الولايات أُحَقِّقُ فيها حلم المدينة الفاضلة التي كنت أسعى لحكمها. وكان شعري يفضح ما كنت أشعر به إزاء كافور:

أُغالِبُ فيك الشَّوقَ والشَّوقُ أغلبُ وأعجبُ من ذا الهجر، والوصل أعجبُ

فشكوى الهجر والشَّوق موجَّهة لسيف الدولة، وتعجُّبُ الوصل كانت تصف حالَ قربي من كافور على كرهي لمدحه، وقد كان كافور يحبُّ الأدب ومعه مِنْ أعدائي مَنْ يُبَصِّره بما في شعري من تضمينات، وليس يخفى عليه ما سعيْت في إخفائه.

لقد كنت كارهًا مدحَ كافور بكلِّ كياني، ولست أرى في ذلك شرفًا، وبلغ من استخفافي به أني كنت أُضَمِّنُ في شعري تهكُّمًا لا يخفى على كلِّ ذي بصر، وكلّ أعدائي من أنصار الفاطميِّين لا يتأخَّرون عن تبصير كافور بذلك:

مَنْ لِبيضِ الملوكِ أن تُبدِلَ اللَّوْ نَ بلون الأستاذ والسَّحناء

ثمَّ بَرِمْتُ من المقام بمصر في جوار كافور بعدما سوَّفني فيما كنت أؤمل منه من إقطاعي ولايةً من الولايات التي تحت حكمه، وعزَمْتُ الرحلةَ عن مصر بعدما شدَّد عليّ الخناق.

فلمَّا كان يوم عرفة عام 350، اغتنمت فرصة انشغال كافور ورجاله بالاستعداد للعيد، فخرجت تلك اللَّيلة أطوي الأرض طيًّا مُفْلِتًا بجلدي من هذا الجوار الثقيل. حلَّ العيد وأنا شريدٌ طريد، فقلت:

عيدٌ بأيَّةِ حالٍ عُدتَ يا عيدُ بما مضى أم لأمرٍ فيكَ تجديدُ

حتى قلت:

يا ساقِيَيَّ أخَمْرٌ في كؤوسكما أم في كؤوسكُما هَمٌّ وتسهيدُ
أصخرةٌ أنا؟ مالي لا تُحرِّكُني هذِي المُدامُ ولا هذي الأغاريدُ

خرجت أطوي المراحل مع رجالي هربًا من كافور الذي كاتب عُمَّالَه في الولايات للقبض عليّ، ولم أكن أعلم نحو أيِّ وجهةٍ أَسير، ولعلِّي كنتُ أُزمِع الذهاب إلى المدينة المنوَّرة، أو أقصد بلاد نجد، أو لعلِّي أريد العراق. كان هدفي الآني هو أن أفْلِتَ من كافور وزبانيَّته لمَّا استهنت به وتهكَّمت عليه. وأخيرًا، عزمت أن أرجع إلى مسقط رأسي في الكوفة. وقد كنت مُنعتُ منها فيما مضى لمَّا ماتت جدَّتي، لكنِّي استطعت اليوم دخولها في شهر ربيع الأوَّل من سنة 351 للهجرة. أقمت بها أشهرًا ثمَّ قصدت بغداد، وأقمت عند صديقٍ لي هو علي بن حمزة البصريّ، وقد أحفظ نزولي عنده رجالاتِ الدولة لمَّا كان يرغبون في أن أشرِّفهم بالنزول عندهم وامتداحهم. وهو الأمر الذي كان قلبي لا يطاوعني عليه. وقصدني رجالٌ من أصحاب الوزير المهلَّبيّ وأطمعوني

في مدحه، فتأبَّيتُ عليهم لِمَا كان في نفسي من الازدراء لهؤلاء الأعاجم حتى طمعوا في أن أُسَخِّرَ شعري في مدحهم. ولم يكن هذا التَّأبّي لِيَمُرَّ سالِمًا، فقد نَقِمَ عليّ الوزيرُ ورجالُه وسلَّط عليَّ بعض المتشاعرين من رُوّاد مجلسه، وأغراهم بهجائي، فتسابقوا إلى صناعة البهتان، وسِبَاكَة أَقْذَعِ الشتائم، وقد كان حرَّضهم على الوقيعة بي فتكلَّموا في نسبي وأشاعوا أنّي ابن سَقّاء، ولم تُستعلن هذه الشتيمة إلَّا في هذا الوقت في مجلس المهلَّبيّ ببغداد:

أَرى المتشاعرينَ غَرُوا بِذَمّي ومن ذا يَحْمَدُ الدّاءَ العُضالا
ومن يكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مريضٍ يَجِدْ مُرًّا به الماءَ الزُّلالا

كانت عداوتي لِبَنِي بُوَيْهٍ غير خافية، لأنّي كنت حافظًا لِوُدِّ عَدوّهِم سيفِ الدولة الحمدانيّ. ثمَّ لم يقف الأمر عند هذا الحدّ، فامتنعتُ عن مدح الخليفة العباسيّ ومعزِّ الدولة الديلميّ العلويّ الفاطميّ، ووزيره المهلَّبيّ. اجتمع عليّ الأعداء من المتشاعرين وصُنَّاع التراجم والحُكّام، وأنا غيرُ حافلٍ بحِلفهم، مستهينٌ بهم وبمكائدهم وعداواتهم. وبدأت الروايات عنّي وعن دعوى النبوَّة تظهر في هذا الوقت بالذات. كما شكَّكوا في نَسَبي، ونسبوني إلى سقّاء. بل لقد بلغ الكذب مبلغه حين ذكروا أنَّه كان في محلَّة كِندة في الكوفة ثلاثة آلاف سقَّاء. ومن يصدِّق هذا الكذب الصُّراح البليد؟

لقد كانوا يتخيَّلون أنّي سقَّاءٌ وابنُ سقَّاء وابنُ ابنِ سقَّاء، وجارنا سقَّاء، وجارُ جارِنا سقّاء إلى آخر سُكَّان تلك المحلَّة، فلا حول ولا قوَّة إلَّا باللَّه العليّ العظيم. هكذا هم حَفَدة المجوس من الأعاجم يكذبون حتى يصدِّقوا كذبهم. وكلّ ذلك سببه أنّي رفضت أن أُسخِّرَ شعري في مدح الأعاجم ومسايرتهم في سياستهم. ولم يكتفوا بذلك،

بل أكثروا من وضع الأخبار الزائفة، والأسانيد المصنوعة والتَّخاريف الباردة المستثقلة، فاتَّهموني بالبخل وحُبِّ المال والجهل بالدِّين، وما سوى ذلك من الأكاذيب التي لا يُصَدِّقُها إلَّا السُّذَّج والنَّوْكَى ومَرْضَى النُّفوس والحاقدون.

تجمَّع حولي الأصحاب في بيت صديقي، فكنت أقرأ لهم ديواني. ولمَّا ثقل عليَّ الأمر في بغداد عدت إلى الكوفة مرَّةً أخرى، وبقيت بها سنتين. وهنا بلغني وفاةُ خولةَ فَوَجِدْتُ عليها وَجْدًا عظيمًا، وتجدَّد ما في قلبي من الأحزان والأتراح. وأظلمَتِ الدنيا في عينيَّ وتاقت نفسي لِلِّحاقِ بها. ولم يعد يربطني بالحياة أيُّ رباط، وأَيِسْتُ من كلِّ شيء وعزفتُ عن كلِّ شيء.

ثمَّ جاءني وأنا أنازع هذه الأهوال كتابٌ من سيف الدولة يذكر لي فيه تمنُّعَ العراق على الفتح، وطَفِقَتْ نفسي تتردَّدُ في اللِّحاق وتجديد العهد برفقته، وبين ما قد يسبِّبه ذلك من أحزان وأسقام من ذكرى الحبيب في كلِّ منعطفٍ وعند كلِّ ثنيَّةٍ وخَلْفَ كلِّ ستارةٍ ووراء كل جدار، وتحت كل قُبَّةٍ، وعلى توقيع نغمات أوتار مِزْهَر، وبين مماشي الحدائق ونوَّار البنفسج وعَرْف الأقحوان. كنت أخشى أن يذكِّرَني كل هذا ذكرى الحبيب، ومَنْ بالقلب ساكنٌ مُقيم، فلم أجد بدًّا من أن أهيم على وجهي في بلاد اللَّـه حتى أنسى ما لحق بي وما أصابني من فقد خولة.

فقال لي أبو عبد اللَّـه الترمذيّ: يا أبا الطيِّب، لقد تعذَّبت وتلظَّيْت وتلذَّعت وتلوَّعتَ بحبِّك لخولة وحرمانك منها، وهذه ربَّة الحسن صاحبة الناي تنظر إليك منذ بدأتَ حديثَك عن خولة وهي تكاد تنحَلُّ من

الشوق وتذوب من الحب، فهلاَّ رحِمْتَها وقَبِلْتَهَا ولَقَّنْتَها من بديع شعرك حتى تعزفه وتُغَنِّيه؟

تهلَّلَتْ أساريري، وكانت رَبَّةُ الحُسن تشبه خولةَ في جمالها، أَنْضَرُ من الورد وَأَزْكَى من الياسمين، إقبالها فتنة، وإدبارها سِحْر، تتكسَّرُ في مِشيَتِها فيتولَّعُ قلبُ الولهان، تقتل من غير إشهار سلاح. دُرَّةٌ مكنونة، لطيفة القدميْن والخصريْن، رَخْصَةُ البَنَان، شَنْبَاءُ الثَّغر، رخيمةُ الصَّوت، بَضَّةٌ ناعمة، دعجاءُ العينين، فاتِرة الألحاظ، عربيَّةٌ خالصة.

فقلت: وهل هي راضية يا أبا عبد اللَّه؟

فقالت ربَّة الحسن وصاحبة الناي: يا نايَ الشعراء وقيثارة البلغاء والحُكماء، خَلِّ عنك حديثَ خولة وخذني في هذه الجولة، وسترى منِّي ما يَسُرُّك ويُعَوِّضُ عنك ما فاتك من حُبٍّ مستحيل.

ثمَّ قامت نحوي وجلستْ بجانبي، فأمسكتُ بطَرْفِ كَفِّها فكان ما كان من توافقٍ وانجذاب، فتمغنَطَتْ روحي نحو روحها.

وبعد أن استقرَّت بجانبي ولزمَتْ ملتزمي، قال لي أبو عبد اللَّه الترمذيّ: الآن وقد اكتمل سعدُك، أكمِلْ حديثَك، وأخبرنا عمَّا حصل لك.

فقلتُ: ثمَّ قصدت بغداد، فجاءني كتابٌ من أبي الفضل ابن العميد وهو مَنْ هُوَ في العلم والأدب والفضل، ولو أنَّه من الأعاجم. وقد رغب إليَّ في الحضور إليه بأرَّجَان، لأنَّه كان يطمح إلى تخليد اسمه بشعري بعد أن خلَّد اسمه في ديوان البلغاء والأدباء والحكماء.

قصدته في شهر صفر سنة 354، فلما دخلت عليه، قال لي: «كنتُ مشتاقًا إليك يا أبا الطيِّب». فلمَّا عرفتُ فَضْلَه، قلت:

مَنْ مُبْلِغ الأعرابَ أَنّي بعدَها جالستُ رِسْطاليسَ والإسْكَنْدَرا
وسمعتُ بطْلَيْموسَ دَارِسَ كُتْبِهِ مُتملِّكًا مُتبدِّيًا متحضّرا
ولَقيتُ كلَّ الفاضلينَ كأنّما ردَّ الإلهُ نُفوسَهمْ والأَعْصُرَا

بقيت رفقة ابن العميد شهريْن ويزيد، ثمَّ ودَّعته لمَّا وصلني كتاب من عضد الدولة بشيراز يطلب منّي المجيء إلى حاضرة ملكه. لم أكن أرغب في السفر إليه، لكنَّ ابن العميد أَلَحَّ عليَّ في ذلك، فقلت له: «ما لي وللدَّيْلَم؟»

فقال ابن العميد: «عضد الدولة أفضل منّي، ويصلك بأضعاف ما وصلتُكَ به».

فقلتُ له: «إنّي مُلَقًّى من هؤلاء الملوك، أقصدُ الواحدَ بعد الواحد، وأُملِّكُهُم شيئًا يبقى بقاءَ النَّيِّرَيْنِ، ويُعْطونني عَرَضًا فانيًا».

ثمَّ أضفت: «ولي ضَجَرَاتٌ واختيارات، فَيَعُوقُونَنِي عن مرادي، فأحتاج إلى مفارقتهم على أقبح الوجوه».

فأجابني بأنَّه سيكاتب عضد الدولة بما ذكرتُ له، فجاء الرَّدُّ بأنّي «مُمَلَّكٌ في المُقام والظَّعَنِ».

سرت إليه، فأرسل من يستقبلني من كبار دولته على أحسن ما يكون الاستقبال، وأنزلني دارًا بهيجة، لكنَّ نفسي الأبيَّة المبغِضة لهؤلاء الأعاجم كانت تُسابقني وتُغالبني حتى وأنا أقول فيهم شعرًا كأنَّه وعيدٌ وتهديد:

فلما أَنَخْنَا ركَزْنا الرِّما حَ بين مكارمنا والعُلَى
وبتنا نُقبِّلُ أسيافَنا ونمسحُها من دماء العِدَى

لتَعْلَمَ مِصْرُ ومَنْ بالعراقِ ومن بالعواصم أَنّي الفَتَى
وأَنّي وَفَيْتُ وأَنّي أبَيْتُ وأَنّي عَتَوْتُ على مَنْ عَتَا

فلمَّا بَلَغَتْ هذه الأبيات إلى عضد الدولة قال لرجاله: «هَوْنًا، يتهدَّدُنَا المتنبِّي». لقد كنت أشعر بأنّي غريبٌ بين هؤلاء الأعاجم رغم جمال الطبيعة التي من حولي:

مغاني الشِّعْبِ طِيبًا في المغاني بمنزلة الرَّبيع منَ الزَّمانِ
ولكنَّ الفتى العربيَّ فيها غريبُ الوجهِ واليدِ واللِّسانِ
ملاعبُ جِنَّةٍ لو سار فيها سُليمانٌ لسار بتَرْجُمانِ

فلو أنَّ سليمان الذي أوتي منطق الجنّ والطير وما سوى ذلك من ألسنة البهائم والحشرات قد سار في هذه البلاد لكان محتاجًا لأن يتَّخذ له ترجمانًا يترجم له بلسانه ما يقول أهل هذه البلاد، ولكانت تلك المخلوقات التي كلَّمها سليمان أَبْيَنُ منطقًا من كلامهم. ويكفي هذا هجاءً في عُجْمَةِ مثل هؤلاء من فتًى من فتيان العربية وفرسانها.

لم تكن هذه البلاد بلادي ولم أرتح لها، ولم يكن لسانها إلَّا لَغَطًا ينبو عن بيان العربيَّة وفصاحتها، وما كان مثل هذا التعريض يَمُرُّ على عضد الدولة دون أن يمسَّ في عصبيَّته لقومه ولسانه وانتصاره لهما. لم يكن عضد الدولة رجلًا مثل سائر من لقيت من الأمراء والحكَّام، بل لقد كان أوَّلَ من خوطب بالملك في بلاد الإسلام، وأوَّل من خُطِب له على منابر المساجد بعد الخليفة. ولم يصل إلى هذه المنزلة إلَّا ببأسه ودهائه وحسن سياسته، ولهذا أغضى عنِّي حتى ينتقم منِّي على طريقته. لم يُظهر تبرُّمَه مني بل أغدقَ عليَّ من ماله الذي كنت زاهدًا فيه.

ورغم جمال هذه البلاد، فإنَّ الحنين قد عاودني إلى خولة، وعادت ذكراها تَنْكَأُ في صدري جراحاتٍ غائرة.

كان عضد الدولة يخادعني وكنت أداريه، فلم يكن لساني يطاوعني إلَّا تكلُّفًا في مدحه؛ ولم يكن ماله يطاوعه إلَّا تَغَدُّقًا باردًا يستر رغبته في النَّيْلِ مِنِّي. وما إن مرَّت ثلاثة أشهر في شيراز حتى هبَّ نسيمُ الرَّواح مجدَّدًا. كان بنو بُوَيْه الدَّيلميُّون من أعدائي من أجل سياستهم الأعجميَّة، ونصرتهم للدَّعوة الفاطميَّة، وكنت أكره لنفسي أن أبقى بين ظهرانيهم لأمتدحهم، وكنت لا أرضى أن آخذ منهم رغم أن عضد الدولة بالغ في إكرامي حتى يستميلني لمَّا اطَّلعَ على مذهبي السياسيّ في نصرة السياسة العربيَّة لسيف الدولة ضدّ السياسة الأعجميَّة لبني بويْه.

ثمَّ بلغني من رجال عضد الدولة ما كان يترصَّدني به أعدائي من الفاطميَّة بسبب إغراء كافور لهم بقتلي بعد أن عرَّضت به في شعري. وقد أسعفني عضد الدولة، فوافق على خروجي من بلاده والعودة إليه كما اشترطتُ عليه في تملُّكِ أمر المقام والظَّعَن.

خرجت من شيراز ومعي ابني محسّد ورجالي، فلمَّا بلغتُ ديرَ العاقول في العراق اجتمعَتْ عليّ بنو أسد وبنو ضبَّة من شيعة العلويِّين المنحازين لسياسة الأعاجم وبني بويْه والفاطميِّين، وهاجموني فقاتلتُهم قتال من لا يخشى البأس العظيم، لكنَّ عددهم كان كبيرًا، وقضى رَبُّك ما كان مقَدَّرًا عليَّ، فلستُ أَوَّلَ شهيدٍ ولا آخِرَ شهداء آل البيت...

وهكذا، انتهت حياة هذا البدن الفاني، وبقيتْ حياة ذلك الروح الباقي.

* * *

فلمَّا انتهى أبو الطيِّب إلى هذا الحَدِّ في سرد سيرته، التفتَ إلى أبي عبد اللّـه الحكيم الترمذيّ، وقال له: هذه سيرتي التي أطلعتكم عليها إلى أن قتلني مع ابني ورجالي بنو أسد وبنو ضبَّة الذين كنت قد هجوتهم فيما مضى، وأنت الآن على بيِّنة من هذه السيرة، ولا شكَّ أَنَّ مَنْ كان مِثْلي كان حقيقًا بأن يكونَ خَتْمَ الشعراء الحكماء.

فقال الحكيم الترمذيّ: شكرًا لك يا أبا الطيِّب، لقد سمعنا مقالَتَكَ وَوَعَيْنَا سيرتك، وليس الآن أوانُ النُّطق بالحكم فيمن يستحقُّ أن يكونَ ختم المدينة الفاضلة.

ثمَّ التفت إلى أبي العلاء، وقال له: حان دورك يا أبا العلاء، فأخبرنا عن سيرتك، ولا تُسقط منها عذاباتك التي ذكرتها حين كنت رهين المحبسيْن.

فقال أبو العلاء: نعم سأخبركم بسيرتي بعدما استمعت إلى سيرتَيْ أبي نصر وأبي الطيِّب. فأحدهما يزعم أنَّه «المعلم الثاني» في الفلسفة؛ والثاني يزعم أنَّه إمامُ شعراء العربيَّة وخاتمتهم، ولست أُنْكِرُ فضلهما فيما زعما، ثمَّ كيف لرجلٍ مثلي أن يزعم ما زعما؟ لكنِّي انطلقت في أوَّل الحياة بعاهة لم يُصِبنا بها، وهي خارمَةٌ في عَدالَةِ شُروطِ التَّباري. إنَّ الحياةَ لم تَبْسَمْ لي كما كنت أؤمِّل، بل عشتُها نَصَبًا وتَعَبًا حتى قلت في هذا المعنى:

تعبٌ كلُّها الحياةُ فما أَعْـ ـجَبُ إلَّا مِنْ راغبٍ في ازديادِ

ولتعلموا أنِّي لن أتنكَّبَ طريقَ سَرْدِ مُسلسلِ هذه الحياة المتعوبة، ولن أفوِّضَ أمري إلى سارِدٍ عليم، بل سأتولَّى حكايَة تلك الآلام بنفسي. فإنِّي إنْ حُرمتُ نعمةَ البصر، فلن أضاعفَ عذاباتي بحرمان نفسي من نعمة القول والكلام والسَّرد والبيان.

* * *

الأديب الحكيم

وإني وإنْ كنتُ الأخيرَ زمانُهُ　　　لآتٍ بـما لم تَستَطِعْهُ الأوائلُ

(أبو العلاء المعري، سقط الزند)

* * *

جئت إلى الدنيا بعد مرور تسع سنوات على وفاتك يا أبا الطيِّب، وليتني أدركتك، فقد كان لي رغبةٌ في الحديث معك ومناقشة بعض القضايا التي ضمَّنتُها في «رسالة الغفران»، ثمَّ أفردتُ كتابًا لشرح شعرك عنونتُه «مُعْجِزُ أحمد»، فالشارح أبو العلاء أحمد، والمشروحُ شعرُه أبو الطيِّب أحمد. لقد ملأتَ الدنيا وشغلتَ الناس يا أبا الطيِّب، وشغلتني في جُمْلَةِ من شَغَلْت.

فقال أبو الطيِّب: ما قصَّرتَ يا أبا العلاء، فقد اطَّلعتُ على كتابك وأنا في عالم البرزخ، وسُررتُ بمنزلتي عندك، فَنِعْمَ ما صنعتَ، ونِعْمَ الإنصاف.

ثمَّ أضاف: وبيننا أمرٌ مشترك يا أبا العلاء، وهو أنَّ مأساتي في نسبي جاءتني من قِبَلِ أبي، ومأساتَك أنت جاءتك من قِبَلِ أبيك حتى أوصيتَ بكتابة بيتِ إدانةٍ على شاهد قبرك:

هـذا جَنـاهُ أبـي عَلَـيَّ وما جَنَيْـتُ على أحَـدِ

فقال أبو العلاء: لقد فتحتَ جرحًا يا أبا الطيّب حملتُه معي إلى قبري، وصار من بعدي ذكرى لغيري، لكنَّ تلك قصَّةٌ أخرى سأُعَرِّجُ عليها في حينها.

وأبدأ من البداية، فقد وُلدتُ أيُّها السادة الحكماء في معرَّة النعمان من أعمال حَلَب مَغْرِبَ يوم الجمعة لثلاثٍ بَقِينَ من ربيع الأوَّل سنة ثلاث وستين وثلاث مئة للهجرة، في بيت علمٍ وعزّ وسؤدد. وكان جدّي قاضيًا، ووالدي قاضيًا وشاعرًا رقيقًا. وقد شببت في هذا البيت على حُبِّ العرب والعربيَّة مثلك يا أبا الطيّب، وكرهت العُجمة. وإلى هذا أشير حين ناجيت والدي بقولي:

أَمَوْلَى القوافي كم أراكَ انقيادُها لكَ الفصحاءَ العُرْبَ كالعَجَم اللُّكْنِ

كان والدي رحمة اللّـه عليه معلّمي الأوَّل، فسمعت منه الحديث وتلقَّيت علوم العربيَّة، وزرع في نفسي حبَّ الشعر.

أمَّا أمّي، فكانت حُبَّ حياتي، وهي التي كانت تبكي دموعًا كأنَّها الدُّرُّ حين أمرض أو أغيب عنها، فَتُعَوِّذُنِي وتبيت الليلَ ساهرَةً تقرأ القرآن وتدعو بالحفظ لي:

سقتني دُرَّها ودعتْ وباتتْ تُعوِّذُنِـي وتقـرأ أو تُسَـمِّي

وأمَّا خالي أبو القاسم علي، فقد كان تاجرًا وصل بتجارته إلى المغرب، حتى قلت في قصيدةٍ مطولةٍ أرسلتها له:

عَلامَ هجرتَ شرقَ الأرض حتّى أتيتَ الغربَ تختبرُ العِبادا

كان لي أخٌ أكبر اسمه أبو المجد محمَّد، وأخٌ أصغر اسمه أبو الهيثم عبد الواحد، وكنتُ واسطة العقد بينهما، وبين كلّ أخٍ والذي يليه مدَّةٌ تصل إلى سبع سنين أو تزيد قليلًا.

كان أبو المجد أديبًا شاعرًا، وله ديوان شعر، وقد رويت عنه.

أمَّا أبو الهيثم، فقد كان هو أيضًا شاعرًا مُجيدًا.

مات أخواي قبلي وبقيت بعدهما رهين المحبسيْن. كان أبو الهيثم أوَّلَ من غادر إلى دار البقاء في سنِّ الشباب. وأمَّا أبو المجد، فقد عُمِّر وتوفَّاه اللَّـه في سنِّ الخامسة والسبعين.

قال الفارابيّ: يا أبا العلاء، هل وُلدتَ ضريرًا؟

أجاب أبو العلاء: أبدًا، لقد كنت مبصرًا في ولادتي، ثمَّ أصابني الجُدَرِي وأنا ابنُ أربع سنين، فما شُفيتُ منه إلَّا وقد ذهب ببصري وترك هذه النُّدُوبَ الشَّوْهَاءَ التي ترون على وجهي. لقد سُدِلَ بيني وبين نور الحياة حجابٌ كثيفٌ حالِكٌ لا أرى معه شيئًا، فما انجاب عنِّي حتى انتقلتُ من هذه الدنيا. ولستُ أعرفُ من الألوان إلَّا اللونَ الأحمر الذي بقي منطبعًا في ذاكرتي من هذه الفترة المبكرة جدًّا، وقد كان لونَ الثَّوْب الذي ألبسوني إيَّاه حين جُدِرْت. وبقدر ما أنَّ هذا اللونَ هو الخيطُ الوحيد الذي يربطني مع ذكرى إبصار الأشياء في الحياة بقدر ما هو لونٌ بغيض إلى نفسي، لأنَّه يذكِّرني أيضًا بمأساتي ودمويَّة قَدَري.

كنتُ جميلَ الصورة فصرتُ دَمِيمَ الخِلْقَةِ مَجْدُورَ الوجه، على عينيَّ بياضٌ من أثر العِلَّة، ويخيَّل للرائي أنِّي أنظر بإحداهما. فقد كانت إحداهُما نادَّةً والأخرى غائرةً.

بدأت أخطو في هذه الدنيا وقد حُرِمْتُ نِعْمَةَ البصر التي هي البابُ المشرعُ أمام الحياة. لم يكن الأطفال يعقلونَ شيئًا في هذه السِّنِّ، بيْدَ أنَّ وعيي بدأ منذ هذه اللَّحظة على خلاف المعتاد.

كان أوَّلُ سؤالٍ يواجهني هو: كيف أمشي في الظلام الحالك من حولي؟

وكأنَّ سيري كان نظيرَ المشي إلى حتفي في كلِّ خطوةٍ أخطوها، وكلِّ حركةٍ أقوم بها. صار لي الظلامُ عدوًّا في بداية نشأتي في وقتٍ لم يكن للأطفال أعداء، وليس في قاموسهم شيءٌ اسمه العداوة. بدأ وعيي هكذا باستعداء عَدُوٍّ غاشِمٍ لا أستطيع أن أَلْمَسَهُ أو أمسك به لكنَّه يكتنفني من كلِّ ناحية. كان يتشكَّل لي مع كلِّ صوتٍ وحركة ولمسة ومذاق. كان عليَّ أن أُرَمِّمَ هذا الخصاص الوجوديّ في معرفة الأشياء بمعاينتها بباقي الحواس أو بالشعور الباطنيّ. كان عليَّ أن أَرُوضَ نفسي بمساعدة أهلي على مواجهة هذا العدو الأوَّل. كيف أمشي في الظلام؟

كانت هذه العِلَّةُ في هذه السنّ المبكرة أعظمَ صدمةٍ في حياتي، وكلّ ما لقيته نتيجةٌ لها. أوهمت أهلي ومَن حولي أنّي تغلَّبْتُ على هذا العدوّ وهزمته حين تمكَّنْتُ من المشي وحدي بلا خوفٍ ولا وَجَل، بل والركض كالأطفال الأشقياء. كنت أُداري مَنْ حولي حتى ظَنُّوا أنّني أَلِفْتُ الظلام واعتدت عليه. كنت أمشي وأعدو، وأسري وأغدو، لا يَعوقُني عائق عن المشي:

وأغدو ولو أنَّ الصباحَ صوارِمٌ وأَسْرِي ولو أنَّ الظَّلامَ جَحَافِلُ

لم يكن الأمر كما توهَّموا، فهذا الهائل الذي لا ينجابُ عنّي ليلٌ طويل لا ينجلي. كنت أتعذَّب في قرارة نفسي، لكنّي كنت أتصبَّر وأُقاوم ولا أُظهِر ضَعفي. تخيَّلوا أيُّها المبصرون، ولو للحظةٍ أنَّكم تعيشون في ليلٍ مستمرّ. تخيَّلوا أنَّكم لا تعرفون النهار. كيف سيكون شأنكم؟

هكذا هم العميان، وليس من دواء لهذا الداء العضال سوى الموت، حين تأمنُ العيونُ المنطفئة في تراب القبور منَ العمى أو الرَّمَد، حتى صرختُ بهذا المعنى متفجِّعًا:

إذا طُفِئَتْ في الثَّرَى أَعْيُنٌ فقد أَمِنَتْ مِنْ عَمًى أو رَمَدْ

وممَّا يُبتلى به العميان هو تعاملهم مع الأصوات الذي يختلف عن تعامل المبصرين، فالأعمى يرفع أحيانًا الصوت حتى يتقوَّى على الخوف الذي ينتابه من المجهول الذي يحدث حواليه. وأحيانًا أخرى يتورع عن أن يحدث أدنى صوت حتى لا ينتبه إليه أحد، ولا يثير فضول أحد. كنت أحبّ أكل الفستق الذي كان منتشرًا في بلادنا، لكنِّي صرت أكرهه لأنَّه يفضح وجودي وأفعالي بأدنى حركة حين تهرس أسناني قشوره. فَلَكَمْ أغاظني هذا الفستق الذي أتعبُ بتهريس قشرته فأجده فارغًا. فلا أنا انتفعت بأكله، ولا هو سترني عن أسماع من حولي بنميمة فرقعته. ومن شدَّة غيظي من هذا الفستق الفاضح الرديء أنِّي أسميته «غيظ الجيران»، لأنَّه إذا كُسر ظَنَّ جيرانُ السُّوء أنَّه مَلاَن فحسدوني عليه، وهم لا يعلمون أنَّه فارغ. وحتى أُحْنِقَ هؤلاء كنتُ أُرْسِلُ لهم شيئًا من هذا الفستق الرديء الذي لم أَقْضِ منه نَهْمَتِي، ولا هو سترني عند الجيران. فتَبًّا لهذا «**الفسـ تق**» الفاضح الذي أَوَّلُهُ فُسَاءٌ، وآخرُه اتقاء، فهل يُؤْتَمُّ في الأكل بإمام يدَّعي التقوى وطهارَتُهُ مُنْتَقِضَةٌ بِفُسَائِه، أعزَّكم اللَّـه.

دفعني والدي لحلقات العلم لعلَّ ذلك يقدح نور بصيرتي بعدما انطفأ نور بصري، فقرأت القراءات، وسمعت الحديث من والدي عبد اللَّـه، وجدِّي سليمان ومن جدَّتي. كما تولَّاني أخي أبو المجد فسمعت منه. وتلقَّيت علوم العربيَّة والنحو أيضًا على والدي، وبني كوثر، وجماعة من أصحاب ابن خالويْه.

زمجر المتنبّي لمَّا مرّ ذكر «ابن خالويْه»، وفطن أبو العلاء لسبب زمجرته، فقد حصل بين الرجليْن خصومةٌ في مجلس سيف الدولة بسبب تخطئة ابنِ خالويه أبا الطيّب في قصيدةٍ ألقاها، فأسعفه بجوابٍ عرّض فيه بأصله العجميّ، وبُعْدِهِ عن فهم الشعر.

امتنع أبو العلاء عن الاستطراد في تلك الجراحات القديمة بين ابن خالويْه وأبي الطيّب، ومضى يواصل للحكماء قصة حياته: بعدما بانت نباهتي وظهر نبوغي لوالدي عزم أن ينقلني إلى حلب حتى أستزيد من العلم وأتبحَّر في الفنون. وفي حلب، كان أخوالي بنو سبيكة، فتلقَّيت هناك علومًا، واستزدت ممَّا حصَّلت آنِفًا.

فقال أبو الطيّب: يبدو أنَّك التقيتَ بابن سعد، راويةِ شعري في حلب.

فقال أبو العلاء: أَيْ نَعَم، هو كذلك، وقد لقيته وأنا أحفظ من شعرك قبل أن ألتقيه ما أحفظ.

ثمَّ أضاف أبو العلاء ليبدِّدَ ما أثاره في نفس المتنبّي ذكرُ ابن خالويْه: وقد استفدتُ من رواية شعرك في بلدي معرَّة النعمان من أصحاب ابن خالويْه في قصَّةٍ طريفةٍ لي مع ابن سعد.

فقال أبو الطيب: كيف ذاك وقد كنت صبيًّا وقتئذ؟

فقال أبو العلاء: حضرتُ يومًا في حلب مجلس ابن سعد وهو يروي من قصيدتك الداليَّة حتى وصل إلى قولك:

أو مَوْضِعًا في فِناء ناجِيَةٍ تحمل في التّاج هامةَ العاقِدْ

فرددت عليه مصحِّحًا من الرواية التي أخذتها في بلدي معرَّة النعمان عن جماعة ابن خالويْه:

أو مُوضِعًا في فِتَانِ ناجِيَةٍ تحمل في التّاج هامةَ العاقِدْ

لأنَّه كما تعلمون فـ «مُوضِعًا» تعني مسرعًا، و«الفِتَان» غشاء من جلد يوضع فوق رَحْلِ الناقة، والناجية هي الناقة السريعة، لكنَّ ابنَ سعد رواه على غير وجهه، ثمَّ أكبرَ أن يصحِّح له صبيٌّ مثلي خطأه، فلم يجد بُدًّا حتى قام إلى نسخةٍ عراقيَّة من ديوانك يا أبا الطيِّب، فوجد القولَ كما قلتُ. كانت هذه الحادثة سببًا في انتشار سمعتي في حلب، وصارت المجالس تردِّدها. وقد كان ذلك الخطأ شائعًا عند كثيرين. وقد خصَّني ابن سعد بملازمته وهو راوية شعرك يا أبا الطيِّب بلا مراء. وقد رويت عنه شعرك وتتلمذت عليه في العلم والأدب وحفظت الشعر. وكنت أحب فَنَّ الـمُقَاناة بالشعر[1]؛ ومرَّةً سمع بي جماعةٌ من مشايخ حلب وظرفائها فأتوا لِيَرَوْا هذا الفتى الذي طار صيته في الفطنة والحفظ، فوجدوني ألعب مع الصبيان.

فقلت لهم: هل لكم في المُقاناة بالشعر؟

فقالوا : نعم.

فأخذ كلّ واحد ينشد بيتًا، فأجيبه ببيت من نفس قافيته، ثمَّ ينشد آخر فأجيبه، وينشد ثالث ورابع، وهكذا دواليك حتى فرغ محفوظهم من الشعر وأعيتهم الحيلة في مغالبتي.

فقلت لهم: أَعجِزْتم أن يعملَ كلُّ واحدٍ منكم بيتًا عند الحاجة إليه على القافية التي يريد؟

فقالوا: افعل أنت ذلك.

---

(1) يسمى أيضًا «مذاكرة الأنفاس»، وهو أن ينشد كلُّ واحدٍ على رويّ بيت الآخر، وهذا على رويّ ذلك حتى يعيا أحدهما فيغلب الآخر.

فكلَّما أنشد واحدٌ منهم بيتًا أجبته من نظمي على قافية البيت نفسها، فقطعتهم جميعًا، فتعجَّبوا ثمَّ انصرفوا.

ثمَّ مضيت أعُبُّ من العلم بكلِّ ما أوتيتُ من رغبةٍ جامحة حتى أُمَزِّقَ كثافة الحجاب الذي حال بيني وبين رؤية الأشياء. واجتزت يومًا باللاذقية فنزلت في دير الفَارُوس، وبه راهب يتعبَّد اللَّـه في صومعته فآواني واصطفاني، وأمضينا الليل كلَّه نتباحث. وقد وجدت عنده نُبَذًا من أقوال الفلاسفة الأوائل. لقد كان لقائي مع هذا الراهب سببًا شجَّعني كي أسأل تلك الأسئلة التي كنت أتحاشى أن أسألها علانية، والتي كان لِمِحْنَةِ العمى سببٌ في قدحها واستعلانها في باطني. بدأَتْ تراودني أسئلة حول المبدأ والمعاد، وسرّ الوجود، والموت والحياة، والخير والشر. تلك الأسئلة المقلقة التي تنتاب الإنسان في لحظةٍ من لحظات حياته فيحسُّ فجأةً بالغربة في هذا الوجود. كان الحوار بين هذا الراهب المختلف عقديًّا معي قادحًا في وَعْيِي بشيءٍ جديد لم أكن أجرؤ عليه من قبل، وقاذفًا في عقلي قضايا لم تتخمَّر بعد، ولم تتخلَّق بعُدَّة العلم ونُبْل السؤال. كان التَّموقُعُ والتَّقابلُ بيني وبين الراهب حول الأسئلة الكبيرة والأجوبة الكبرى عنها في المسيحيَّة والإسلام عاملَ وعيٍ جديد يجعل المرءَ يبحث في المشترك بين المِلَّتين، والمختلفِ بينهما. إن هذا التقابل جعلني أَغْنَمُ وعيًا جديدًا رغم أنَّه كان في بدايته يبدو في صورةٍ من الشَّك والتَّمَرُّد، لكنَّه مفيدٌ في رحلة المعرفة حتى تتخلَّصَ الحقيقةُ بعد طولِ مخاضٍ ومُعاناة.

تدخَّل الحكيم الترمذيُّ، وقال: وكأنِّي بكَ يا أبا العلاء تَلْمِزُ إلى أنَّ وعيَكَ لم يتخلَّصْ إلى فكر حكماء يونان إلَّا بلقاء هذا الراهب، فكيف بلقاءٍ في ليلةٍ أن يُغيِّرَ مجرى حياة؟

تنفَّس الترمذيُّ الصُّعداءَ وكأنَّه يريد أن يزيد في مأوساويَّة اللحظة، ثمَّ أضاف بصوتٍ يخونه الإنكار: لعلَّ مثل هذا الكلام قد يلمز به البعضُ في حقِّ النبيّ لمَّا سافر في صباه إلى الشَّام مع عمِّه أبي طالب، ومَرّا ببعض الأديرة هناك، والتَقَيَا في الدير بالراهب «بحيرا»، أفلا يلمزون بلباقةٍ ماكرة لا تخفى على الحصيف النَّبيه إلى ما خلفها من التَّشكيك في الوحي الذي نزل عليه؟ وأنَّ الراهب قد يكون هو المصدر؟

أطرق أبو العلاء ثمَّ قال: ما خطر ببالي ما استنتجتَه بثاقبِ فكرِك يا أبا عبد اللَّـه، ولكنِّي أعتبر أنَّه قد يحدث أحيانًا أن نغتني ببعض اللقاءات القصيرة النَّاتئة أكثر ممَّا نغتني من صحبةٍ نمطيَّةٍ طويلة. وأنا لم أقل بأنَّ الراهب أوقفني على حكمة اليونان، بل لم يكن عنده منها إلَّا نُبَذٌ وأقوال عامَّة، لكنَّ تلك الأقوال جعلت أسئلتي وشكوكي تستعلن بالمقارنة وتنجلي بالمقابلة.

ثمَّ أكمل حديثه: كنتُ صبيًّا من بيت علم وفضل ورياسة وثراء ثمَّ صرت شابًّا. وكان لا شيءَ ينقصني من متاع الدنيا، فأستعين بمال أسرتي على ما أريد. كنت أتتبَّع حواضرَ العلم وأقصد المكتبات. وقد رحلت مرَّةً إلى خزانة إحدى الحواضر العلميَّة، وأكثرتُ التَّرَدُّدَ عليها، وارتبطتُ بصداقةٍ مع خازنها لانبهاره من شدَّة حفظي للكتب التي كان يقرأها عليَّ. كان يأخذني قريبٌ لي طويلُ القامة، وكنتُ قصيرَ القامة، ولا شكَّ أنَّ هذا التباين بيني وبين قريبي كان مدعاةً للاستغراب والسخرية لدى الناس بين أعمى وبصير، وقصيرٍ وطويل، لا يجمعهما شيءٌ إلَّا السَّعي معًا. كنتُ أجلس الساعات الطِّوال لا أمَلّ ولا أتعَب، وكأنَّ الاستزادةَ في قراءة هذه الكتب تزيد في انفساح العالم الشاسع من حولي بعدما أطبقَتْ جفوني على ظلامٍ دامس في سجنٍ مؤبَّد.

كان الخازنُ رجلًا علويًّا يقرأ عليَّ الكرَّاسة أو الكراستيْن مرَّةً واحدةً فأحفظُها حفظًا وأعيدُها عليه، فيتعجَّبُ غايةَ العجب من شدَّة حفظي، وكأنَّ هذه الكراريس قد نُقِشَتْ في لوح صدري.

لقد قرَّرت أن أتحدَّى محنتي بحيث لا تَعُوقُنِي عن بلوغ آمالي، وتعلَّمتُ في شبابي الشَّطرنجَ والنَّرْدَ وصنوفًا من اللَّـهْو والجِدّ حتى كنت أقول أُعَزِّي نفسي في مصيبتي بلسان السخريَّة بأنِّي أحمد اللَّـه على العمى كما يحمده غيري على البصر لأنَّه أحسن بي إذ كفاني رؤيةَ الثُّقلاء البُغضاء.

ضحك جماعة الحكماء، واستطابوا حديثي، فطلبوا منِّي أن أواصل، فقلتُ: كان نبوغي ومواهبي تزعج كثيرًا من أقراني من أبناء البيوتات الحلبيَّة الكبيرة، فكانوا يتنقَّصونني وكنت أتحدَّاهم بسخريَّة قارصة:

وقد نبحوني وما هِجْتُهُمْ كما نبحَ الكلبُ ضوءَ القَمَرْ

ومضيت أزهو على أقراني بما لا يستطيعونه من التَّحَكُّم في ناصية القول، فكتبت في مختلف أغراض الشعر، في المدح والهجاء والرثاء والفخر والغزَل والتهنئة. وشُغلت بمعارك المسلمين مع الروم، فكتبتُ قصائدَ في الحماسةِ وتصويرِ بطولات الفرسان. كما انصرفتُ إلى اللَّـهو والطَّرب قَدْرَ انشغالي بالعلم والجِدّ والتحصيل، فكنتُ أسهر الليالي:

رُبَّ ليلٍ كأنه الصبحُ في الـ ـحُسنِ وإن كان أسودَ الطَّيْلَسانِ
قد ركضنا فيه إلى اللهو حتى وقف النّجمُ وِقفةَ الحيرانِ
وكأني ما قلتُ والبدرُ طفلٌ وشباب الظلماء في عُنفوانِ
ليلتي هذه عروسٌ منَ الزَّنْـ ـجِ عليها قلائدٌ من جُمانِ
هرب النَّومُ من جفوني فيها هرَبَ الأمنِ من فؤاد الجبانِ

فقال الفارابيّ مستغربًا: يا سبحان اللّه يا أبا العلاء، كيف سلكتَ السَّبِيلَ إلى تصوير هذه المحسوسات التي ليس لمثلك سبيلٌ إلى إدراكها إلَّا بالاستعانة بوصف الآخرين؟

انتاب أبا العلاء شعورٌ بالتَّحدِّي رَشَحَ من سحنَتِه التي تغيَّرت، فقال: إنَّ ما حُرِمْتُه من نعمة البصر قد دفعني إلى فَتْقِ إدراكاتٍ جديدة في ذاتي مكَّنتني من إدراك حقائق الأشياء، وليس بمحاكاة وصف الآخرين كما تقول يا أبا نصر.

ثمَّ أضاف: ولو تتبَّعتَ شعر الوصف عندي وصُوَرَهُ البيانيَّة كالتَّشبيه والمجاز والاستعارة والكناية والرَّمز لظهر لك غِناها وثراها. إنَّ هذه الصور البيانيَّة أَوْفَقُ للعميان منها للمبصرين لأنَّها صُوَر تقتنص أمورًا باطنيَّة خفيَّة لا تُدْرَك إلَّا بالبصائر لا بالأبصار. **إنَّ البلاغة على الحقيقة هي علم العميان**، أو إنَّها علم البصائر. أمَّا البلاغة التي تعرفونها فقد كتبها المُبصرون لأمثالهم، فهي بلاغة عرجاء عمياء، ليست لذوي البصائر.

تأمَّل أبو نصر في هذا الاستنتاج الفريد، ثمَّ انتقل في الحديث قائلًا: هل أحببتَ يا أبا العلاء؟

فإنِّي وجدتُ أنَّكَ قد قُلْتَ شعرًا طويلًا في الحبّ.

أطرق قليلًا ثمَّ قال: ومَنْ مِنَّا لم يحبّ؟

ثمَّ سَكَتَ، وكان بيانًا في غير كلام، واندفع يقول فجأةً: نعم لقد أحببت، لكنِّي طَوَيْتُ ذكرَ من أحببت، لأنَّه أمرٌ يَخُصُّ اثنيْن لا مكان لثالثٍ معهما. وقد دنَّرْتُ اسمَها في زينب وهند.. وباقي أسماء المحبوبات اللائي عُرفن في الشعر العربيّ:

إن كنتَ مُدَّعيًا مودَّةَ زينبٍ فاسْكُبْ دموعَكَ ياغَمامُ ونَسْكُبِ
فمن الغمائمِ لو عَلِمْتَ غمامةٌ سوداءُ هُدْباها نظيرُ الهيْدَبِ
بالجفنِ بارزتِ القلوبَ وإنَّما بالنَّصْلِ يبرزُ كلُّ شهمٍ مِحْرَبِ
كم قُبلةٍ لكِ في الضَّمائرِ لم أَخَفْ منها الحِسابَ لأنَّها لم تُكتَبِ

هذا شعري يَدُلُّ على حرمانٍ كبير صَوَّرَ له خيالُه تلك المواجيد، فجلس إلى الحبيب واختلى به وقبَّله وسرى بينهما ماءُ الرِّيقِ يروي تلك الأرضَ الجدباء.

فقال أبو الطيب: ومَنْ مِنَّا لم يُحرَمْ من الحبِّ يا أبا العلاء؟

فقد تلذَّعتُ بحبِّ خَوْلَةَ التي مُنِعْتُ منها حين وصفتُ في شعري مَبْسَمَها.

فلمَّا ذكر أبو الطيب حُبَّه لخولة غارت ربَّةُ الناي فنفرَتْ منه، فابتسم لها وقرَّبها حتى يُذهِبَ غَيْرَتها.

قال أبو العلاء: أيُّها السادة الحكماء، لم يكن حبِّي حبًّا مزيَّفًا بل كان صادقًا فائقًا يعدو على فرس اللَّـهفة وبُراق الخيال. إنَّه حبٌّ لا يسكن إلَّا حين تتداعى الأفكار فيسترسل المحروم في حبِّ حبيبه حبًّا مجرَّدًا، حبًّا معنويًّا مثاليًّا. إنَّ خيال المحروم يصوِّرُ له المحبوبَ في كل الصُّوَر التي يتمنَّاها، فيجلس يتحدَّث إليه ويعانقه ويرتفقه ويسري ماء الحبّ بينهما في دعةٍ وسكون، أو عنفوانٍ وصخب. ألم تسمعوا عن طيف الحبيب الذي يزور المحبَّ فيكلِّمه؟

قال أبو الطيب: ما أشدَّه من حُبّ، وما أحزنَ قلوبَ المحبِّين إلَّا طولُ الانتظار. وما رأيتُ صابرًا مثلَ العاشقين.

فقال أبو العلاء: نعم، يا أبا الطيّب، فإنّي كنت أسأل طيفَ الحبيب قبلةً في عام، وأتمنّى أن يُنِيلَهَا لي في العام القابل.

فقال أبو الطيّب: ما أصبر العشاق يا أبا العلاء!

فأنشد أبو العلاء:

لاقاكِ في العام الذي ولّى فلم ... يسألك إلا قبلةً في قابل

إنَّ البخيلَ إذا يُمَدُّ له المَدَى ... في الجودِ هان عليه وَعْدُ السَّائلِ

وسألتُ مابين العقيقِ إلى الغَضَا ... فَجَزِعْتُ من أَمَدِ النَّوَى المتطاولِ

جَهْلٌ بمثلِكِ أن يزورَ بلادَنا ... يختالُ بين أساورٍ وخلاخِلِ

فقال أبو نصر: أَوَ لا تُغَالِطُنَا في حقيقة هذا الحبّ يا أبا العلاء؟

فقال أبو العلاء مستغربًا: وكيف ذلك يا أبا نصر؟

فقال أبو نصر: أَوَ لا تَكُونُ قد سَمَوْتَ بهذا الحبّ من المحسوسات إلى المجرّدات، فإنّي أرى خلف صور المحبوبات معانيَ عالية ترمز بها مرَّةً إلى معانٍ فلسفيَّة. أفلا تكون حَبَّةُ العين هي نعمة البصر؟

إنّي أرى أنَّ مقاومتك وعِنادَك قد جعلك تُخفي الحقيقة. أَو لا يكون كل هذا الجمال والغزل في شعرك حجابًا سميكًا أسدلتَه حتى لا تترك طريقًا للنَّفاد إلى صدرك والاطّلاع على عذاباتك؟

ابتسم أبو العلاء، وقال: العِبرةُ بعموم اللفظ لا بخصوصِ السَّبَب، كما تقول القاعدة يا أبا نصر. كلّ ذلك يجوز إذن، لكنّي لن أتدخَّل في إرشادكم بالسلوك إلى نفسي كما تدخَّلَ القَدَرُ، حين حرمني نعمة البصر، في عدم إرشادي بالسلوك إلى العالم من حولي.

ثمَّ سكت قليلًا، وإذا به ينتقل إلى الحديث عن طوْرٍ جديد في حياته:

ثمَّ مات جدّي، وبعده بثماني سنين مات أبي سنة 395، وفقدت بموته أبًا وأستاذًا وركنًا يحمي ظهري ويساندني في محنتي ويَشُدُّ حَجَري إلى الإقامة. فلمَّا توفِّي تحلَّلْتُ من حَجَرِيَّتِي وصرتُ طائرًا لا أَستَقِرُّ على وَكَن، وأتقَلَّبُ بين الإقامة والظَّعن:

لقد مَسخَتْ قلبي وفاتُكَ طائرًا فأقسمَ أنْ لا يستَقِرَّ على وَكَنْ
يُقَضِّي بقايا عيْشِهِ وجناحُهُ حَثِيثُ الدَّواعي في الإقامة والظَّعَن

هكذا، بدأتْ رحلةٌ جديدة من حياتي موسومةٌ بالرَّغبة في التَّنَقُّل والأسفار هروبًا من نقمة العَمَى التي كانت تَشُدُّنِي إلى الأرض. كنتُ في الثانية والثلاثين من عمري، ولي أُمٌّ هي نورُ عينيَّ ونجمُ حياتي الذي أستضيءُ به، وكانت لا تتركني أبتعد عنها، ولا تسمَحُ لي بمفارقتها. بقيتُ بجانبها أُداري صَدْمَةَ فَقْدِ الأب ثلاثَ سنوات، ثمَّ قَرَّرْتُ السَّفر بكلِّ ما يعنيه ذلك من مخاطرَ وأهوال في حَقِّ مَنْ كان مِثْلي محرومًا من البصر. كانت بغدادُ، مدينةُ السَّلام الوجهةَ التي يمكن أن يقصدها شامِيٌّ مثلي.

وفي سنة 398 للهجرة، غادرت معرَّةَ النعمان بعدما أخبرت أمِّي برحلتي، وودَّعت جيرتي وعشيرتي. كانت أمِّي تعلم أنَّها لا يمكنها أن تحبسني مقيمًا بجانبها مُدَّةً أَطْوَلَ مما قضيت بعد وفاة أبي، فوافَقَتْ على سفري مؤمِّلةً أَنْ أَرْجِعَ لها قريبًا.

بغدادُ حاضرةُ الدنيا وعاصمة الدولة و«مجتمَعُ أَهْلِ الجدل ومَوْطِنُ بَقِيَّةِ السَّلَفِ»، وإليها يرحل أعلامُ العلومِ والفنونِ، والكُتَّابُ والشُّعراءُ والباحثونَ عن الشُّهْرَة والجاه والمغامرات. وبقدر ما هي حاضرةٌ لاستكشاف العالم، فهي أيضًا تجعل الإنسانَ يستكشف نفسَه إزاءَ

ما فيها. دخلتُها سنة 399 للهجرة وأنا في رَيْعَانِ الشَّبَاب، ولم أقصدها للتَّكَسُّب وابتذال الوجه بالسُّؤال كما كان يفعل الشعراء:

أُنبِّئكم أنّي على العهد سالمٌ ووجهيَ لـمَّا يبتذِلْ بسؤالِ
وأني تيمَّمتُ العراقَ لغير ما تيمَّمَـه غَيْـلانُ عنـد بـلالِ

قصدت بغداد إذن التماسًا للمجد العلميّ والأدبيّ بعد أن بلغَتْ شهرتي وتفوُّقي أقصى حدِّهما في الشام، وكان عليَّ أن أختبر ذلك في عاصمة الخلافة، وأنتزع الاعتراف بمواهبي في مدينة السلام. طال السفر على الراحلة حتى تعبت من كثرة الجلوس. وكنَّا نصلِّي الظهر والعصر جمعًا وقصرًا تيمُّمًا لِشُحِّ الماء وبُعْدِ الموارد. كما كان المؤذِّن والإمام لا يرفعان الصَّوْتَ في صلاة اللَّيل الجهريَّة خوف قُطَّاع الطُّرق واللُّصوص. وفي الطريق مَرَرْنَا بشجرة، فقال لي رفيقٌ لي : طَأْطِئْ رأسَكَ، فها هنا شجرة.

طأطأتُ رأسي وشعرتُ بالمهانة لكوني كنت عاجزًا عن تدبير شؤوني بنفسي دون مساعدة، وأقسمتُ أن أتحدَّى المبصرين، وأتذكَّرَ المكان والشجرة في رحلة الأَوْبَة، وأُطأطئَ رأسي عند هذا المكان دون أن أنتظر تنبيهًا من أحد.

صادف يومُ وصولِنا إلى بغداد موتُ الشريف الطاهر والد الشريفين الرَّضَى والمرتَضَى. قصدتُ مباشرةً بيتَ العزاء وتخطَّيت الرِّقَاب، فقال لي رجل مِمَّن تخطَّيْتُ: إلى أين يا كلب؟

فأجبته في الحين: الكلبُ من لا يعرف للكلبِ سبعينَ اسمًا.

ثمَّ جلستُ في آخر المجلس منكسرًا، فقام الشعراء ينشدون مراثيهم. كنتُ عازمًا أن أُعَرِّفَ الناسَ بمنزلتي وقدري، فقمتُ وأنشدتُ مرتجلًا قصيدةً في رثاء الفقيد:

أَوْدَى فليتَ الحادثاتِ كفافِ مالُ الـمُسِيفِ وعنبرُ الـمُستافِ
الطَّاهرُ الآباءِ والأبناء والـ أثـواب والآراب والأُلاّف

إلى أن قلت في ولديْه الشريف الرضي، والشريف المرتضى:

أَبْقَيْتَ فينا كوكبيْن سناهما في الصُّبْحِ والظَّلماءِ ليسَ بِخافِ
متأنِّقيْنِ وفي الـمكارم أَرْتَعَا مُتألِّقيْنِ بِسُؤْدَدٍ وعَفَافِ
قَدَرَيْنِ في الإرْداء بل مَطَرَيْنِ في الـ إجْدَاءِ بل قَمَرَيْنِ في الإسداف
رُزِقَا العلاءَ فأهلُ نَجْدٍ كلَّما نطقَا الفصاحةَ مثلُ أهل دِيَافِ
سَاوَى الرَّضِيُّ الـمُرتضى وتقاسما خِطَطَ العُلَى بتناصُفٍ وتَصافِ

فلمَّا سمع الشريفان الرضى والمرتضى هذه القصيدة الطنَّانة قاما إليَّ ورفعا مجلسي، وقالا لي: لعلَّك أبا العلاء؟

فقلت: نعم.

فأكرماني واحترماني.

تدبَّرت في هذا اليوم العجيب الذي أَدْخُلُ فيه بغداد، وأوَّلُ لقبٍ تمنحني إيَّاه هذه المدينةُ المشاكِسة هو لقبُ «كلب»، وأوَّلُ شيء يستقبلني مأتم. ها قد ذكَّرَتْنِي بغداد بقَدْري حين كنت أظنُّ نفسي غيرَ ذلك. كان منزلي بالكَرْخ في محلَّة «القطيعة» على شَطِّ دجلةَ من بغداد. تبخَّرَتْ أوهامي وأويتُ إلى فراشي تلك اللَّيلةَ مكروبًا محزونًا، فتضاعف ظلمُ العمى بظلمة الأحزان. ما أعظم الألم حينما تصدم في كثرة الأمل!

هزَّني الشَّوقُ إلى الشَّام في ليلةٍ مُبْرِقَة، فأنشدت:

فيابَرْقُ ليس الكَرْخُ داري وإنما رماني إليه الدَّهرُ منذ لَيالِ
فَهَلْ فِيكَ من ماء الـمعرَّةِ قطرةٌ تُغيثُ بها ظمآنَ ليس بسالِ

تقاطر عليَّ البغداديّون يختبرون «الأعمى» الذي طار صيتُه بين الناس. ولم يكن أهل بغداد ليَقنعوا بشهادةٍ غيرِ شهادة العِيان، ولم يقبلوا أن يُفَوِّضُوا شهادتَهم لغيرهم من سُكَّان الأقاليم، فتلك مَنقَصَةٌ لا يحتملونها ورَزِيَّةٌ لا يَقبلونها، فهم لا يتلقَّمونَ إلَّا بمعالقهم ولا يقطعونَ إلَّا بسكاكينهم، ولا يستوثقون إلَّا من أذواقهم، ولا يثقون إلَّا في عقولهم. كان عليَّ أن أُثبِتَ من جديد تَفوُّقِي ونباهتي مع أهل بغداد. هنا تُصْنَعُ الشُّهرة، وهنا يُصْنَعُ الشُّعراء والأدباء وكلُّ طالبِ مجدٍ وجاه، وما دون ذلك فأقاليمُ وجهات. تأكل بغدادُ أوَّلًا فيمضغونَ بعدَها. هنا المركز والعاصمة، وغير ذلك هوامشُ وأطراف. كان عليَّ أن أُثْبِتَ ذاتي في المركز وأنتزعَ الاعترافَ من أهله.

كانت عادتهم أن يمتحنوا كلَّ وافِدٍ صاحبَ نباهة، فأعدُّوا لي امتحانًا في قُوَّةِ الحافظة، وذلك أنَّهم أحضروا دستورَ الخَراجِ في الدِّيوان، وأخذوا يَسرُدونَ ما فيه من تفاصيل عن كلِّ يوم، وأنا مُصْغٍ لهم حتى فرغوا بعد مدَّة، فأنشأتُ أُرَدِّدُ عليهم كلَّ ما قالوه كما سمعته ووعيته. تعجَّب البغداديّون من قوَّة حافظتي وأقرُّوا بتفَوُّقِي، وعلموا أنِّي أعجوبةُ الزمان في الحفظ وعلم اللغة. كما أقَرُّوا بشاعريَّتي، وَرَوَوْا عنِّي ديوان «سِقْط الزَّنْد».

كان يهمُّني بعد كسب هذه المعركة التي خرجتُ منها منتصرًا أن أستوعبَ كلَّ ما في خزائن بغداد من كُتبٍ، فألزمتُ نفسي بالمداومة عليها، وقصدت «بيت الحكمة» فلم أترك كتابًا إلَّا سمعته حتى وعيتُه وحفظتُ ما فيه. ثمَّ خالطتُ الورَّاقين وعرفتُ ما عندهم وتباحثتُ معهم. كما قصدت مجالسَ بغدادَ العلميَّة، وآذاني أحدُ النُّحاة لحسَدٍ في نفسه. ثمَّ كانت ثالثةُ الأثافيّ بعد حادثة الكلب، وحادثةِ هذا النحويّ الذي

عيَّرني بالأعمى، حادثةٌ ثالثة حصلت مع الشريف المرتضى الذي كان قد أكرمني في يوم قدومي وحضوري مَأتَمَ والدِه.

قطعت مادَّة الحكي، وتوجَّهت إلى أبي الطيِّب وقلت له: اسمع يا أبا الطيِّب جيِّدًا هذه القصَّة، فقد نالني منها ضررٌ كبيرٌ بسبب دفاعي عنك.

فقال أبو الطيِّب: وكيف ذلك؟

قلت: إليك تفصيل القصَّة.

كنتُ في مجلس الشريف المرتضى في يومٍ من الأيَّام، وقد جاء ذكرك يا أبا الطيِّب، فتنقَّصكَ المرتضى وجعل يتتبَّع عيوبَك، فقلت له:

لو لم يكن للمتنبِّي من الشعر إلَّا قصيدَتُه التي يقول فيها:

لكِ يامنازلُ في القلوبِ منازِلُ أَقْفَرْتِ أنتِ وهُنَّ منكِ أَوَاهِلُ

لكفاه فضلًا.

غضب السيِّد المرتضى من دفاعي عنك يا أبا الطيِّب، وعيَّرني بالأعمى، وأمر أن أُسحبَ من رِجْلِي فأُخرِجتُ مُهانًا من مجلسه.

فقال أبو الطيِّب مبتسمًا وقد أدرك السَّبب: وَلِمَ فَعَلَ بك هذا يا أبا العلاء؟

فقلت: أنت تعلم لِمَ فعل ذلك يا أبا الطيِّب.

ثمَّ أكملتُ لهم قصَّة ما حصل: لقد سأل المرتضى من يحضرونه السُّؤال نفسَه بقوله: أتدرون أيَّ شيءٍ أرادَ الأعمى بذكر هذه القصيدة؟ فإنَّ للمتنبِّي ما هو أَجْوَدُ منها لم يذكره.

فقالوا: النَّقِيبُ السَّيِّدُ أَعْرَفُ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

فأجابهم: أراد قولَ ما سيأتي بَعْدُ في هذه القصيدة:

وإذا أَتَتْكَ مَذَمَّتِي من ناقصٍ فَهِيَ الشَّهادةُ لي بأنّيَ كاملُ

فقال أبو الطيّب: واللّـه لقد نلتَ منه. وما تَنَقُّصُه لي إلّا لما ذكرتُ لكم عن معاداة العلويَّة لي في قصَّة نسبي، وهذا من التعصُّب المقيت، وليس من الإنصاف في شيء، وإلّا فمن قوله نَرُدُّ على تنقُّصِه لمَّا قال بأنَّ لي من الشعر أجود من القصيدة المذكورة.

ثمَّ أضاف: ولعلَّك سمعت بشهادة أبي القاسم ابن ناقيا البغداديّ؟

فقلت: وبماذا شهد؟

قال أبو الطيّب: سئل أبو القاسم، الملقَّبُ بالبندار أو البَزَّار، وهو من كُتَّاب وشعراء القرن الخامس الهجريّ، عن ثلاثة من الشُّعراء: المتنبّي، ابن نباتة السَّعدي، والشريف الرضيّ أخي المرتضى، فقال الرجل: «إنَّ مَثَلهم عندي مَثَل رجلٍ بنى أبنيةً شاهقةً وقصورًا عاليةً، وهو المتنبّي؛ فجاء رجل وضرب حولها سُرادقاتٍ وخِيَمًا، وهو ابن نباتة؛ ثمَّ جاء الرضيُّ ينزل تارةً عند هذا وتارةً عند ذاك». فهذا يا أبا العلاء رجلٌ عالِمٌ منصف، ذكر هؤلاء الشعراء، منهم أبو نصر ابن نباتة السعدي الذي مدح سيف الدولة ولقَّبه أبو حيَّان التوحيديّ بـ «شاعر الوقت»؛ ثمَّ ذكر ابن ناقيا، الشريفَ الرضيّ، وكيف أنَّه كان في المنطقة الوسطى يتردَّد بين معاني قصوري العالية، وخِيام ابن نباتة. ولا شكَّ أنَّ شهادة أبي القاسم تكفي في الردِّ على الشريف المرتضى بحال أخيه الشريف الرضيّ منّي، لكنْ أين الإنصاف؟

فقلت: صدقت يا أبا الطيب.

ثمَّ أضفت: لقد كانت هذه الإهانة الذي تلقَّيْتُها في هذا المجلس قاتلةً، جعلتني أُقَرِّرُ مغادرةَ بغداد والعودةَ إلى معرَّة النُّعمان ولُزومَ بيتي.

ثمَّ جاءتني قصيدة من أخي الأصغر يستعطفني فيها بالعودة إلى من خلَّفتهم بالشام من دارٍ وأهلٍ وأحباب، فلم أجد بدًّا من الاستسلام للهزيمة، وقرَّرْتُ فراق بغداد، وأنشدت:

كفى بشحوبِ أوجُهِنا دليلا على إزماعِنَا عنكَ الرَّحِيلا

لم أكن مداهنًا ولا مداجِنًا ولا متملِّقًا، ولا يَحْسُنُ بمن كان مثلي أن يغشى مجالسَ بغداد التي لا ينجح فيها إلَّا مثل هؤلاء وأولئك. فلست أنا الذي أقول للمرتضى: «السيِّدُ النَّقِيبُ أَعْرَفُ». لا، لن أكون منافقًا. وَلْتَنْشَقَّ الأرض عنِّي حتى ولو كنت أعرف للكلب سبعين اسمًا لا تعرفها حتى معاجم اللُّغة إلَّا على تلفيقٍ بينها وجَمْعٍ، بينما من لا يعرفُ إلَّا اسما واحدًا له، يُحْسِنُ كالثعلب المراوغةَ والمداهنةَ والتَّمَلُّقَ، فيحظى بالعطف والتقريب والإكرام.

فقال أبو الطيِّب: لا عليك يا أبا العلاء، فأصحاب النفوس الأبيَّة مثلُك لا يَقبلون الضَّيْمَ، ونحن أفاضل شعراء المدينة الفاضلة التي لا يدخلها إلَّا أئمة الشُّعراء والأدباء والحكماء. لا عليك يا أبا العلاء، فنحن من يقدِّرُ قَدْرَكَ وَيَعْرِفُ شَرَفَ منزلَتِك.

فقلت: لقد اعتقدتُ أنِّي أستطيع أن أكونَ على رأس مدينة الأدباء الحكماء في مدينة السلام، ثمَّ أدركت أنَّ مدينتي الفاضلة معي في صدري وبين أحشائي وفي ضميري لا تفارقني مثل الظلمة التي تكتنفني، أَؤُوبُ إليها فتتلقاني بالبِشْر والترحيب. وأمَّا بغداد أو غيرها، فليست لنا معشر الحكماء الفضلاء رغم ما حازت من الفضل والسَّبق والعلم والريادة.

لذا قرَّرت العزلةَ والابتعاد عن الخلق محبوسًا في سجن العمى وسجن بيتي. كما قرَّرتُ أن لا أتزوَّجَ ولا أُنْجِبَ حتى لا أُؤَبِّدَ مثل هذه المآسي التي عشتُها.

حاول قومٌ من البغداديّين ثَنْيِي عن الرحيل عن حاضرتهم، وَعَرَضُوا عليَّ أموالهم فرفضتُها مُتأبّيًا عن مَذَلَّةِ قَبولِ مَعروفِ الناس. وأَصرُّوا على بقائي بينهم وتَوسَّلوا إليَّ، لكنَّ قراري كان حاسمًا فغادرتُ لِسِتٍّ بَقِينَ من رمضان عام أربع مئة. لم أَكُنْ أَرْغَبُ في أن أَشْهَدَ عِيدَ الفِطْرِ في بغداد حتى لا يبقى في شعوري ما يمسكني إلى هذه الحاضرة.

سلكت طريق الموصل وميافارقين، ووصلت الحسنيَّة وبعدها آمد، ثمَّ اتَّجهت صوبًا نحو حلب، فلم أدخلها رغم أنَّها قاعدة أخوالي من آل سبيكة. ومنها قصدتُ مسقط رأسي في معرَّة النعمان. كنت أستحثُّ الرغبةَ في العزلة وأرغبُ عن لقاء أيِّ أحدٍ يمكن أن يصرفني عمَّا عقدت عليه العزم. وقد مررت بالشجرة التي طأطأتُ عندها الرأس في الذهاب، فتذكَّرتُ الموقع بالذات، وحرصْت على أن أَمُرَّ تحت الغصن الذي كشف عن ضعفي أمام الناس، فانحنيت في الموضع نفسه دون إشارةٍ أو تنبيهٍ من أحد. استغربَ الناسُ من فِعْلي، فذكرتُ لهم أنَّ ها هنا شجرةً، فأخبرني القومُ أنَّها اجتُثَّتْ منذ أن مَررتُ بها في رحلة الذَّهاب، ولا شَكَّ أنَّ أحدَهُم لما سمع أنَّ أعمى كاد أن يَشُجَّ رأسَه بأَحَدِ أَغصانِ الشَّجرة، على كثرة المسافرين من تلك الطريق، ربَّما ظَنَّ أَنْ يَفْعَلَ خيرًا باجتثاث الشَّجرة أصلًا حتى لا تَشُجَّ أحدًا ممَّن كان في مثل حالي من العجز عن تبيُّن الخطر بنفسه.

كنت أرغب في الوصول بسرعة إلى معرَّة النعمان حتى أطمئنَّ على والدتي المريضة، وكنت أخشى أن أجدها قد ماتت. وكان قد زاد من وساوسي حول هذا الأمر أنّي رأيت في المنام سقوط أحد نواجذي فتأوَّلتُ على ذلك النحو. فما أقسى الأحلام حينما تصوِّرُ أعزَّ مخلوقٍ في صورة ناب أو سنّ! لكنْ ما أصدقها إذ صوَّرته في صورة نابٍ من

عاج مُعَدٌّ للمضغ! إنَّ في هذا الجواز بين عالم المضغ وعالم الموت الذي يحصد أعزّ الأقرباء مفيدٌ في أنَّ الأمَّ التي كانت سببًا في توفير لبن الرضاع لصغيرها ثمَّ في فطامه وإطعامه بأنواع الغذاء هي مثل الناب الذي به يكون المضغ للاستمرار في الحياة. إنَّ سقوط الناب في عالم الرؤيا يشبه السقوط من الحياة.

وتحقَّق ما كنت أخشى، فقد وصلتُ إلى معرَّة النعمان فوجدت أمِّي قد ماتت قبل وصولي، ولم أتمكَّن من وداعها. كانت مصيبةً عظيمة نابتني وهدَّت كياني وما بقي من تجلُّدي، حتى صرت كالطفل غير المفطوم:

مضتْ وقد اكتَهَلْتُ فَخِلْتُ أنّي رضيعٌ ما بلغتُ مدى الفطام

ذهبت أزور قبرها يائسًا مهمومًا. سلَّمت عليها وبثتتها أشواقي، فلم أسمع مجيبًا يردُّ عليّ، واعتذرت إليها عن سفري إلى بغداد رغم ممانعتها. لقد أدركَتْ بحسّ الأُمِّ أنَّ يومَ وداعِها كانَ الأخير. وفعلًا، ها قد حصل ما كانت تخشاه وكنتُ أَجْهَلُهُ وَقْتَئِذٍ. ما فعل التراب بها؟

لقد صَمَتَتْ صَمْتًا أبديًّا، وصار عذابي بفراقها مثل «نعيم أهل الجنَّة، كلَّما نَفَدَ جُدِّد». لقد كنتُ أَطِيبُ نفْسًا وأرتاحُ بتذكُّرِ هذا الألم رغم عذاباته التي لا تنتهي، ففي تَذَكُّرِ أَعَزِّ إنسان عليَّ عذابٌ وعذوبة في الوقت نفسه، فَلَيْتَكُمْ تَعْذُرُوا إن وصفتُ العذابَ بنعيم أهل الجنَّة المتجدِّد، ولم أصفه بعذاب الجحيم المتأبِّد.

ثمَّ رجعت إلى منزلي، وقرَّرتُ أن أتَّخذه سجنًا لا أخرجُ منه ما عشتُ.

حين تغيبُ أصولُ الإنسان وليست له فروع يحسُّ بأنَّه مثل غصنٍ مجتَثٍّ مطروحٍ على الأرض يتآكل مع كرور الوقت حتى ينحلَّ في الأخير هباءً.

ولم تُمهلني الأقدار حتى أخذَتْ أخي الأصغر أبا الهيثم، فتضاعفَ ما بي من أحزان وتجدَّد ما بي من أسقام، وأحسستُ أنَّ الدنيا قد تداعت عليَّ وأرادت أن ترزأني فيمن أُحبّ.

فقال أبو عبد اللّـه الترمذيُّ: رُويدكَ يا أبا العلاء، ها هي الحسناء صاحبةُ الدُّفّ قد نظرتْ إليك نظرةً ملؤها الحبُّ والمودَّةُ والرَّحمة ممَّا قاسيته، وبعد أن راحت المرأةُ الوحيدة في حياتك، ها هي ربَّةُ الحُسْن صاحبة الدُّف تنظر إليك كي ترومها لِتُدْفِىءَ جناحك، وتُسمِعَكَ من شَدْوِهَا حين يهزُّكَ الحنين والشوق إلى والدتك، وتخدمَكَ خدمةَ العاشقين المتذلِّلين، وتَسْهَرَ عليك سَهَرَ المولّهين. ما من أحدٍ إلَّا ويحتاج إلى امرأة. ولولا النساء لما كان لهذا الوجود طَعْمٌ ولا معنى.

فقالت ربَّةُ الحُسْن: نعم، يا أبا عبد اللّـه، أنا راغبةٌ في جوار أبي العلاء ومحبَّته، وسأخدُمُهُ لأعوِّض عنه حياةَ الحرمان التي نالها في حياته الدنيويَّة الفائتة.

ثمَّ قال الترمذيُّ: لعلِّي أعيرك لسان وصفها حتى تبلغ بالوصف منها ما لم تبلغه بنعمة البصر.

فقال أبو العلاء: إيهٍ أبا عبد اللّـه، واللّـه إنِّي لَأُصَوِّرُ الكلمة وأجسِّدها حتى تستوي روحًا ناطقًا. فإنِّي وإن حُرمتُ نعمة البصر، فإنِّي لم أُحرم نعمة الخيال، بل لقد زيد لي في الخيال بقدر ما نقص لي من معاينة الأعيان.

قال الترمذيُّ: صاحبتك يا أبا العلاء نجلاء العينيْن فكأنَّهما بحرٌ لا ساحل له، وفي اتِّساعهما غُنْيَةٌ لك عن فقد عينيْك، فليزد اتِّساع عينيْك في طول بصرك. باسمةٌ كالأزاهر، أَذْكَى من المسك والنَّد. في

مشيتها خفَّةٌ وتَقَلُّعٌ كأنَّها غصنٌ ميَّال، بطنها أرضٌ ذاتُ كسور وملاحة، مُدبَّجة المتن، ناهدة الثديَيْن، لمياء الشفتيْن، لعساء الثغر يجري بماءَيْن، فيها شَمَمٌ وهمَّة، أَلُوف أَنُوف.

فقلت: حسبي بهذا يا أبا عبد اللَّـه، فقد جرى الماء منِّي في الرِّيق، ولا أذكرُ لكَ بعضَ ما لا يَلِيق.

ثمَّ قلت لها: تعالي يا ربَّة الحسن. خذي بيدي فأنت فائدةُ عينيَّ، وحبَّةُ قلبي وقائدي في ظلمة محبسي. يا شمس سمائي، ونجم صباحي ومسائي.

تقدَّمتِ الحسناء من أبي العلاء وجلستْ بجانبه، ترمُقُه عند كلِّ إشارة، وتستوفز عند كلِّ لحظةٍ منه وعبارة.

فقال أبو عبد اللَّـه الترمذيُّ: هنيئًا لك يا أبا العلاء بهذه الحسناء، والآن أَكمِلْ حديثَك الماتع الحزين.

فقلت: كان قراري حاسمًا في أن ألزمَ بيتي وأتَّخذَه سجنًا، لا أغادره لأيِّ داعٍ من الدواعي، ولم أكتفِ بهذا التَّحوُّل الجذريّ، بل تغيَّر نظام غذائيّ، فقنعت بما يسُدُّ الرَّمَق مما تُنْبِتُ الأرض، ولَبِسْتُ ما يستر الإنسان من خَشِنِ الثياب، واتَّخذتُ حصيرًا يُطرِّز ضلوعي كلَّ ليلة بوشيٍ يكاد أن يخترقَ الجلد حتى يصل إلى العظام. اتَّخذت الزُّهدَ شعارًا ومنهجَ حياة، وطِفْتُ من هذا السلوك ما يَطِيق امرؤٌ مثلي. وعكفت على إملاء كتاب «الفصول والغايات» بَثَثْتُ فيه ما كان ينهشني من يأس وشَكّ. كنت أحبُّ الدنيا، لكنِّي كنتُ أعمل ليل نهار على هدم جدار هذا الحبِّ من قلبي حين حُرمتُ أسبابَ حبِّها: «أُحبُّ الدنيا وآلتُها ليست فيَّ، وقد يئستُ من بلوغها واليأسُ مُريحٌ، فَإلامَ التَّشَوُّفُ والضَّلال؟»

كنت صاديًا، لكنّي عدمتُ المورِدَ الذي يُطْفِئُ غُلَّة عطشي. راودني مرارًا أن أضع حدًّا لحياتي، لكنّي كنتُ أخشى عاقبةَ هذا الفعل. فإن لم أُقْدِمْ عليه فورًا بلا تَراخٍ، فقد فعلتُه نَسِيئةً بالزُّهْد في ملذّات الحياة وتخريب البدن وإلزام النَّفس ما لا يلزم، قَطَعْتُ عنها الطَّعام والشراب، ولم اَنَسْ منه إلّا ما يُبقِي على الرَّمق. وكتبتُ في رسالة الغفران «قد كدتُ أَلْحَقُ برهط العدم من غير الأسف ولا النَّدَم، ولَكِنَّمَا أخشى قدومي على الجبَّار».

لم أكن أملك حقَّ التقرير في مصيري، ولا التَّصَرُّفَ في حياتي بالإيجاد أو الإعدام، ولا يمكنني أن أَعْقِدَ عَقْدًا مع الموت والفَناء، وليس لي سوى أن أَلوذَ بالحِمَى حتى يُعجِّل في قَبْضِ روحي ربُّ هذا الفِناء. لقد عفَّ لساني وعفَّت يدي وجوارحي وعَقْدُ إضماري عن إيذاء أيِّ مخلوق بالكلمة أو الفعل، وانسحبتُ من الدنيا راجيًا أن أعيشَ في سِلْمٍ مع كلِّ الخلق. بعتها واشتريتُ كرامتي وإبائي، وعِزَّتي وحرِّيَّتي، في وقتٍ باع فيه الناسُ أعزَّ ما لديهم بأبخس الأثمان. كان انسحابي صرخةَ صلاحٍ مدوِّية في وجه الفساد من حولي. أين ذهب الصالحون؟

يكفيك حُزنًا ذهابُ الصالحين معًا ونحن بعدهمُ في الأرض قُطّانُ

أقولها لكم أيُّها الحكماء، بقيت «رهين المحبسيْن» تسعًا وأربعين سنة في منزلي بمعرَّة النعمان، لم أخرج منه إلّا مرَّةً واحدة بعد مضيِّ حوالى ثمانية عشر عامًا على بداية عزلتي. وقد كنت في نحو الخامسة والخمسين. خرجت في قضاء حاجة لقومي بعد إلحاحٍ شديدٍ منهم كي أشفع لهم عند حاكمِ حَلَب الذي أَغْضَبَهُ هجومُ أهلِ معرَّةِ النعمان على ماخورٍ في المدينة وهَدْمُه وانتهابُه بسبب اعتداءِ صاحب الماخور على امرأةٍ في البلدة واغتصابِها، فضربهم الحاكم بالمنجنيق، واعتقل منهم

سبعين رجلًا قاموا غِضابًا لنصرة المرأة وحفظ كرامة بلدتهم. وقد حاصرهم حتى يَرُدَّ هيبةَ الحكم، ويوقف تمرُّدَهم وثورَتَهم. قبلتُ أن أخرجَ إلى هذا الحاكم في معسكره خارج البلدة، فاستقبلني وأكرمني ولم يَخْفِرْ ذِمَّتي، فَعَجَّل بسؤالي عن حاجتي قبل أن أذكر له سبب زيارتي له، فذكرتُ له حاجةَ أهل بلدي فوهبني البلدة، وحصل المقصود من الشفاعة.

وأراد القوم أن يزورونني للشكر فأعلمتهم أن لا يفعلوا، فقد كان قراري حاسمًا في أن لا أستقبل إلَّا أقربَ المقرَّبين، وشَقَّ ذلك على أهل بلدي وعلى أصدقائي، وألَحُّوا حتى قبلت أن أفتح بابي لهم، فصارت داري محجَّ علمٍ وأدبٍ للطالبين والراغبين. وصارت دارَ درْسٍ ومدارسة، فأخذ عنِّي خلقٌ كثير، وكاتبني العلماء والوزراء وأهلُ الأقدار. كنت محتاجًا إلى أن أَتَّخِذَ جيشًا من الكُتَّاب لكتابة ما امتلأ به صدري من علوم وفنون، وللرَّدِّ على ما يأتيني من مكاتباتٍ ومراسلات، أو لتقييد كتبي ونسخها.

وكان من مِنَّةِ اللَّـه عليَّ أنِّي لم أتقاضَ أجرًا على العلم الذي كنت أَبُثُّهُ في النَّاس، ووددت لو أنِّي أصرف ما عندي على قِلَّةِ ذات اليد لِمَن يأتيني من طلَّاب العلم وقاصديه. وكان من بين تلامذتي الخطيب التبريزيّ، وقد سلَّمني عند ملازمته لي وإقامته معي صُرَّةَ ذهبٍ ثمنًا لإقامته واستضافَتِه، فأقام عندي مدَّةً طويلة، ولمَّا أَزِفَ وقتُ مغادرته أخرجتُ له صُرَّةَ الذهب التي كان قد سلَّمها لي في بداية اتِّصاله بي فأَعَدْتُها له كما هي، لم تُمسّ.

ومن بين الفتن التي ابتليتُ بها رغبةُ الحاكم بأمر اللَّـه الفاطميّ في استقدامي إلى مصر وبناءِ دار لي بها، ومَنْحِي خراجَ معرَّة النعمان

لما بلغه عن سَعَةِ علمي وحفظي، فاستعفيتُ منه بالحيلة وكتبتُ رسالةً في الموضوع. كان ذلك سيشغلني عن عزلتي الاختياريَّة التي وجدت فيها راحتي، ولم أكن مستعدًّا أن أخرج إلى الناس على معهودي في شبيبتي. كنتُ أشتهي الوحدة وأَهْرُبُ من الخلطة، لكنَّ الناس شغلوني بهم ولم يتركوني أَفْرُغُ إلى نفسي وأعيش وحدتي كما أؤمل وأرجو. لم أكن أملك أن أختار أمام إلحاح الناس وكثرتهم وتنوُّع مطالبهم، ولم يكن مقبولًا أن أرفض دومًا مطالبهم. لقد كنتُ أعيش الحرمان بمعناه الحقيقيّ، وكنت راضيًا عن هذا المنهج في الحياة، فلم أتزوَّج، وأمضيتُ نصفَ قرنٍ آكُلُ من خَشاشِ الأرض، وأمتنع عن أكل اللَّحم والبيض واللَّبن، وأرفض إذايةَ كلِّ ذي رُوحٍ من الحيوان رحمةً به. لا أبرح مكاني فسجادتي فراشي. وهي إمَّا من لبّاد في فصل الشتاء، أو هي حصيرٌ في فصل الصيف. كان لي وقفٌ له إيرادٌ أَصْرِفُ نِصْفَه على ورَّاقٍ وخادم، ونصفٌ آخر أستعين به على قضاء حاجتي.

وقد جادلني قومٌ لا يتورَّعون عن أكل لحوم الناس وأموالهم بالباطل، فأمسكتُ عن مجادلتهم، واعترفتُ لهم أنّي أريد أن ألقى اللَّه بالامتناع عن أكل اللحوم رأفةً بالحيوانات، وزهدًا في تلك الملذَّات، ثمَّ مرضتُ فوصف لي طبيبٌ أكلَ فَرُّوج، فامتنعت:

أنا صائمٌ طولَ الحياةِ وإنَّما فِطري الحِمامُ ويومَذاك أُعيِّدُ

كنتُ زاهدًا في الدنيا وملذَّاتها، عاملًا على تخريب الظاهر حتى ينقدح السِّرُّ في الباطن، وشقَّ ذلك عليّ وجاهدتُ نفسي وألزمتُها صنوفًا من المجاهدة حتى أَرُوضَها، وإنّي أعترف أنّي لم أستطع أن أمحو حُبَّ الدنيا من قلبي أو أن أسلو عنها رغم أنّي كنت أذمُّها وأسخط عليها في كلِّ حين، بَيْدَ أن جمرة البشريَّة كانت تلذعني وتذكِّرني بما فاتني

من هذا الحرمان الذي طال نصفَ قرن. كنت أرجو أن أيأس من الدنيا وأَسْتَوْبِلَ شهواتها بعد أن فقدتُ الراحة فيها.

كنت أيُّها الحكماء الحارسَ الختم في مدينة الصالحين. ومن يكون مثلي حارسًا، وأنا الضَّريرُ مُنفَتِحُ البصيرة، والمبصرون لا أَعْيُنَ لهم. لقد كنت الوحيدَ الذي أستطيع أن أقول كلمة الحقّ في العصر الذي عشت فيه، لأنّي لم أكن أخشى أن أخسر شيئًا لم تكن نفسي قد زَهِدَتْ فيه. كانت الحظوظ تمنع الناس من الكلام.

لقد تحرَّرتُ تمامًا ممَّا بأيدي الناس، فكيف لا أكون حرًّا عن ترغيباتهم وتهديداتهم؟

صرت لسانَ من لا لسانَ له، وصرتُ الإنسانَ باللسان، فكنتُ أُنَدِّدُ بالظلم والطغيان، وأقاوم الفساد وأُشهِّر بالمفسدين والظَّلَمة، وأدافع عن المستضعفين:

فما لي لا أقول ولي لسانٌ وقد نطقَ الزَّمانُ بلا لِسانِ
وبِيعتْ بالفلوس لكلِّ خِزيٍ وجوهٌ كالدَّنانير الحِسانِ

نعم، لم أكن أُباع أو أُشترى، ورغم عزلتي عن الناس فقد بقيت لسان المستضعفين، ولم أعتزل عن إدانة الظلم وفضح الفساد ونصرة المستضعفين. كنتُ خاتمة الأدباء وخَتْمَ الشعراء الحكماء الذين يدافعون عن الخير وينصرونه في المدينة الفاضلة التي شيَّدتها. كنتُ أُمَّةً لوحدي، ومضيت على هذا الشأن أُحسُّ بألم الضعفاء وصرخات الأرامل والأيتام، ولم يتبلَّد شعوري بالعزلة، بل كان قادحًا في شدة وعيي وإحساسي. كنت متنبِّهًا من الغفلة التي تستبدُّ بالضمائر التي أَلِفَتِ الظلم وطبَّعَتْ معه، واستكانت للمفاسد حتى برَّرتها وتعايشت معها، بل صارت

جزءًا من صناعتها. سأبقى أُؤَرِّقُ ضمير المفسدين، وأزرعُ الأمل في نفوس المستضعفين في مدينتي الفاضلة التي شيَّدتها في عوالمي الداخليَّة.

فقال الفارابي: وهل تركك المفسدون تفعل ما تريد يا أبا العلاء؟

ثمَّ أكَّد أبو الطيِّب السُّؤال نفسه بقوله: نعم، هل تركك الظَّلَمة تزعجهم وتؤرِّقهم دون أن يهاجموك أو يحطِّموا المثال الذي شيَّدته في مدينتك الفاضلة؟

فقلت: لم يكن لهم أن يتركوني وقد كنتُ البلاءَ الكاسح الذي ابْتُلُوا به حين كشفتُ عن ظلمهم واستبدادهم وفسادهم. لم يكن مستساغًا أن يتركوا هذا المتمرِّد يعبث بمصالحهم ويهدِّد قوَّتهم.

فقال أبو الطيِّب: وإذ لم يكن ممكنًا أن يزجروك بالحرمان أو الإغراء، أو السجن، فكيف صحَّ لهم أن ينتقموا منك ويُخرسوك؟

فقلت: أصبتَ يا أبا الطيِّب، لقد سددتُ في وجههم كلَّ السُّبُلِ التي يمكن أن يضغطوا بها عليَّ لإسكاتي، فلم أكن أخشى أيَّ نوعٍ من الحرمان، كالجوع أو العطش. ولم أكن أرهب السجن لأنِّي سجنت نفسي في بيتي. ولم أكن أهاب الموت لأنِّي كنت أتمنَّاه في دخيلة أعماقي. ولم أكن أقبل بأيِّ عطاءٍ لأنِّي رفضت الدنيا التي وضعوها بين يديَّ. ولم يكن لي ولد ولا أهل حتى ينتقموا منِّي ويضغطوا عليَّ بواسطتهم. فلم يجدوا بدًّا من أن يُشوِّهُوا صورتي أمام الناس، ويصوِّروا لهم أنِّي فاسد العقيدة كما صوَّروك مُدَّعِيًا للنبوَّة يا أبا الطيِّب. لقد أرادوا كَسْرَ الصورة المثاليَّة التي كانت للناس عن أبي العلاء، ذلك اللسانُ المتمرِّدُ العافُّ عن مُتع الدنيا، الزاهدُ في متاعها، صائمُ الدَّهر الذي لا يفطر في السَّنة إلَّا في العيديْن مدَّةً قاربت خمسين عامًا.

فقال أبو الطيّب: وكيف فعلوا معك؟

فقلت: لم يكن مطلوبًا سوى أن يطلقوا شائعةً ويتركوها تنتشر بين الناس، لا يُعْرَفُ مَنْ أَطْلَقَهَا، فتتطوَّعُ الحشود لنقلِها وتداوُلِها؛ وتسرع الدَّهماء والعامَّة الثائرة لدينها والغاضبة في نصرة عقيدتها إلى التصديق بها. حيلةٌ قديمةٌ لكنَّها ذاتُ نتيجةٍ وأثر. هذه ضريبة الحرية، حريَّة الفكر والجهر بالحقّ وإزعاج المفسدين وفضح الفساد.

أيُّها الحكماء، لقد كان سلوكي ومجاهدتي لنفسي وحرمانها من طيّبات الدنيا مدخلًا لسبك تهمةٍ في العقيدة مسكوكة الوجهيْن.

قلتُ يومًا في مجلسي بأنّي لم أَهْجُ في حياتي أحدًا، فأجابني أحدهم: صدقتَ، إلَّا الأنبياء عليهم السلام، ففتح بابًا من أبواب البهتان.

واجتمع بي مرَّةً أحد القضاة، فسألني: ما هذا الذي يُروَى عنك ويُحكى؟

فقلت له: حسدني قوم فكذبوا عليَّ وأساؤوا إليَّ.

فقال لي: على ماذا حسدوك، وقد تركتَ لهم الدنيا؟

فقلتُ: والآخرة أيضًا؟

فجعل القاضي يكرِّر متعجِّبًا ومتَّهمًا: والآخرة، والآخرة، والآخرة؟

لقد صار الزهدُ الذي ألزمتُ به نفسي تهمةً، والصومُ عن الإثم والملذاتِ معصيةً. وإذا صحَّ هذا في الزُّهد، فإن الشُّرورَ تستحيل حلالًا.

ناظروني في سبب امتناعي عن أكل اللحوم، ورأوا أنّي أُحرِّم الطيّبات، واحتجُّوا عليَّ بأنَّ السِّباع والجوارح لا تأكل في غذائها سوى اللحوم والدماء والعظام، ولا تعتاض عنها بطعام آخر. وَقُلِ الشَّيءَ نفسَه عن حشرات الأرض وما سواها، فهل أنت أَرْأَفُ من الخالق بمخلوقاته؟

وصاروا يحاججون بمثل هذه الحجج الواهية، ولم يفلحوا في صدِّي عمَّا ألزمتُ به نفسي. ورغم أنِّي استخفيت في محبسي عن هذه السِّباع في صورة الآدميِّين والضِّباع في صورة الأناسيّ، فإنَّها كانت تطاردني وتعتفيني كما تعتفي الوحوشُ طرائدَها وتلتمسها في أوكارها.

فقال أبو عبد اللَّـه الترمذيُّ: وماذا أيضًا؟

فقلت: لقد اتَّهموني بالتعطيل، ووضعوا الأشعار لذلك، ونسبوها إليَّ رغم أنِّي تحرَّزت كثيرًا في إملاء كتبي وأشعاري وتوثيقها بعناية حتى أقطع الباب عن مثل هذه التُّهم المزوَّرة المكذوبة. وكتبت ردودًا حول هذه التهم في عدَّة كتب، منها «زَجْرُ النَّابح»، و«نَجْرُ الزَّجْر» بيَّنت فيهما فعل الوضَّاعين، لكنَّ ذلك لم يمنع الشائعات أن تروَّج بين حشود الناس، وتنتشر انتشارَ النَّار في الهشيم.

فقال أبو الطيِّب: وماذا صنعتَ أمام هذا الكذب والزُّور يا أبا العلاء؟

فقلت: احتسبت الأمر للَّـه تعالى، وصمدت في وجه هذا البهتان حتى آخر العمر. لقد سقطتْ أسناني، وضعف سمعي وبصري، وتقوَّسَ ظهري، وتخاذلتْ أطرافي؛ وعدمتُ الحركة إلَّا بمساعدة غيري، وعجزتُ عن الصلاة فكنتُ أصلِّي قاعدًا.

ورغم كلّ هذه البلاوي، فإنِّي لم أعدم صفاءَ الذِّهن وقوةَ الحافظة وعزمَ الإرادة وتوقُّدَ الذكاء وبسالةَ الصبر، ولم أنقطع عن التدريس والإملاء، فبقي أصحابي وتلامذتي يأخذون عنِّي ويملأون الكراريس من إملائي.

وبعد طول معاناة أيُّها الفضلاء الحكماء، كان لازمًا أن يرحمني أرحم الراحمين بالضَّجعة الأبديَّة. أصابتني العِلّة في أوائل شهر ربيع

الأوّل من سنة 449 للهجرة، وزارني الطبيب ابن بطلان، وكان ممَّن يتردَّد عليَّ ويسمع منِّي، فوصف لي شرابًا، لكنِّي امتنعت عنه وزهدت فيه على معهود عادتي.

أحاط بي أهلي من بني إخوتي وبني عمِّي، وبقيت مُعتَلًّا ليوميْن. فلمَّا كان اليوم الثالث عَرَفَ مَنْ حولي أنَّ الموتَ قد جاء ليأخذني كما أخذ مَنْ قَبْلِي، وسيأخذ مَنْ سيأتي بعدي. طلبت من أقربائي أن يكتبوا عنِّي، فلمَّا جئت أُمْلِي لم يكن إلَّا هذيانًا وكلامًا مفكَّكًا في غير صواب، واختلالًا في غير منطق ممَّا لم يعهدوه منِّي، فألقى ابن أخي القاضي أبو محمَّد القلمَ من يده، وصار يبكي ويهمس لِمَنْ حوله في حزنٍ شديد، ويُعزِّيهم بقوله «أحسنَ اللَّه عزاءَكُم في الشَّيخ، فإنَّه ميِّتٌ».

متُّ في اليوم الثالث من بدء علَّة المرض. وقد كنتُ أَوْصَيْتُ أن يُكتبَ على قبري «هذا جناه أبي عليَّ وما جنيتُ على أحَد». كانت هذه الوصية تعبيرًا عن المأساة التي عشتها طوال حياتي، ولم أرغب في تكرارها بالإنجاب. كنتُ رحيمًا إلى درجة أنِّي لم أرغب في إيذاء أيِّ مخلوق حتى مضيتُ مقطوعَ النَّسْل والعَقِب.

شيَّعتني مَعرَّة النُّعْمان، ووقف أربعةٌ وثمانون شاعرًا يرثون ختم الأدباء والحكماء، وتلك كانت مملكتي ومدينتي الفاضلة. وعلى مدى سبعة أيَّام، أقام شيوخ القُرّاء في معرَّة النعمان يتلون القرآن حتى أتَمُّوا مئة ختمة.

التَفَتُّ إلى أصحابي الحكماء، وقلتُ لهم: أفلا أكونُ الختمَ أيُّها السادة الفضلاء؟ أفلا تُقِرُّونَ لي بهذا الفضل بعد الذي سمعتموه؟ لقد

استرحتُ أخيرًا في رَقْدَتي الأبَدِيَّة بعد طولِ عَناء في هذا الوجود، فأرجو اللّـه أن يغفر لي.

* * *

فلمَّا انتهى أبو العلاء إلى هذا الحَدِّ في سرد سيرته، التفتَ إلى الحكيم الترمذيّ وقال له: هذه سيرتي التي استمعتم لها، وأنتم الآن على بيِّنةٍ من الأمر، ولا شكَّ أنَّ من كان مثلي كان حقيقًا بأن يكون ختم الأدباء الحكماء. وقد تركت حصيلة تجربتي في الحياة فيما كتبت من مصنَّفاتٍ وكتبٍ ودواوين تنيفُ على السبعين.

فقال الحكيم الترمذيُّ: يا أبا العلاء، «أُولو الفضل في أوطانهم غرباءُ تَشِذُّ وتنأى عنهمُ القرباء». لقد سمعنا مَقالتك ووعينا سيرتَك، وعلمنا مقدارَ غربتِك وما لحقَكَ من ظلم، وقد بقي من كتبك ما بقي ممَّا خرج من معرَّة النعمان واستُنسخ، وضاع منها الكثير ممَّا لم يخرج منها، وليس الآن أوانُ النُّطْقِ بالحُكْم فيمن هو ختم المدينة الفاضلة.

ثمَّ أضاف: والآن أيُّها السادة الحكماء، بعد أن استمعتُ إلى سيرةِ كلِّ واحدٍ منكم، واتَّضح أنَّ أهل زمانكم ومَنْ تلاهم قد أنزلوكم منزلةً كبيرة، وعَدُّوا كُلَّ واحِدٍ منكم خاتمةَ الشَّأن الذي اشتهر به. ومن أعجب الأمور أنَّ الجامع بينكم هو بلاد الشام، وحلب بالخصوص. وإنَّ اللّـه يجتبي للشام خيرة عباده كما ورد في الأثر. دعوني أُحدِّثُكم الآن عن ختم الأختام، المستحِقِّ لمنشور الولاية، وإليكم البيان.

* * *

ختم الأختام في مجلس الحكمة

أَفْضَى إلى خَتْمِ الزَّمانِ فَفَضَّهُ وحَبَا إلى التَّاريخِ في مِحْرابِهِ
وطَوَى القُرونَ القَهْقَرَى حتى أتى فرعونَ بين طعامِهِ وشرابِهِ

(أحمد شوقي: ذكرى كرنافون[1])

* * *

قال الترمذيّ للفارابيّ: بلغني يا أبا نصر أنَّ لك كتابًا بعنوان «فصوص الحِكَم» أو الحكمة، فما هي قصَّة هذا الكتاب؟

فقلت: هذا كتاب جعلته على ستةٍ وستين فَصًّا مختصرًا، كل فَصٍّ منها يبحث في قضية بعيْنها مثل الفرق بين الماهيَّة والهويَّة. والماهيَّة غير الهويَّة، إذ لو كانت ماهيَّة الإنسان هويَّته لكان تصوُّرُ ماهيَّته تصوُّرًا

(1) كان حافظ إبراهيم يرى أن أعظم قصيدة لأمير الشعراء هي البائية الكارنافونية، ولما سأله الدكتور زكي مبارك هل يحفظ من شعر شوقي، فأجاب: «لقد قتلني شوقي حين قال في اللورد كارنافون»، ثم سرد البيتين أعلاه. مجلة **الرسالة**، العدد 492، بتاريخ: 7 ديسمبر 1942.

لهويَّته، فتكون إذا تصوَّرْتَ «ما الإنسان» تصوَّرته «هو الإنسان» فعلمتَ وجودَه، ولكان تصوُّرُ الماهيَّة يستدعي تصديقًا.

أمَّا «الحكمة» فهي وضع الأشياء مواضعها. والمراتب الوجوديَّة موضوعةٌ في أماكنها لحكمة وجوديَّة اقتضتها. والحكمة عند المحقِّقين هي العلم التامّ، والحكيم العلَّام على الحقيقة هو الحقّ الأوَّل الواجب بالذات. ومن سواه موصوف موسوم بالنقصان. وأمَّا في العُرف، فالحكيم هو من عنده علم الحكمة التي هي معرفة أحوال أعيان الموجودات على ما هي عليه في الأمر نفسه بقدر ما في وُسْع الإنسان من بذل الطاقة والجهد في التَّعَرُّف. والحكمة أنواع، منها ما هو نظريّ ومنها ما هو عمليّ، ولكلٍّ منها أقسام. فعلم الأخلاق والطبّ مثلًا من الحكمة العمليَّة؛ وما يتعلَّق بالمدينة الفاضلة داخلٌ في الحكمة المدنيَّة.

فقال الترمذيّ: لقد جعلت كتابك على عدد الاسم المفرد «اللَّـه»؛ بينما جعل محمَّد ابن العربيّ الحاتميّ كتابه «فصوص الحِكَم» على ثمانيةٍ وعشرين فصًّا، هي مراتبُ النَّفَسِ الرَّحمانيّ المتجلِّيَّة في كلمات اللَّـه من الرسل والأنبياء. وكلّ مرتبةٍ من هذه المراتب الوجوديَّة موضوعةٌ في مقامها المناسب لحكمةٍ إلهيَّة. وهي تناسب الحروف العربيَّة، أمَّا المرتبة الوجوديَّة الأخيرة الثامنة والعشرون فهي الخاتمة والجامعة لباقي المراتب، وصاحبها هو الإنسان الكامل وخاتم الأولياء الذي يستمدُّ من خاتم الرسالة والنبوَّة.

فقال الفارابيّ: لأنَّ مدار الأمر في كتابي على واجب الوجود وهو اللَّـه، ولهذا بحثت في كلِّ فصٍّ جملةً أو قضيَّةً وجوديَّة تتعلَّق بالإله أو بالنبيّ أو بالإنسان عامَّة أو بالمَلَك، وتحدَّثت عن أحوال النفوس، وعن

الوحي، والفرق بين المحسوس والمعقول، والفرق بين القوى الحيوانيَّة والنباتيَّة، والسببيَّة، والقضاء والقدر، وما سوى ذلك من القضايا.

فقال الترمذيُّ: أنت يا أبا نصر الفيلسوف الذي جمع بين أفلاطون الإلهيّ وأرسطو العقلانيّ، أو بين الحكمة الشرعيَّة والحكمة العقليَّة.

فقال الفارابيّ: إنَّ ما انتهيتُ إليه هو ما ذكرته في كتاب «فصوص الحِكَم» حين قلت: «إنَّ لك منك غطاءً، فضلًا عن لباسك من البدن، فافهم أن ترفع الحجاب وتتجرَّد، فحينئذٍ تلحق، فلا تَسَلْ عمَّا تباشر... فترى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خَطَرَ على قلب بشر، فاتَّخِذْ لك عند الحقّ عهدًا إلى أن تأتيه فردًا. وإن سلَّمت فطوبى لك، وأنت في بدنك كأنَّك لست في بدنك، وكأنَّك في صقع الملكوت».

فقال الترمذيُّ: بورك فيك يا أبا نصر، فإنَّك من الطائفة المنصورة، وهذا ما نُعلِّمه لأصحابنا وأبنائنا في الطريقة.

ثمَّ التفَتَ الترمذيُّ إلى أبي العلاء، وقال له: لقد قلت في إحدى قصائدك:

خفِّفِ الوطأَ ما أظنُّ أَدِيمَ الـ أرضِ إلَّا من هذه الأجسادِ

إنَّ هذا المعنى الذي سَبَقْتَ إليه يا أبا العلاء قد صاغه عُمَرُ الخيَّام[1] بعدَك بزمانٍ حين قال:

فَامْشِ الهُوينَا إنَّ هذا الثَّرَى منْ أعينٍ ساحرةِ الاِحْوِرار

وأراه قد وُفِّقَ في هذا المعنى، لأنَّه جعل المشي على الأعين الساحرة بدل المشي على الأجساد البالية.

---

(1) نبّه عبد الفتاح كيليطو إلى هذا الربط بين بيت المعرّي وبيت الخيَّام في كتابه «أبو العلاء المعرّي أو متاهات القول»، دار توبقال للنشر.

فقال المعرّي: لا يَغِيبَنَّ عنك يا أبا عبد اللّـه أنَّ الخيَّام بنى على المعنى الذي كنتُ أَوَّل من اهتدى إليه، لكنَّه تأدَّب معي حين أشار من طَرْفٍ خَفِيٍّ إلى الأعين المبصرة التي تنظر إلى الواطئ تُسائِله فَيَتَسَمَّرُ في مكانه ولا يهتدي إلى المشي. هل كان الخيَّام يشير إلى عين محبوبته أم كان يتستَّر بها ليشير إلى عين شاعر معرَّة النعمان الذي فتق القولَ في هذا المعنى، فحيَّاه بهذه الالتفاتة معترفًا له بالسَّبْقِ والريادة. إنَّها عينُ البصيرة التي غلبت عينَ الباصرة يا أبا عبد اللّـه.

فقال الترمذيُّ: واللّـه لقد سَبَقْتَ إلى هذا المعنى يا أبا العلاء، كما سَبَقْتَ إلى استخراج مكنون ما في بيت الخيَّام من الإشارة إليك. والآن ليس عندي من شكٍّ بأنَّ تلك العيون الساحرة الاحْوِرَار كانت إشارةً إلى عين بصيرتك يا أبا العلاء، فأنت العينُ التي ترقُبُ الواطئين على الأرض دون مراعاة حرمتها.

لكنْ قل لي، لماذا اعتبرت الحياة جِناية وجعلت الإنْسَالَ شرًّا؟

فقال المعرّي: فعلًا لقد أَوْصَيْتُ أن يُكتبَ على قبري بأنَّ والدي جنى عليَّ بإهدائي الحياة، وأنا قد وضعت حدًّا لهذه الجناية، فلم أتزوَّج ولم أُعقِّب ولدًا ولاخلَّفتُ نَسْلا.

فقال الترمذيُّ معترضًا: لكنَّكَ رأيتَ أن تُعَقِّبَ شعرَك وحكمَتك وأدبَك.

فردَّ المعرّي: رأيتُ أن أُعَقِّبَ ما يتعلَّق بالعربيَّة من علوم وآداب، فهو أنفع للعباد من أن أُعَقِّبَ نَسْلًا كفيفًا يتعذَّب بعذابات أهل الدنيا.

ثمَّ قال الترمذيُّ: يا أبا العلاء، لقد جعلت المغفرة عنوانَ إدخالِ الشعراء إلى مدينتك الفاضلة في رسالة الغفران، وكان السُّؤال الذي يتردَّد دومًا حين يلتقي صاحبُك ابنُ القارح أولئكَ الشُّعراء هو: «بِمَ غَفَرَ

اللَّـهُ لك؟»، وبدوري أريد أن أسألك: إذا كنت ترى أنَّ إهداء الحياة جناية، فكيف ترجو أن يغفر اللَّـه لك، وأنت تمنع الحياة عن غيرك؟

فقال أبو العلاء: رحمة اللَّـه أوسع من شفقتي يا أبا عبد اللَّـه، ولولا أنَّه رحمني لما جعلني أشفق على غيري برفض التزاوج والإنجاب. لقد جعلتُ روايةَ بيتٍ من الشِّعر شفاعةً لكلّ الشعراء الكبار الذين دخلوا جنَّة الغفران. فالشعر بابٌ مُشْرَعٌ للرحمة يا أبا عبد اللَّـه، وإنّي وإن لم أُعَقِّبْ ولدًا، فقد عقَّبتُ شعرًا وأَنْسَلْتُ أدبًا، وأرجو اللَّـه أن يغفر لي بذلك.

فقال أبو عبد اللَّـه الترمذيُّ: تلك إذن هي مدينَتُك الفاضلة بين الشُّعراء والأدباء وأهل اللغة العظام، وكيف لا يُغفر لك وقد جعلتَ للشِّعر جَنَّة. يا أبا العلاء، ما أشكُّ في أنَّ أولئك الشعراء وغيرهم لن يهدأ لهم بال حتى يَرَوْكَ في جمعهم وعلى سرير مملكتهم. فطوبى لك بمدينتك الفاضلة.

ثمَّ أضاف: لكنْ، قل لي يا أبا العلاء، لقد ذكر الشُّعراء أنَّ لهم قرينًا من الجِنّ هو الذي يلهمهم في وادي عبقر، بَيْد أنّي وجدت أنَّ إبليس مَقْصِيٌّ من جنَّة الغفران رغم أنَّه قد يكون ألهم بعض الشُّعراء في ذلك الوادي، ولعلَّه أن يكون أعظم شاعرٍ على الإطلاق.

فقال أبو العلاء: رغم أنَّ كثيرًا من هؤلاء الشعراء قد ألهمهم إبليس، فإنَّهم خالفوه أحيانًا. وبسبب هذه المخالفة استوجب مقامُهم الجنَّةَ، واستوجب مقامُه النَّارَ. إنَّ جنته التي حازها هي أنَّه أُمْهِل الأمدَ كلَّه من بَدْءِ معصيته وغوايته إلى قيام الساعة. إنَّ الشَّرط الذي يُدخل الجنَّة أو يُدخل النار هو قولةٌ تلخِّصُ كلَّ قول الأديب أو الشاعر طوال حياته. فلا يُدخِلُ النارَ ديوانٌ شعريٌّ بكامله، بل يكفي بيتٌ واحد لأنْ

يُدخِلَك الجنَّة أو يُؤَبِّدَك في النار. وقد استوجب إبليس النار بسبب كلمةٍ قالها.

فقال الترمذيُّ: هذه مرتبة خطيرة للقول الأدبيّ والشعريّ. وقد أَعْلَيْتَ من شأنهما حتى جعلتَه مُوجِبًا لدخول الجنَّة أو النار، وأغفلتَ الأعمال والنوايا، وهي أَوْلى بهذا الإيجاب في حكم الشرع.

قال أبو العلاء: للشعر شرعٌ خاصّ وحكمٌ مخصوص يا أبا عبد اللّـه، ونِيَّة الشعر نيةٌ وجوديَّة تسمو على النيَّة المقرونة بالعمل.

فقال الترمذيّ: وما قصَّة كتابك «الفصول والغايات»، هل هو كما يزعم بعض الناس أنَّك أردت به محاكاة للقرآن؟

فقال أبو العلاء: سأجيبُكَ ممَّا ورد في هذا الكتاب. قلت: «عَلِمَ رَبُّنَا ما علم أنّي أَلَّفْتُ الكَلِم، اَمَلُ رضاهُ المسلِم، وأتَّقي سخطَه المؤلم، فَهَبْ لي ما أبلُغُ به رضاكَ من الكَلِم والمعاني الغِراب». وقلت أيضًا «أُقسِم بخالق الخَيْل، والعِيسِ الواجفة بالرَّحيل، تطلبُ مَواطن حُلَيْل، والريح الهابّة بِلَيْل، بين الشَّرط ومطالع سُهَيْل، إنَّ الكافرَ لطويل الوَيْل، وإنَّ العُمْرَ لمكفوفُ الذَّيْل...»

يا أبا عبد اللّـه، هذا كتاب عِظاتٍ ومُناجيات وتمجيدٌ للّـه تعالى وإيمانٌ به، فكيف يكون معارضةً للقرآن الكريم؟

وإنّي لأعجب أن يدَّعِي خصومي وأعدائي هذا القولَ المتهافت، وإنَّما فعلوا ذلك حسدًا من عند أنفسهم، وتسترًا على حقيقة ما كنت أَجْبَهُ به الفاسدين من قولٍ قَارِعٍ وإدانَةٍ جافيةٍ شافِيَة. ثمَّ كيف تصحُّ معارضة القول الإلهيّ أصلًا، والجامع بين القديم والحادث مرتفع؟ إنَّ تجويز المعارضة عند هؤلاء يدُلُّ على تشبيه الحادث بالقديم، وهذه فريَّة

عظيمة لم ينتبه لخطرها حُرَّاس العقيدة المفتّشون على ما في القلوب والضمائر.

فقال الترمذيُّ: ليس فيما ذكرتَ ما يستوجبُ إدانتَك أو مؤاخذتَك، لكنَّ أعداءَك يقولون بأنَّ ظاهرَ الكلام إيمانٌ، والقصدُ منه معارضة القرآن. فالكلام حول القصد لا حول نتيجة القصد.

فقال المعرّي: التفتيش عمَّا في القلوب ممَّا لا يعلمه إلَّا خالقُ البريَّات، وهذه التلويحات مرسومُ إدانةٍ لهؤلاء، فكيف نحكم على هذا الكتاب بإخفاء قصدٍ هو على عكس ما جاء فيه؟

فقال الترمذيُّ: يا أبا العلاء أنت فسحتَ لهم هذا الباب لأنَّك صاحب ديوان «لزوم ما لا يلزم»، فقد جعلوا المدخل إليك من هذا الديوان.

فقال أبو العلاء: صدقت يا أبا عبد اللّـه، فأنا القائل:

بني زمني هل تعلمون سرائرًا عَلِمْتُ ولكني بها غيرُ بائحِ

فقال الترمذيُّ: يحقُّ لهم أن يفترضوا أنَّه إلى جانب ما تُصَرِّحُ به هناك ما تُخفيه ولا تَبوحُ به ولا تُعلِنُه. فالسيرة التي دفعَتْ خصومَك إليك هو أنَّ ما تقولُ أقلُّ بكثير ممَّا لم تَقُلْ وتركْتَه مطويًّا في أخاديد أقوالك، وهذا يَفْسَحُ البابَ أمام محاكمة النِّيَّات، ومحاكمة الصَّمت. إنَّ ما تركتَه مخفيًّا مطويًّا بين السطور يثير كلَّ الظنون، ويدعو إلى اتِّهامك وإذايتك.

فقال أبو العلاء: نعم، أنا مدركٌ تمامًا لهذه الحقيقة، وهي من طبيعة أيِّ قول، وأحسب أنَّ أبا نصر قد سلك مثل هذا المسلك، فكلامه الذي بين السطور هو غير كلامه الذي جرت به تلك السطور[1]

(1) يرجع في هذا إلى الدراسات القيّمة التي أنجزها الفيلسوف الأميركيّ لِيُو شتراوس (1899 ـ 1973)، المتخصّص في فلسفة أبي نصر الفارابي، والتي أوضح فيها هذه الخاصيَّة في الكتابة الفلسفيَّة عند الفارابي.

ثمَّ التفتَ الترمذيُّ إلى أبي الطيِّب قائلًا: وأنت يا أبا الطيِّب، إنِّي لمَّا سمعتُ سيرةَ حياتِك، أدركتُ أنَّ مأساتَك بدأت بالمطالبة بِنَسَبك، وأنَّك حين لم تدرك ذلك من بني قومك، سموتَ بهذه القضيَّة إلى قضيَّة أُمَّتِك التي رأيتَ أنَّها غُلِبتْ على أمرها من دولة الخدم كما تسمِّيها. ثمَّ إنَّ هناك قضيَّةً ثالثة بقيَتْ مَكبوحَةً في ضميرك تختلج بين السُّطور وتتوارى خلف الكلمات هي التي كانت تحرِّكك، إنَّها قضيَّةُ حُبِّ خولةَ الذي لم يُقَدَّرْ لك أن تنالَه كما كنتُ تؤمِّل.

فاعترض أبو العلاء ووجَّه الكلام للترمذيّ: لقد سألتني عن تهمة المَزْدَكَة ومحاكاة القرآن ومعارضته التي صاغها أعدائي ضدِّي، بَيْدَ أنَّك يا أبا عبد اللَّه أغفلت هذه القضيَّة في قضاياك الثلاث عن أبي الطيِّب.

فقال الترمذيُّ: إنَّ قضيَّةَ النُّبوَّةِ حماقةٌ وتهمةٌ لا تصمُد أمام الحقائق الناصعة. وقد رُكِّبَتْ على القضيَّة الأولى والثانية في سيرة أبي الطيِّب، إذ لولا مُطالبَتُه بنَسَبه ودفاعه عن أُمَّتِهِ لما اتُّهِمَ بهذه الكذبة الملفَّقَة. وهي تهمة متأخِّرة ظهرت في آخر حياة أبي الطيِّب، وإن كانت إرهاصاتُها بدأت قبل ذلك إلَّا أنَّها بقيت محدودة. فقد كان فَاشِيًا في أهل الكوفة أنَّهم يضيِّقون على أنفسهم في كلِّ شيء حتى في الأسماء، فيتداعَوْنَ بالألقاب، ولمَّا رأوا أبا الطيِّب يُكثر من الوعيد والنذير في شعره لَمَزُوهُ بلقب «المتنبِّي» لأن «النبي» هو من كان بشيرًا نذيرًا، فغلب الأمر الثاني على الأوَّل لأنَّ الخوفَ يغلب الرجاء.

فقال أبو الطيِّب: نعم، لقد كان لقب «المتنبِّي» مزحةً كوفيَّة ثقلت عليّ في البداية ثمَّ أغفلتها حتى أَلِفْتُهَا لمّا كانت عندي مُفْرَغَةً من حقيقتها. ثمَّ أضاف: إنَّ هذه القضايا الثلاث التي ذكرتَ يا أبا عبد

اللّـه هي التي كانت تحرّكُ حياتي، فقد عشتُ أوّلَ الأمر أحاولُ أن أُثبتَ نَسَبي، لكنّي جُوبِهتُ بقومي يمنعونني من ذلك لنصرة قضيَّةٍ ليست قضيَّتي ودعوةٍ دينيَّة وسياسيَّة ليس لي فيها دخلٌ ولا أرب. ثمَّ إنّي لما رأيت أنَّ إثبات النَّسب لم يَعُد يُغني أو يُجدي، عوَّضتُ سَعْيِي بالنُّصْرة لأمَّتي العربيَّة في كَنَفِ أَمِيرٍ عربيٍّ هُمَام. وهناك ظهرت القضيَّة الثالثة حين وقعت في حبِّ أختِ هذا الأمير فملكَتْ عَلَيَّ حياتي كلَّها، لكنّي لم أكن أستطيع أن أبوحَ بهذا الحبّ، إذ ليس مقبولًا في عُرْفِ النَّاس أن يُحِبَّ الشُّعراءُ المتكسَّبون بناتِ الملوك والأمراء، وأخواتِهم.

هذه مأساتي، أيُّها الحكماء. كنت ابنَ سيِّد قوميّ لكنّي لم أكن أستطيع التصريح بذلك علنًا، وناصرت أمَّتي فاستعداني العجم الذين كانوا قد ملكوا أمر البلاد العربيَّة. ثمَّ إنّي أحببت أخت أمير العرب فعابني الزمان لانحطاط قدر الشعراء عن طلب بنات الأمراء، ولم أكن أستطيع أن أعلن بملْءِ فمي أنّي ابنُ الإمام. لقد كنت أتكتم على أمريْن لا يطلبان إلَّا الاستعلان والظهور. فالحبّ مهما كُتِم استُعلن، ومهما حاول صاحبُه إخفاءَه فضحته جوارحه وخانته كلماته. والنَّسَب هو ممَّا يطلب الظهور ولا يحتمل الإخفاء، فأن تنتسب يعني أن ترتبط بسلسلةٍ من الآباء والأجداد. وكلَّما طالت سلسلة النسب كان ذلك أدعى للفخر والإظهار. كانت مأساتي الحقيقيَّة هذا الاضطرار القسريّ إلى كتم هذيْن الأمريْن.

فقال الترمذيُّ: فعلًا يا أبا الطيب، إنَّ سيرة حياتك مأساةٌ حقيقيَّة. كنتَ ابنَ سيِّد، والنَّاسُ يَرَوْنَكَ ابنَ سقَّاء أو شاعرًا فقط، يمدح الأمراء ويتكسَّبُ بالشِّعر، وأحببتَ امرأةً فكان الشَّرط للفوز بها أن تكون سيِّدًا لا شاعرًا. إنَّها أيضًا مأساة الشعر الذي يرغب فيه الملوك والأمراء، لكنَّهم

لا يرضون تزويجَ بناتِهم للشُّعراء الذين يقولون ذلك الشعر تكسُّبًا، فقد كانوا يرونهم بمنزلة الخدم، فهل يجوز أن يطلب خادم يد ابنة سيِّدِه؟

إنَّها مأساة مزدوجة يا أبا الطيِّب، لقد كنتَ في منطقة الوسَط التي يستعصي عندها الانتماء، فلا أنت شاعر مثل الشعراء، ولا أنت سيِّد كسائر سادات القوم. وقد كرهك الشُّعراء لأنَّك ارتفعت عن قَدْرهم، وكرهك الأمراء لأنَّك ادَّعيت أنَّك منهم أو أعلى منهم. فصرتَ وحيدًا غريبًا، فرفضك هؤلاء وأولئك واستَعْدَوْك بقدر إقرارهم الضمنيّ بفضلك.

فقال أبو الطيِّب: صدقت يا أبا عبد اللَّـه، فلم يبقَ لي إلَّا أن أكون شاعرًا مختلفًا عن سائر الشُّعراء، وسيِّدًا مختلفًا عن سائر السادات.

فقال الترمذيُّ: وفي شعرك أثرٌ لهذه المأساة، وفي انتقالاتك العجيبة يظهر مكنونُ ضميرِك، وتَفاسُحُ نفسِك للتَّعبير عن هذه الأشجان الموجعة. إنَّ معانيك، يا أبا الطيِّب، نابعةٌ ممَّا في قلبك من آمال وآلام، فهي تتولَّد بينهما، وتتخلَّق في باطنك ثمَّ تنفجر فجأةً وقد كَسَوْتَها من البيان حُلَلَ الحِكمة الخالدة، فأنت خاتمةُ الشُّعراء وسيِّدُهم بلا منازع. ولا شَكَّ أنَّ موقِعَك في الأبراج العالية المُشْرِفَة من المدينة الفاضلة.

* * *

ثمَّ التفت الترمذيُّ للجماعة وقال لهم: أيُّها الحكماء الفضلاء المقدَّمونَ في الفلسفة والشعر والأدب، لا يخفى عليكم كثرة الدعاوى التي استطال لسانُها في الولاية من غير المحقِّقين. وإنِّي لمَّا أردتُ الذَّبَّ عن الحقّ، ودَفْعَ هذه المهلكات، قُمْتُ فَجَرَّدْتُ سبعًا وخمسينَ ومئةَ مسألة أعددتها لتمحيص المدَّعين من المحقِّقين. ولم يُوَفَّقْ إلى الجواب عنها بالتَّمام إلَّا الإمامُ الختم الذي عليه مَدار الولاية بالتَّمام

والكمال. والجواب عنها لا يستقيم إلَّا لمن تحقّقها على ثلاث مراتب من الذَّوق والشُّرب والرّيّ، وهي ليست من ثمرات النَّظر ولا من الضرورات العقليَّة، بل هي من نتائج التجلِّيَّات الإلهيَّة. وها أنا أُلقي عليكم أوَّلَ سؤال من هذه المسائل، فلتجيبوني إن كنتم أختامًا، كما تدَّعون: كم عدد منازل الأولياء؟

تفضَّلوا. هل من مجيب؟

سكت الثلاثة ولم يَحِرْ أحدٌ منهم جوابًا.

بعد سكوتٍ ثقيل كان بيانًا في غير كلام يدلُّ على عجزٍ وحيْرة، قال الترمذيُّ: سأجيبكم أيُّها السادة عن هذا السُّؤال بعدما عجزتم عن الجواب.

سكت قليلًا، ثمَّ أضاف: منازل الأولياء على نوعيْن حسِّيَّة ومعنويَّة. والحسِّيَّة على عدد سور القرآن، والمعنويَّة عددها 248 ألف منزل.

فقال أبو العلاء: ومن أين استخرجتَ هذا العدد يا أبا عبد اللَّـه؟

فقال الترمذيّ: إنَّ من رحمة اللَّـه بعباده أن جعل على قدم كلّ نبيّ وليًّا وارثًا، وعدد الأنبياء 124 ألف نبيّ، فلكلّ نبيّ منهم وارثٌ محمَّدي هو أكمل الوَرَثة، وقد يزيد الورثة من الأولياء على عدد الأنبياء، وعلوم الأنبياء لا ترتفع من الدنيا بل قلوب الأولياء أوعية لها، وتقسم عليهم، ولكلٍّ وارثٍ ذوقان أو معراجان، ذوقٌ من كونه على قدم ذلك النبيّ؛ وذوقٌ من كونه على قلب ذاك النبيّ، أيْ أنَّهم تابعون لهم متَّبعون، واقفون على آثارهم وشرائعهم. فإذا سرى عددُ الأنبياء في نَوْعَيْ ذوقِ الوراثة ومعراجِها خرج ذلك العدد الأوَّل (248 ألفًا). والأولياء طبقاتٌ في تحصيل هذه المنازل.

ثمَّ قال أبو الطيِّب: واللَّـه إنك ستمضي في أسئلتك وسَنَعْجَزُ عن الجواب عنها، وستقول لنا في النهاية بأنَّ الختمَ رجلٌ آخر من غيرنا.

فقال الترمذيُّ: لقد اختبرتكم بالسؤال الأوَّل، وقد عَجَزْتُمْ عن الجواب، والختم لا يَعْجَزُ عن الإجابة. وحتى لو أجبتم عن باقي الأسئلة، فإنَّ عدم الجواب عن واحد منها يَخْرِمُ الشَّرْطَ في استحقاقكم مقامَ الختم.

فقال أبو الطيِّب: ومن يضمن لنا أنَّ هذه الأسئلة هي المقياس لمعرفة الختم؟

فقال الترمذيُّ: لقد استخرتُ اللَّـه فيها، وإنِّي تلقَّيتها من الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ في مشهدٍ برزخيٍّ، ولا يخفى عليكم أنَّ هذا العبدَ الصَّالح قد آتاه اللَّـه العلمَ اللَّدُنِّي، وأنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قد صَحِبَهُ وتعلَّمَ منه ما علَّمَه اللَّـه.

فقال أبو الطيِّب: يا أبا عبدِ اللَّـه، أَمْرُ الخَتْمِ غَيْرُ مُسَلَّمٍ به، فالشيعة يقولون بأنَّ صاحبَ مقامِ ختْمِ الولاية العامة الكلِّيَّة هو الإمامُ علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ. أمَّا الختمُ المحمَّدي الخاصّ فهو الإمامُ محمَّد المهديّ، الثاني عشر من أئمة آل البيت الكرام عليهم السلام، وهو الوالد الذي غُبِنْتُ في النسبة إليه، ونُكِبْتُ في التَّصريح بِأُبُوَّتِه، وهو مَنْ هو في المنزلة عند آل البيت، عدا عن أنَّهم يَعُدُّونَه خَتْمَ الولاية المحمَّدي، وأنا ابنه، فلي حظ من هذه الختميَّة التي تزعم أنها لرجلٍ آخر يا أبا عبد اللَّـه.

فقال الترمذيُّ: الأمر ليس وراثةً طينيَّة ولا مسألةً تترتَّب بالقياس يا أبا الطيِّب. إنَّما الختميَّة المحمَّديَّة لرجلٍ من غير آل بيت النبيّ، وهي اصطفاءٌ إلهيّ. وإذا كان الأنبياء قد نصرهم ربُّهم بالمعجزة، فإنَّ الختم قد جعل له الحقّ علامات.

فقال أبو الطيِّب: أليس من بين علامات الختم وجودُ شامَة على كَتِفِه مثل البيضة في الحجم يا أبا عبد اللَّـه؟

تهلَّلتْ أساريرُ أبي الطيِّب، ولم يترك الفرصةَ لأبي عبد اللَّـه حتى يجيب، بل سارع بكشف ثيابه لِيُظْهِرَ لهم الشَّامة التي على كتفه، وقال: ها هي العلامة التي تتحدَّث عنها يا أبا عبد اللَّـه.

فقال الترمذيُّ: رويدكَ يا أبا الطيِّب، فَكَمْ من الناس له مِثْلُ هذه العلامة، ولا يجعل منهم وجودُها أصحابَ خصوصيَّة، فهناك شروطٌ غيرها. بل لعلَّ مِثْلَ هذه الشَّامة قد تكون عند الأشرار.

فقال أبو الطيِّب: طيِّب، هاتِ يا أبا عبد اللَّـه ما عندك من علاماتٍ أخرى حتى ننظر في هذا الأمر.

فقال الترمذيُّ: من خصائص الختم أنَّه قد حاز علم الأولياء على التمام وفق مبدأ الصدق، ومبدأ المنَّة. فالأوَّل إنسانيّ، والثاني إلهيّ، أو على الأصحّ، إنَّه إلهيّ من حيث مصدَرُه الفاعل، وإنسانيّ من حيث مظهَرُه القابل. وبين هذيْن المبدأيْن يتوزَّع الأولياء إلى صنفيْن كبيريْن، أولياء حقّ اللَّـه، وأولياء اللَّـه. وقد حرَّرتُ سبعًا وخمسين ومئةَ مسألة لأمتحن الأدعياء، وقد سألتكم أوَّل الأمر مسألةً فعجزتم، وبذلك انتَفَتْ حُجَّتُكُمْ، لكنَّ هذا لا يمنع أنَّكم أيضًا أختامٌ بالمعنى المقيَّد؛ فأنت يا أبا الطيِّب لا شكَّ أنَّكَ ختمُ الشعراء، فلم يبلغ أَحَدٌ شأوَكَ فيما آتاكَ اللَّـه من هذا الوَهْب الإلهيّ، ويكفيك هذا القدر من الشرف العظيم.

ثمَّ التفتَ إلى الفارابي، وأنت يا أبا نصر قد فُقْتَ أهلَ زمانِك، بل أهلَ الزمان في كثير من المعارف حتى أنَّكَ أحصيتَ العلوم، وبلغتَ

شأوًا عظيمًا بين الحكماء الفلاسفة، وأنت بلا شكّ ختمُهم إذ كان أستاذُك أرسطو «المعلّم الأوّل» مبدأَهم، ويكفيك أنّك معلّم الإنسانيّة.

أمّا أنت يا أبا العلاء، فلا شكَّ أنّك ختمُ الأدباء الحكماء، ولا ريب في ذلك.

تنفَّس أبو عبد اللّـه الترمذيُّ بعدما رَدَّ دعاوى الحكماء الثلاثة في استحقاق الختميَّة، وقال: دعوني أخبركم عن فتى فائت، ناطقٍ صامت، لم أُدْرِكْهُ ولم تدركوه، لكنَّه حاز هذا المقام واستحَقَّه دون سائر الأنام.

فقال ثلاثَتُهُمْ: ألا تخبرنا عن هذا الفتى، وعن سِرِّ هذا الاستحقاق يا أبا عبد اللّـه.

فقال: لقد حرّرتُ المسائل السَّالفةَ الذِّكْرِ وتحدَّيتُ بها أذكياءَ العالم، وأولياءَ الأُمَّة، فلم يَنْبُغْ منهم واحدٌ استطاع أن يجيبَ عنها. وبعد مُضِيِّ ما يَقْرُبُ من ثلاثة قرون، ظهر فتًى عربيّ في بلاد المغرب والأندلس اسمه محمَّد بن علي ابن العربيّ الحاتميّ، طار صيته في الدنيا حتى حرص القاضي أبو الوليد بن رشد الفيلسوف في لقائه، وهو بَعْدُ في سنِّ الحداثة، فبهره بما كان يَفيض به من علوم، واعترف أبو الوليد له بمقامه، وشكر اللّـه تعالى الذي كان في زمانٍ رأى فيه من دخل خلوته جاهلًا وخرج مثل هذا الخروج من غير درسٍ ولا بحثٍ ولا مطالعة ولا قراءة، وقال: «هذه حالة أثبتناها وما رأينا لها أربابًا، فالحمد للّـه الذي أنا في زمانٍ فيه واحدٌ مِنْ أربابِها الفاتحينَ مَغالقَ أبوابها، والحمد للّـه الذي خَصَّني برؤيته».

ثمَّ أضاف الترمذيُّ: يا أبا نصر، هذه شهادة موثَّقة من واحدٍ من كبار فلاسفة الدنيا في كل العصور قد التقى هذا الفتى وهو لم يتحقَّق

بعد بمقام الختم، لكنَّه لمح فيه إرهاصات تلك الختميَّة، فدوَّن شهادَتَه للحكماء حتى لا يتعصَّبوا لفنِّهم في تقدُّم غيرهم عليهم بما وهبه اللَّـه لهذا الفتى من العناية الخاصَّة.

فقال أبو العلاء: هذه شهادةُ رجلٍ واحدٍ.

وأضاف أبو الطيِّب: وإن بَلَغَ مَا بَلَغ، فهو غيرُ معصومٍ في قوله، وشهادَتُهُ شهادةُ فيلسوفٍ وفقيهٍ مجتهدٍ لا تُلْزِمُنا، وإنَّما تُلزِمُ صاحبَها، فهل عندك غير هذا يا أبا عبد اللَّـه لتُقْنِعَنا باستحقاق هذا الفتى لمقام الختم المحمَّديّ؟

فقال الترمذيُّ: أرى أنَّ أبا نصر قد سكتَ أيُّها الحكماء، والسكوتُ علامَةُ الرِّضَى، لأنَّه يعلم أنَّ شهادةَ ابن رشد شهادةٌ مُوفِيَةٌ بالاستحقاق، وبقي عليَّ أن أُقْنِعَكُمَا وأجِدَ السَّبِيلَ إلى إذعانِكُما للحَقِّ.

فقالا معًا: أي واللَّـه، قُلْ ما عندك.

فقال الترمذيُّ: لقد مضت ثلاثةُ قرونٍ على أسئلة امتحان أدعياء الولاية، ولم يتقدَّمْ أحدٌ حتى طلع هلال هذا الوليّ من مَغْرِبِ الأرض. أمَّا العلامة الحسِّيَّة مثل التي على كتفك يا أبا الطيِّب، فقد كانت له علامةٌ هو أيضًا على كتفه تشير إلى ختميَّته للولاية المحمَّديَّة، حتى قال:

ولما أتاني الحقُّ مبشِّرًا ... بأني ختامُ الأمر في غُرَّة الشَّهر
وقال لمن كان في الوقت حاضرًا ... منَ الملأ الأعلى ومِنْ عالم الأَمْرِ
ألا فانظروا فيه فإنَّ علامتي ... على خَتْمِه في موضع الضرب في الظهر

وكانت على قدر بَيْضِ حمامةٍ وراثةً من النبيّ عليه الصلاة والسلام الذي كانت له علامة ختميَّته للرسالة بين كتفيْه كما هو معلومٌ من سيرته العطرة.

ثمَّ إنَّ إرهاصات ختميَّة هذا الوليّ قد ظهرت له أوَّل مرَّة كما أخبر بذلك في مدينة فاس ببلاد المغرب سنة 594 للهجرة، ثمَّ ظهرت له مرَّةً ثانية في المدينة نفسها. وقد قال في هذا المعنى شعرًا:

أتاني رسولُ الحقِّ ليلًا مبشِّرًا بتوقيعه فيما مُلِّكْتُ من الأمرِ
فأفرحني ذاكَ الخِطابُ ونصُّهُ بأَنَّ لنا فيه أمانًا من المكر
فقمتُ مقامَ الشَّاكرينَ وراثةً كماقام من يدري على قَدَمِ الشُّكر

وقد دوّن هذه الواقعة بقوله: «اعلم أيَّدنا اللَّـه وإيَّاك أنَّ سببَ هذه الأبيات ما أذكره، وذلك أنَّ الحقَّ تعالى لم يكن أوقفني على صورة توقيعه لي بما جعل لي من الولاية المعنويَّة في العالم حين أعلمني أنِّي خاتَمُ الولاية المحمَّديَّة بمدينة فاس، أظنُّه سنةَ أربعٍ وتسعينَ وخمس مئة، وأعطاني العلامةَ بذلك بين كتفيَّ، فعاينته في الواقعة مع جملةٍ من الملائكة مُبشِّرين لي بذلك. ولمَّا كانت ليلةُ الخميس منتصف شهر ربيع الأوَّل سنة ثلاثين وست مئة بمحروسة دمشق، أوقفني الحقّ تعالى في مُبَشِّرَةٍ نبويَّة على التوقيع الذي كتبه لي بذلك في ورقةٍ بيضاء، كأنِّي الآن أنظر إلى حُسْنِهِ وبَضِّهِ وهيئته».

وقد ذكر ما رآه في هذه المبشِّرة عن هذا التوقيع الإلهيّ بتنصيبه ختمًا محمَّديًّا، وليس بعد هذه الشهادة شهادةٌ لأحد لأنَّها شهادة إلهيَّة، وما علمنا هذا الوليَّ كاذبًا أو مُدلِّسًا، مَعاذَ اللَّـه. وقد أيَّده الحقُّ فانبرى يجيبُ عن تلك الأسئلة التي سَلَفَ الحديث عنها، وأجاب عنها باستفاضة، ولم يترك منها ولو مسألةً واحدة، وبذلك رفع هذا التَّحَدِّي عن هذه الأُمَّةِ المرحومة بأن جعل الختم المحمَّدي واحدًا منها، وليس في غيرها من الأمم.

ثمَّ التفتَ الترمذيُّ إلى أبي العلاء، وقال له: وقد زالتِ هذه المعَرَّةُ يا أبا العلاء، كما زالت المعرَّة التي تحدَّيتَ بها أبناء العربيَّة في سائر الأزمان حين أحصيتَ سبعين اسمًا للكلب ممَّا لم تستطع أن تستوعِبَهُ معاجِمُ اللغة العربيَّة وقواميسُها الكبرى نفسُها، حتى قام فضلاءُ الأُمَّة «بالتَّبَرِّي من مَعَرَّةِ المعرِّي» فنقَّبوا وفتَّشوا حتى أوصلوا تلك الأسماء إلى السبعين بعد جهدٍ جهيد، ونَصَبٍ غير خافٍ على قريبٍ من أهل اللغة أو بعيد. ولو لم يفعلوا لكان اسم الكلاب في العربية سُبَّةً تبقى في العرب مدى الدهر.

فقال أبو العلاء: لقد سألتَنا سؤالًا واحدًا من تلك الأسئلة، وخَلُصْتَ إلى ما انتهيتَ إليه من تقرير الختميَّة في غيرنا، فهلَّا سألتنا سؤالًا ثانيًا لعلَّنا نجيبُك عنه ونعرفُ قَدْرَنا في مدينة الولاية.

فقال الترمذيُّ: معك حقٌّ يا أبا العلاء، لقد سألتكم أوَّل سؤال من تلك الأسئلة عن منازل الأولياء، ولم تجيبوا. وإنِّي أعطيكم فرصةً ثانية. قل لي يا أبا العلاء أوَّلًا: ألستَ أنتَ مَنْ كَتَبَ «رسالة الغفران»؟

فقال المعرِّي: بلى.

قال الترمذيُّ: فأنت أَعْرَفُ بمعنى المغفرة التي خصَّصتَ لها كتابًا كاملًا، وقَصَرْتَ الجنَّة على الشعراء وأهل اللغة، فأدخلتَ فيها منهم تحت جُنْحِ المغفرة الإلهيَّة، وأخرجتَ منها مَنْ أَخْرَجْتَ حين لم تجد طريقًا إلى نجاتهم أو الشَّفاعة فيهم.

فقال المعرِّي: صدقتَ يا أبا عبد اللَّـه.

فقال الترمذيُّ: فأنا الآن أسأَلُكَ آخِرَ سؤال في تلك الأسئلة الروحيَّة، وهو السُّؤال السابع والخمسون ومئة: ما معنى المغفرة التي لنبيِّنا، وقد بشَّر النبيِّين بالمغفرة؟

فقال أبو العلاء: يا أبا عبد اللّـه، لقد كان السَّببُ في وضع «رسالة الغفران» رسالةً وصلتني من شيخٍ حلبيٍّ من أهل الأدب والرواية يُعْرَفُ بابن القارح، وقد شكا إليَّ أمره وأطلعني على بعض أحواله، ثمَّ ذكر جملةً من الزنادقة والملاحدة والمتَّهمين في دينهم، فذكر أخبارهم وسألني أن أجيبه عن ذلك، لكنّي لم أشأ أن أجيب عن الرّسالة إلّا بعدما صدَّرت الجوابَ بقصَّةٍ تجري حوادثها في موقف المحشر والجنَّة والجحيم، وقد سمَّيتُ هذه الرسالة «رسالة الغفران» لأنَّ محورَ النَّجاة من النَّار كان هو المغفرة، وكان السُّؤال الذي يعطي وصفةَ النَّجاة منَ النَّار هو «بِمَ غُفِرَ لك؟» الذي كان يُوَجَّه إلى الشُّعراء. فالمغفرة الإلهيَّة هي مفتاح الدخول إلى الجنَّة، وسَببُها بيتٌ من الشّعر يمحو اللّـه به الصُّحُفَ التي مُلِئَتْ بالمعاصي.

فقال الترمذيُّ: لقد سألتُكَ عن المغفرة التي لنبيِّنا، فلم تُجبني عن سِرِّ هذا السؤال. وها أنا أجيبك يا أبا العلاء بجواب الختم حتى تعلم. قال في الجواب عن هذا السؤال بأنَّ الغَفْرَ هو الستر، وهذا ممَّا لا يخفى عليك يا أبا العلاء، فإنَّك فارس العربيَّة بلا منازع.

وقد سُتِرَ عن الأنبياء عليهم السلام في الدنيا كونُهم نوّابًا عن رسول اللّـه ﷺ، وكُشِف لهم عن سرِّ ذلك في الآخرة في قوله «أنا سيِّدُ النَّاس يوم القيامة» حين تبدو لهم سيادته واضحة بالأدلَّة الساطعة، فيشفع فيهم ﷺ أن يشفعوا، فَبشَّر الحقُّ النبيِّينَ بالمغفرة الخاصَّة، وبشّرَ محمّدًا عليه الصلاة والسلام بالمغفرة العامَّة.

فقال أبو العلاء: لقد ثَبَتَ أنَّه مَعصومٌ لم يُذْنِبْ، فكيف يَستقِيمُ مع قوله تعالى ﴿ليغفرَ لك الله ما تقدَّم من ذنبكَ وما تأخَّر﴾.

فقال الترمذيُّ: الجواب عن هذا السُّؤال أنَّ الخطابَ مُوَجَّهٌ له والمقصودُ مَنْ أَذْنَبَ مِنْ أُمَّتِه. و﴿مَا تقدَّم﴾ من أُمَّتِه ابتداءً من آدم إلى زمانه. و﴿ما تأخَّر﴾ من أُمَّتِه، ابتداءً من زمانه إلى يوم القيامة. فالكُلُّ أُمَّتُه، لأنَّه ما مِنْ أُمَّةٍ إلَّا وهي تحت شَرْعٍ من اللَّـه، وهو شَرْعُ محمَّدٍ عليه الصلاة والسلام. ونظيرُ توجيهِ الخطابِ له والمقصودُ غيرُه مِنْ أُمَّتِه قولُه تعالى ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾، وهو لم يُشركْ قطعًا فالخطابُ موجَّهٌ له والمقصودُ مَنْ أَشْرَكَ مِنْ أُمَّتِهِ؛ وأمثالُ هذا كثير، فَلْنَكْتَفِ بهذا القَدْرِ مِنَ التَّمْثِيل. فالآية بشارةٌ للنبيّ بأنَّه مبعوثٌ للنَّاس كافَّة ﴿وما أرسلناكَ إلَّا كافَّةً للناس﴾، وأنَّ رسالَتَهُ عمَّت العالمين من آدم إلى يوم القيامة، وأنَّ المغفرةَ «لمن تقدَّم» مِنْ ذنوب أُمَّتِهِ من آدم إلى زمانه، و«لمن تأخَّر» من ذنوب أُمَّتِه من زمانه إلى يوم القيامة. فهذه هي المغفرة التي تَعُمُّ جميع الخلق، وهي اللائقة بعموم رحمته لا المقتصرة على طائفةٍ منهم كالشعراء أو من شاكلهم، كما ذهبتَ إلى ذلك يا أبا العلاء في رسالة الغفران، ولا لَوْمَ عليك، لكنْ هناك مغفرةٌ بحسب كل موطن، فهناك مغفرةٌ في الدنيا، ومغفرةٌ في القبر، ومغفرةٌ في الحشر، ومغفرةٌ في النار سواء خرج منها من كان فيها أو لم يخرج، فإنَّ لأهل النار مغفرةً بعد مرور آمادَ معلومةٍ من العذاب يتحوَّل فيها ذلك العذاب في حقِّهم عُذوبةً، مثلما تتحوَّل مشقَّةُ التَّكاليف والكُلْفَةِ كَلَفًا؛ وذلك من رحمة اللَّـه بخلقه ومغفرته لهم بستر عذابه عنهم وإظهاره في صورة النعيم فيستعذبونه. فرحمةُ الختم واسعةٌ لأنَّها تستمِدُّ من رحمة اللَّـه الواسعة بجميع خلقه من مبدئهم إلى ختامهم. وقد جاء جواب الختم وفق هذه الحقيقة بعموم المغفرة والرَّحمة يا أبا العلاء.

سكت أبو العلاء، وقد اقتنع هو الآخر بأنَّ الفتى المذكور حائزٌ قَصَبَ السَّبْق بين الأولياء، وأنَّ محدوديَّةَ المغفرة التي قال بها في رسالة الغفران دلّتْ على محدوديَّة رحمته، وكشفت عن أنانيَّة طلَب نجاةِ مَنْ كان على شاكلَتِه من الأدباء والشُّعراء، وبقي عمومُ الخلقِ لا يشفَعُ فيهم إلَّا مَنْ كان أوسعَ دائرةً وأشملَ رحمة. وقد كانت رسالةُ الغفران شهادةً بمحدوديَّة المغفرة التي قَصَرَهَا أبو العلاء على الشُّعراء والأدباء دون غيرهم. فدلَّت على نزوله عن مرتبة الختم. وكان حرِيًّا به أن يسمِّيها رسالة الغفران للأدباء والشُّعْرَان.

اقتنع الفيلسوف الحكيم والأديب الحكيم بما حاججهم به أبو عبد اللّـه الترمذيّ، وبقي أبو الطيِّب صامتًا، وكأنَّ باطنَه ما زال يشاكس، ثمَّ قال: يا أبا عبد اللّـه: لقد ضيَّقت علينا في استدلالاتك، لكنْ دعني أقول لكم جميعًا أنَّ تَصَدُّري لهذه المرتبة على رأس مملكة الشعراء شهد لي بها الإنس والجن معًا، والمسلم والنصرانيّ...

فقال المعرّي: وكيف ذلك يا أبا الطيِّب؟

فقال أبو الطيِّب: لعلِّي أستدعي لكم شاهدًا من أُمَّةِ الجن مِمَّن نصَّبوني على مملكة الشعر دون منازع؛ أو لعلِّي أتولَّى بنفسي حكاية ما جرى عن عرسِ أقامته أُمَّةُ الجنِّ وتنازعوا حتى اهتدوا إلى إعلان إمامتي على العالمين، ونَشْرِ فِتْنَتِي في ضُراح الشِّعر إلى يوم الدين.

لكنَّكم قد تكونون غير رَاضِينَ، لا محالةَ، أن يَحُلَّ بينكم مَارِدٌ يدنِّسُ هذه الجِنان المنيعة إلَّا على مَنْ كان أصلُه من جِبِلَّةِ النور.

فقال الفارابيّ: واللّـه إنَّ الفضولَ لينتابُنا بشأن هذا التَّبريز الذي قُلِّدْتَهُ من أُمَّةِ الجن، ونحن لم نظفر بتزكيةٍ إلَّا من أمَّة الإنس، وإن شَاكَسَ حكماءُ يونان آلهةَ الأولمب.

فقال الترمذيُّ: نعم، صدق أبو العلاء وأبو نصر، فنحن في أَحَرِّ شَوْقٍ لسماع شهادة الجنِّ بتقليدِك ختمًا على رأس مملكة الشعر.

فقال أبو الطيِّب: ما دام أنكم طِبْتُمْ نَفْسًا بسرد حكاية عرس الجن، فإنِّي موفيكم ما تطلبون حتى تقفوا على فضلي وتقدُّمي وإمامتي.

نعم، أيُّها السادة الأماثِل، والحكماء الأفاضل، لقد اجتمع الإنس والجنُّ على ذلك، ومن جميع العصور. وإنِّي سأَسْرُد عليكم حكايةً من الزمن المستقبل عمَّا حصل أثناء احتفال الإنس بمرور ألف سنة على وفاتي في ثلاث حواضر عربيَّة هي: حلب والقاهرة وبغداد «لإعادة اكتشاف المتنبِّي». وقام الشُّعراء يذكرونني ويقدِّمونني ختمَ الشُّعراء في جميع الأعصار.

فقال المعرِّي: واللَّـه إن هذا لأمر عجب! هاتِ ما عندك يا أبا الطيِّب.

ثمَّ قال الفارابيّ: إنَّ عنوان احتفاليَّة هذه الألفيَّة في حدِّ ذاته عجيب، فكيف لأُمَّة تأتي في الزمان الأخير بعد ألف عام لتكتشف شاعرًا حكيمًا عاش في الزمن المتقدِّم؟

فقال أبو الطيِّب: نعم، هذه مرتبتي في العالمين أيُّها الحكماء، فقد صرت موضوع اكتشاف لأمم المستقبل. لن أسرد لكم كلّ القصائد والكلمات التي قيلت في حقِّي، فسوف يطول بنا ذلك، لكنِّي أكتفي بأبياتٍ من قصيدةٍ لأمير الشُّعراء في زمانه «الأخطل الصغير»، شاعر الهوى والغزل، يذكر تنازُعَ أُمَّةِ الجن بشأني.

فقال أبو العلاء: أراك رميتَ بنا في الزمن المستقبل، وذكرت أميرَ شعراء ذلك الزمن، وقد بلغني أنَّ عميدَ الأدب العربيّ لذلك الزمن، أديبٌ لامِعٌ، ضريرٌ مثلي يُقال له طه حسين قد ذكر أنَّه

الوريثُ الشرعيّ لي، ولكنّي لم أَرَ داعيًا كي أُفاخر به عليكم، ولم يخطر ببالي أن أنتصر لنفسي بفاضلٍ من أُمَّةٍ مَظنونةٍ محجوجةٍ من الخَلَفِ قد انحطَّتْ عن مَراتب الأشياء، ومنها الأدبُ الرَّفيع والبيانُ العربيّ.

فقال أبو الطيّب: مهلًا يا أبا العلاء، فليس صاحبُكَ بشاعرٍ حتى نقبل أن تحتَجَّ به علينا، ولستَ ترضى أن يَنْسُبَ نفسَه وريثًا لك في الشعر، مهما علا قدره في العمادة الأدبيَّة، وأنتَ مَنْ أَنْتَ في البيان الشعريّ والحكمة التي تُطاول الأزمان والعصور، فلو كان شاعرًا لَتَجَوَّزْنا في استدلالك به علينا، لكنَّه محضُ أديبٍ من أدباء ذلك الزمان الذين فشا فيهم اللحن وانحطُّوا عن رتبة العربيَّة في كتاباتهم وكلامهم، أمَّا الشِّعر فليس لصاحبك فيه نصيبٌ ولا قدمٌ راسخ، ولم يدَّعِ لنفسه ذلك. وهيهاتَ لمن كان على هذا النحو أن يقولَ في شعرنا قولًا. أمَّا مبالغة أهل ذلك الزمان فيه فلا يُلتفت لها. ولقد بلغني ما قال في رثائه أحد مشايعيه من شعراء ذلك الوقت، يسمَّى نزار قباني:

ضوء عينيك أم هما نجمتانِ ... كلهم لا يرى... وأنت تراني
ضوءُ عينيكَ أم حوارُ المرايا ... أم هما طائران يحترقانِ
ارمِ نظارتَيْكَ ما أنت أعمى ... إنَّما نحن جوقةُ العُميانِ

ورغم أنَّ الشاعر نزار كان مشايعًا لطه حسين، إلَّا أنَّه لم يَخْلُ من إنصاف، وقضى للسابقين حيث ذكرك في قصيدته حين قال:

ما علينا إذا جلسنا بركنٍ ... وفتحنا حقائبَ الأحزانِ
وقرأْنا أبا العلاء قليلا ... وقرأنا «رسالة الغُفرانِ»

فقال أبو العلاء: إنَّك تزعم أنَّ أهل ذلك الزمان لا قول لهم فينا لأنهَّم انْحَطُّوا عن رتبة العربيَّة بسبب فُشُوِّ اللحن فيهم، لكنَّ زمان الأدب

لا ينحصر في زمننا دون سائر الأزمان، بل زمن الأديب كلّ الزمان. وفي هذا المعنى يقول نزار في القصيدة نفسها:

أنا في حضرة العصور جميعًا فزمانُ الأديبِ.. كُلُّ الزَّمانِ

فقال أبو الطيّب: صدق في قوله، لكنْ ليس هذا موضع إنكار منّا، بل في كون صاحبك من الكُتّاب وليس من الشُّعراء حتى نقبل شهادته وحكمه عليهم. ثمَّ لأنَّ المفاضلة تكون حين يتساوى المتفاضلون في الفضل أو يتقاربون، بَيْدَ أنَّ بيننا وبين أدباء ذلك الزمان الآتي بونًا شاسعًا لا أحسبك تُسَلِّمُ لهم في مجاراتنا في البيان والبلاغة التي جرت عليها أقوالنا وأشعارنا.

ومن مخارم المروءة في فضل صاحبك أيضًا أمرٌ آخر، حيث قد بَلَغنا من مصادرَ موثوقة أنه عولج من العمى، وكان يرى بعينيْه لكنَّه أخفى الأمر وتكتَّم عليه. ويبدو أنَّ هناك شهادةً تؤكِّد صحة هذا الأمر من طبيبه الشخصيّ الذي أجرى له العمليَّة الجراحيَّة في باريس؛ وأيضًا شهادة كاتبه الخاصّ الذي اعترف بعد أن فارقه وتلبَّدت السُّحُب بينهما، وأَقَرَّ بصحَّة إبصاره.

ولقد ردَّ الأديب الشاعر اللبناني بشارة الخوري الملقَّب بالأخطل الصغير على قول نزار المذكور:

«بل ارمِ يا نزار جاهليَّتك كي تدرك أنَّ طه حسين لم يكن أعمى... فقد تعافى من تلك العاهة منذ أربعين عامًا عندما سافر إلى فرنسا».

فها أنت تسمع كيف دلَّس صاحبك على الجميع وأخفى حقيقة عاهته وعماه المزعوم وما هو بأعمى حتى يرتفع نجمه في العلالي، ويقع من التقدير في قلوب الناس موقعًا عظيمًا. وهذا ليس من أخلاق

الأدب والفروسيَّة والمروءة التي نحن عليها ورضعناها من صدور أمَّهاتنا، وسَرَت إلينا من أصلاب آبائنا. وإنِّي لا أَمْحَضُ صاحبَك مودَّتي كما لم يَمْحضني هو محبَّته حين جاهر بعداوتي وبغضي. فإني أردُّ لك من خلف حجاب العصور شنشنته بما يليق به.

فقال أبو العلاء: لا بأسَ، لا بأس يا أبا الطيِّب، لِنَدَعْ شهادةَ هذا الأديب الإنسيّ فينا لأنَّك تطعن في عدالته.

ثمَّ أضاف: وَلْنَسْمَعْ منك، هَلاَّ أسعفتَنا بما آبَ إليه أدباءُ الجنِّ في فضلك.

فقال أبو الطيِّب: بكلِّ تأكيدٍ، ثمَّ سكت قليلًا حتى يستجمع فكره، وقال: اجتمع الأدباء والشُّعراء أكثرهم من الإنس، واستتر عن الأعين شعراء الجنّ وأدباؤهم، وذلك في عام 1354 هجرية[1] على رأس ألف سنة بعد وفاتي في تلك المدائن العليَّة، وتبارَوْا فيما بينهم، ونبغ منهم شاعرٌ إنسيٌّ عربيّ رقيق من أُمّة المسيح، يلقَّب بالأخطل الصغير، مثلما كان الأخطل الكبير على مِلَّة المسيح، فقال قصيدة استهلَّها بقوله عن حَلَب الشَّهباء:

نَفَيْتَ عنك العُلا والظَّرْفَ وَالأَدَبَا وَإِنْ خُلِقْتَ لَهَا إِنْ لَمْ تَزُرْ حَلَبَا

إلى أن يقول بعد ذلك عن اجتماع سَيْفَيْنِ في حلب الشهباء:

ربُّ القوافي على الإطلاق شاعرُهُمْ الخُلْدُ والـمَجْدُ في آفَاقِه اصْطَحَبا

---

(1) ألقيت قصيدة الأخطل الصغير المؤلفة من 77 بيتًا في مدينة حلب عاصمة الحمدانيّين في الذكرى الألفيَّة لوفاة المتنبّي في أكتوبر سنة 1935 ميلاديَّة. وقد ذكر الأخطل الصغير أنَّه حُمَّ في ذلك اليوم حتى تردَّد في حضور الحفل وقرَّر تقديم اعتذاره، ثمَّ فجأةً تلبسَّت به روح المتنبّي، فقام مسارعًا لحضور الحفل، وكأنَّه قد نُفِخَ بطاقةٍ غيبيَّة وقوَّةٍ خارقة.

سيفان في قَبْضَةِ الشَّهْبَاءِ لا ثُلِمَا قد شَرَّفا العُرْبَ بل قد شَرَّفَا الأدَبَا

ثمَّ انتقل إلى ذكر عرس الجنّ:

عُرْسٌ من الجِنِّ في الصحراء قد نَصَبُوا له السّرادقَ تحتَ الليلِ والقبَبا
كأنه تَدْمُرُ الزَّهراءُ مارِجَةً بِمِثْلِ لُسْنِ الأفاعي تَقْذِفُ اللّهبا
أو هضبةٌ من خرافاتٍ مُرقّعةٌ بأعينٍ من لَظًى، أو من رؤوس ظُبَى
تَخاصَرَ الجنُّ فيها بعدما سَكِروا وبعدما احْتَدَمَتْ أوتارُهُمْ صَخَبَا
فأفزعَ الرّملَ مَا زَفُّوا وما عَزَفُوا فطار يَسْتَنْجِدُ القِيعَانَ والكُثُبَا

ثمَّ انتقل يحكي ما أسفر عنه صباح ليلة العرس:

تكشَّفَ الصُّبْحُ عن طفلٍ ومارِدةٍ له على صدرِها زَأْرٌ إذا غَضِبا
كأنَّهُ الزِّئْبَقُ الرَّجْرَاجُ في يدِها أو خَفْقَةُ البَرْقِ إمَّا اهْتَزَّ واضْطَرَبَا
نادى أَبوهُ عَظِيمُ الجِنِّ عِتْرَتَهُ فَأَقْبَلُوا يَنْظُرونَ البِدْعَةَ العَجَبَا
ماذا نُسمِّيه قال البَعْضُ صاعقةً فقال كَلاّ، فقالوا عَاصِفًا، فَأَبَى
فقام كَالطَّودِ مِنْهُمْ مَارِدٌ لَسِنٌ وقال لَمْ تُنْصِفُوهُ اسْمًا ولا لَقَبَا
سَنَبْعَثُ الفِتْنَةَ الكُبْرَى عَلَى يَدِهِ فَنَشْغَلُ النّاسَ والأقلامَ والكُتُبَا
ونَجْعَلُ الشِّعْرَ رَبًّا يَسْجُدُونَ لَهُ فَإِنْ غَوَوْا، فَلَقَدْ نِلْنَا بِهِ الأَرَبَا
وَاخْتَالَ غَيْرَ قَلِيلٍ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ سَمَّيْتُه الـمُتَنَبِّي، فَانْتَشَوْا طَرَبَا
وَزَلْزَلُوا البِيدَ حتى كَادَ سَالِكُها يَهْوِي به الرَّحْلُ لا يَدْرِي له سَبَبَا
يرى السَّرابَ عُبابًا هاجَ زاخِرُهُ والرَّملَ يَلْتَحِفُ الأزهارَ والعُشُبَا

فقال أبو العلاء مستغربًا: أَوَ صِرْتَ نتيجةَ نكاحٍ بين عَظيمِ الجِنِّ ومارِدةٍ منهم، يا أبا الطيّب؟

ثمَّ أضاف: فهل صرتَ ابنَ يومٍ وليلةٍ على خلافِ أَبْناءِ تِسْعٍ من بني آدم؟

فقال أبو الطيّب: وما ذنبي يا أبا العلاء إن أرادت هذه الأمَّة العجيبة أن تفخر بي على غيرها، فقد تفاخر الإنس قبلهم وتنازعوا في نسبتي، وها قد حارت الجنُّ أيضًا وافتتنت بي، فجعلوني جِنِّيًّا تولَّد مِنْ دخول عظيمهم بواحدة من مَارِدَاتهم في ليلة صَخَبٍ وتَخاصُرٍ وخَلاعَة وسُكْرٍ وأتار. لقد صَحَّ عندَهُمْ بِأَقْيِسَةِ المَرَدَةِ **أنَّ عبقريَّ الإنسِ جِنِّيٌّ قَطْعًا**، والنتيجة لمقدَّماتهم المنطقيَّة: **أنَّ أُمَّةَ الجِنِّ أَشْرَفُ منزلةً من أُمَّةِ الإنس**. ولا ريب أن ذلك بدأ منذ مبدأ الخليقة حين أبى إبليسُ السُّجودَ لآدم. فما ذنبي إن صرتُ موضعَ اختلاجٍ وتَنازُع بين أُمَّتَيْنِ لَسِنَتَيْن تدَّعيان البلاغة؟ ثمَّ، أَوَلَيْسَ تَمَرُّدُ الشعراء دليلا على أن الشِّعرَ هو مَارِدُ المَرَدَة؟ ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟

ضَحِكَ الجَمْع من سخرية المتنبِّي وعَبَثِه.

ثمَّ قال أبو العلاء: لكنِّي أرى أنَّ عشيرَتَك من الجنّ قد سَمَوْا في التَّعَصُّبِ لك مرتبةً أعلى مِمَّا فَعَلَتْهُ عُصْبَتُكَ مِنَ الإنْس.

فقال أبو الطيّب: وكيف ذلك؟

فقال أبو العلاء: ألم تُؤَلِّهْكَ الجِنُّ كما قال عَظِيمُهُم؟ بينما اكتفى بعضُ الإنسِ مِنْ أَشْيَاعِكَ بأن جعلوك نبيًّا.

ضحك أبو الطيّب، ثمَّ قال: إنَّما الشِّعْرُ مَجَاز. وليست هذه الدَّعوى التي مَحَضُوني إيَّاها مقصورةً على أُمَّة العرب، بل هي أيضًا موجودةٌ في غيرهم من الأمم. لقد أخبرني أحدُ مَرَدَةِ الجِنِّ من بلاد الغَال، عن أَحَدِ بَلَدِيِّيهِ من الإنس المُقدَّمين عندهم يقال له فيكتور هوغو، من أدباء الزمن المستقبل، مُبرِّزٍ في أغراض الحب والغزل، كان يعظِّم قدري، وقد كتب قصيدةً عن وظيفة الشاعر تحدَّث فيها عن كون

الشُّعراء مثل الأنبياء، ولم يقل تلك المقالة إلَّا استلهامًا من سيرة شاعرٍ عربيّ من الزمن المتقدِّم يُقال له «المتنبِّي»، يقول فيها على طريقة شعرهم المفكَّك الذي هو إلى النَّثِيرَة أو الخاطرةِ أقربُ منه للشِّعر:

«إنَّه الشَّاعر الـمُتربِّعُ فوقَ كلِّ الرُّؤَسَاء،
في كلِّ زمان، شبيهًا بالأنبياء»[1].

سكت أبو الطيِّب قليلًا، ثمَّ واصَلَ من شِعْرِ الأخطل الصغير مخاطبًا له في وَفْرَةِ شَعْرِهِ:

إيهٍ أَخَا الوَفْرَةِ السَّوْداءِ كَمْ مَلِكٍ ... أَعَاضكَ التَّاجَ مِنْهَا لَوْبِهَا اعْتَصَبَا
غَضِبْتَ لِلْعَقْلِ أَنْ يَشْقَى فَثُرْتَ لَهُ ... بِمِثْلِ مَا انْدَفَعَ البُرْكَانُ واصْطَخَبَا
هَلِ النُّبُوَّةُ إلا ثَورةٌ عَصَفَتْ ... على التَّقَالِيدِ حتى تَسْتَحِيلَ هَبَا
مَا ضَرَّ مُوقِدَها والخُلْدُ مَنْزِلُهُ ... إذا رَمَى نَفْسَهُ في نَارِهَا حَطَبَا

توقَّف أبو الطيِّب قليلًا وأخذ نفَسًا، ثمَّ واصل:

طَلَبْتَ بالشِّعْرِ دُونَ الشِّعْرِ مَرْتَبَةً ... فَشَاءَ ربُّكَ ألا تُدْرِكَ الطَّلَبَا
إِذَنْ لأَكْلَتْ أُمَّ الشِّعْرِ وَاحِدَها ... وعُطِّلَ الوَكْرُ لا شَدْوًا ولا زَغَبَا
لولا طِماحُكَ ما غنّيتَ قافيةً ... بَوّأْتَها الشَّمسَ أو قَلَّدْتَهَا الحِقَبَا
قد يُؤْثِرُ الدَّهْرُ إنسانًا فَيَحْرِمُهُ ... مَنْ يَمْنَعُ الشَّيْءَ أحيانًا فَقَدْ وَهَبَا

فقال الحكيم الترمذيّ: صدَقَ الشاعرُ حقًّا، فقد يكون الوهبُ والعطاء من المعطي في صورة المنع والحرمان. وقد حُرِمْتَ نَسَبَكَ في زمنِكَ يا أبا الطيِّب، فتنازع الجنُّ والإنس يطلبونه إلى الزمان الأخير.

---

(1) C'est lui qui sur toutes les têtes,
En tout temps, pareil aux prophètes,

حافظنا في هذه الترجمة على قافية الشعر في أصله الفرنسيّ دون الإخلال بالمعنى الأصليّ.

فقال أبو الطيِّب: صدقتَ يا أبا عبد اللَّـه. ثم اندفع ينشد من شعر الأخطل الصغير:

يامُلبسَ الحكمةِ الغرّاءِ روعتَها	حتى هتفنا أَ وَحْيًا قلتَ أم أَدَبَا
كأنما هي أصداءٌ يردِّدُها	هذا إذا بَثَّ أو هذا إذا عَتَبَا
قال استباحَ أرسطو حين أعجَزَهم	وإنَّه اسْتَلَّ من آياتِه النُّخُبَا
مهلًا فما الدَّهْرُ إلا فَيْضُ فَلْسَفَةٍ	يعود بالدُّرِّ منه كلُّ مَنْ دَأَبَا
من علَّمَ ابنَ أَبِي سُلْمَى حَكِيمَتَهُ	وَقُسَّ سَاعِدَةَ الأَمْثَالَ والخُطَبَا

قال أبو نصر: واللَّـه لقد أتى في هذه القصيدة بكلِّ تليدة وطارفة، وعرّجَ على الفلسفة، وأبدع في تصوير حقيقةِ النَّظَر الفلسفيّ في جِبِلَّةِ كُلِّ مَنْ دَأَبَ على استقداح ذهنه فيعود من فيضِ بحرِ الفلسفة بدُرٍّ منثور. وقد أبدع صاحبك، يا أبا الطيِّب، في تصوير وصولِ النَّظر الفلسفيّ والوجدان الشعريّ إلى النتيجة نفسها، كما ذكرتُ لكم مُقدَّمًا عن تَوَافُقِ حِكْمَتِكَ الشعريَّة مع حكمة أرسطو دون أن يكون أحدكما اطَّلعَ على ما قال الآخر.

أخذ أبو الطيِّب نفَسًا آخر، ولاح التأثُّر باديًا عليه، فأنشد محزونًا من شعر الأخطل الصغير:

يا خالقًا جيلَهُ لولاكَ مَا عَرَفَتْ	له الأواخرُ لا رأسًا ولا ذَنَبَا
آمنتُ بالشِّعْر مُذْ أنشاك آيتَهُ	وكان عرشًا مِنَ الأصنام فانقلبا
أضرمْتَ ثورتَكَ الهوجاءَ فَالْتَهَمَتْ	مِنَ القَرِيضِ الهشيمَ الغثَّ والخَشَبَا
وغالَ شعرُكَ شِعْرَ الكائدينَ له	لنفسِهِمْ حَفَرَتْ أيديهِمُ التُّرَبَا
حتى رجعتَ وللأقلام هَلْهَلَةٌ	في كَفِّ أَبْلَغِ مَنْ غَنَّى وَمَنْ طَرِبَا

عفوًا نبيَّ القوافي أيُّ نابغةٍ لم يَزْرَعُوا حَوْلَهُ البُهتانَ والكذِبا
مَنَعْتَ عَنْهُمْ ضِيَاءَ الشَّمْسِ فَانْحَجَبُوا فَهَلْ تَلُومُهُمُ إِنْ مَزَّقُوا الحُجُبَا
لم أَلْقَ كَالشِّعْرِ مظلومًا فقد حَشَدُوا لِحَرْبِهِ حَسَدَ الحسّادِ والنُّوَبا
يُرْمَى بِكُلِّ قَبيحٍ مِنْ مَثَالِبِهِمْ ويرفعونَ له الأنصابَ إن ذَهَبَا
مِثْلَ المسيح تَغَالَوْا في أَذِيَّتِهِ وَأَلَّهُوهُ، ولكنْ بعدما صُلِبَا

فقال أبو العلاء: حُقَّ لك الفخر يا أبا الطيِّب، فقد تنازع فيك الجنُّ والإنس، والمسلم والنصرانيّ، وكلُّهم يرى أنَّكَ نبيُّ الشِّعر بلا منازع.

فقال أبو الطيِّب: بل يمكنك أن تضيفَ إليهم كبار أدباء الأمم المختلفة على تنوُّع أَلْسُنِهِم، الذين نصَّبوني في ذُرى المحفل الأدبيّ العالميّ، مِمَّا يَتعذَّر عن الحصر.

لكنْ، اسمع يا أبا العلاء ما يقول الأخطل الصغير عن دعاة الجديد في الأدب من لصوص الفكرة والكلمة.

ثمَّ اندفع منشدًا:

قالوا الجَديدُ فَقُلْنَا أَنْتَ حُجَّتُه يا واهبًا كُلَّ عَصْرٍ كُلَّ مَا خَلَبَا
أفكرةٌ لم تكن، فَتَّقْتَ بُرْعُمَهَا وَجِدَّةٌ لم تكن أُمًّا لها وأبا
بعضُ الجديدِ الذي يَدْعُونَه أدبًا يـموت في يومِه، هذا إذا وُهِبَا
إن لم يكن لك حُسْنُ الوَجْهِ تَعْرِضُهُ فقد ظَلَمْتَ به أثوابَكَ القُشُبَا

فصاح الجمع المهيب متواجدًا: واطرباه.

ثمَّ قال أبو العلاء: أَسْعِدْ بالأخطل الصغير شاعرًا في مَحْفَل الشُّعراء، وأميرًا من أمراء دوحة الشعر.

ثمَّ نطقتْ ربّات الجمال كلهنَّ: فواللّـه إنه لشاعِرٌ غِرِّيدٌ قد أنطقَ آلاتَنَا وأَصْدَحَ أَصْوَاتَنا وهزَّنا للغناء.

فقال أبو الطيِّب مجيبًا: وقد فَعَلَ فِعْلَ السَّاحرِ في مُطرباتِ زمانِه ومُطربيه. فلقد وصلني شَجْوُ أميرةٍ مُطربةٍ يُقال لها اسمهان؛ ثمَّ ثانيةٍ يُلَقِّبُونَها «نور الهدى». ثمَّ إن شئتم أن أزيدَ في تعداد هذا الفضل أخبرتُكم عَمَّا صدحَتْ به قيثارةُ البِلَّوْرِ التي يدعونها «فيروز».

نظر نحوَ ربَّات الحُسْنِ، وقال: وقُلْنَ الأَمْرَ نفسَه عن مُلَحِّنِي ذاك الزمان وسحرَتِه ومُطْرِبِيه، من أمثال رياض السنباطيّ، وفريد الأطرش، ووديع الصافي...

ثمَّ أضاف قائلًا: ولا أنسى موسيقارَ الأجيال محمد عبد الوهاب، حفيدَ الشَّيخ عبد الوهاب الشعرانيّ.

قال أبو العلاء: هذا هو الشعر الذي يطرب الرُّوح، وإنِّي أُبشِّركم أنِّي أفتح باب الجنَّة في رسالة الغفران لكي يدخُلَها صاحبُكَ الأخطل الصغير، وَيَنْزِلَ في قَصبَتِها العليا. فَمَرْحَى بِهِ مَرْحَى، فقد حاز التَّبريز بهذه القصيدة الطّنَّانة.

ثمَّ أضاف مازحًا: وإن رضيَ صاحبُك أن يبقى في رفقة جِنٍّ نَصِيبِين، أو مع سَمْحَج، وَزَوْبَعَة، وبني الشَّيْصُبَان، فَلَهُ ذلك، وأنَّى لنا أن نمنَعَهُ عن رُفْقَةِ ظُرَفَاءِ المَرَدَة؟

ضحك القوم من مَزْحَة أبي العلاء.

ثمَّ انتصب الفارابيّ مستشكلًا: قد لا تُقِرُّ لك الأمم الأخرى بالتصدُّر في إمامة الشعر يا أبا الطيِّب.

فقال أبو العلاء لجهة أبي الطيّب: لعلَّ أبا نصر مُحِقٌّ فيما استشكل به.

فقال أبو الطيّب: أفهم أنَّك ترى مصدر الحكمة عند فلاسفة يونان، لكنَّك تعلم أنَّ شعر هذه الأمَّة لم يَرْقَ إلى الدرجة العليا، حتى جعل الحكيم أفلاطون يخرج الشعراء من المدينة الفاضلة.

قال أبو نصر: أعلم ذلك، ولكنّي كنت أقصد شعراء مبرَّزين عند الأمم الأخرى، ولا سيَّما الأمم القادمة.

فقال أبو العلاء: فعلًا، فقد أخبرني بعض مردةِ الجِنِّ أنَّه التقى بسخيفٍ من سخفاء الإنكليز الظرفاء يقال له «المِسْتِر بِين» في مدينة الضباب التي يسمُّونها «لندن»، لا يعترف بشيءٍ إلَّا إذا كان بريطانيًّا، ولسانه لا يلهج إلَّا بالولاء لأمَّته وملكة ذلك الوقت، ولا يقبل بالتفوُّق عليهم في الشعر أو غيره. أخبر هذا السخيفُ الماردَ الجنيَّ الذي حكى لي القصَّة بأنَّ من أكبر شعرائهم وأدبائهم رجل يُقال له «وليام شكسبير»، وهو المقدَّم عندهم على غيره.

فقال أبو الطيّب: وما شأن العربيَّة وشعرائها بقول رجلٍ سخيف، فهذه حجةٌ واهية، ولعلنا نترك أبا زيد السروجيّ في مقامات الحريريّ يَرُدُّ عليه، فهو أولى به منَّا للمشاكلة في الأمثال، فإنَّ سخافات السروجيّ واحتيالاته كفيلةٌ بإسكات مزاعم «المستر بين» وسخافاته عن تَفَوُّقِ شعراء الغرب على شعراء الشرق.

فقال أبو العلاء: لقد أخبرني المارد الجنّيّ أنَّ شكسبير كتب عن الشرق، وأنَّه استوحى أحد أعماله «عُطَيْل» من قصة «قَمَر الزمان» ومعشوقته في أسمار ألف ليلة وليلة.

فقال أبو الطيّب: هذه سرقة أدبيَّة موصوفة، فكيف بمن كان هذه حاله في سرقة أسمار أهل الكُدْيَةِ وقُصَّاص الخرافات والحكايا في أسواق مدننا الشرقيَّة أن يتصدَّرَ شعراءَ الدنيا؟

إيهٍ، إيهٍ.. ذلك مُرْتَقًى صعب. ليس الشعر إلَّا إبداعًا على غير قياس، وتوليدًا للمعاني التي يطربُ لها جِلَّةُ الأكياس. فأمَّا إن كان انتحالًا من أعمال أُمَّة الشرق فذلك مَطْعَنٌ كبير يُلْجِمُ ذلك السخيف المدعوّ «المستر بين» في دعواه المتهافتة.

ثمَّ تحدَّث الترمذيّ، فقال: هنيئًا لك يا أبا الطيّب، فحجَّتُكَ أَبْلَج، وهنيئًا لك بالأخطل الصغير الذي انتصر لك من خلف حجاب القرون، وسرد علينا تنازُعَ الجِنّ فيك حتى أرسلوك فتنةً في الدهر. وإنَّنا نكسو صاحِبَك حُلَّةً سَيْرَاءَ سابِغَةً في مَحْفَلِ الشعراء الأماجد.

فقال أبو الطيّب: ها قد رأيتم أيُّها السادة الحكماء أنَّني لا أفتري ولا أَزْعُمُ ما لا ينبغي لي، وإنما هي شهادة من كلّ العصور بسمُوّ منزلتي على سائر المنازل. أفلا يحقُّ لي أن أطمحَ إلى اعتلاء عرش هذه المدينة الفاضلة؟

كان على أبي عبد اللّـه أن يُقنِع أبا الطيّب أنَّ ما يدَّعيه من إمامةٍ في الشعر ليس محلَّ خلاف بين هؤلاء النَّابهين، وإنَّما المرتبة الشريفة التي يسمو إليها هي مرتبةٌ تجمع أختامَ أصحابِ القول والحكمة كلِّهم.

فقال: اعلموا أيُّها السَّادة أنَّ ما نتحدَّث فيه يسمو على كلّ المراتب التي حُزْتُمْ فَضْلَ التصدُّر فيها، وإنَّ شأنَ الولاية ليس من طريق العلم البشريّ، ولا يَعْلَمُ قَدْرَ الولاية وأنَّها اختصاصٌ إلهيّ إلَّا مَنْ حاز منازلَها، وقد سألتُكم أوَّلَ سؤال عن عدد منازلها، فعجزتم كما عجز كلُّ مَنْ رَامَ

رَفْعَ هذا التحدّي، لأنَّ الجواب عن هذا السُّؤال يقتضي العلمَ الإلهيّ بتلك المنازل، ومن ليس عنده علمٌ بها عَجَزَ عن الجواب. وصاحبُنا لم يبلغ هذا المبلغَ إلَّا من طريق المنَّة، وهي العجز عن معرفة اللَّـه، فإذا تيقَّنَ أنَّه عاجز مَنَّ عليه رَبُّهُ من فيضِه الأقدس بمعرفة التَّجلِّيَّات الإلهيَّة.

فقال أبو الطيّب: قال الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ «المعرفَةُ كَشْفُ سُبُحَاتِ الجلال، وغايتُها الدَّهَشُ في كبرياء اللَّـه»، فهذا أميرُ المؤمنين وصيُّ رسولِ اللَّـه الأمين قد دلَّنا على غاية الأمر، وهو الدَّهَش في كبرياء اللَّـه، فَمِنْ أَيْنَ لهذا الوليّ ما تزعُم في حَقِّه يا أبا عبد اللَّـه؟

فقال الترمذيُّ: يا أبا الطيّب، إنَّ الولي المحمَّديّ لا تتجلَّى له حقيقة الكبرياء إلَّا بعد بلوغِه المرتبةَ العليا في الولاية، وهذا المقامُ هو المسمَّى ختمَ المقامات. وإذا ارتقى هذا الوليُّ إلى هذا المقام تجلَّى له الكبرياء الإلهيّ فَخَرَّ ساجدًا، ولم يرفع رأسه أبدًا، إِذْ غايَتُه أن يصيرَ إلى الدَّهش فيه.

قال أبو الطيّب: ما سِرُّ عددِ تلك الأسئلة 157 التي وضعتَها يا أبا عبد اللَّـه؟

فقال الترمذيُّ: السِّرُّ في العدد يا أبا الطيّب، أن ذلك العددَ ينزل درجةً واحدة (هي درجة الختم) عن عدد رجال عالم الأنفاس، وهم 158 رجُلًا: على قدم **داود**، وهم أبناء **آدم**، وهم تحت لواء سيّدنا **محمَّد**[1] عليه أفضل صلاة وأزكى تسليم. ورجال الأنفاس على طبقات.

---

(1) داوود = 21؛ آدم = 45؛ محمد = 92. المجموع = 158. آدم باعتباره أبا البشر، خليفة في الأرض بالمعنى العام للخلافة الكونيّة؛ وداود خليفة في الأرض بالمعنى الخاصّ للخلافة التشريعيّة وإقامة الحكم والدولة ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة﴾. أمَّا محمَّد عليه الصلاة والسلام فقد حاز الإمامة العامَّة والخاصَّة.

كما أنَّ هذا العدد يشير إلى أن 157 سؤالًا يقتضي 157 جوابًا، فيتحصَّل المجموع 314. وهو عدد يشير إلى عدد **محمَّد** التفصيليّ[1]، بمعنى أنَّ ما تفرَّق في غيره من الرسل (314) اجتمع فيه، وهو عدد كلمة «الإنسان الكامل». و«314» عدد الرسل، وعدد أهل بدر، وعدد كلمة «البدريُّون» (313)، أما وِتْرُهُمْ (1) فهو رسول اللّـه. و«البدريُّون» مقام أهل المجالس والحديث كما في السؤال السادس من الأسئلة الروحانيَّة السالفة. والمقصود من «المجالس» مجالس الصلاة.

هذه إشارات قليلة، لكنَّها كافية لكي تهديك إلى الرُّشْد.

فهل أزيدُكَ يا أبا الطيِّب؟

قال أبو الطيِّب: هذه معارف وموافقات سامية لا تحصل اعتباطًا، وإنَّما هي سرٌّ من الأسرار الإلهيَّة في خلقه.

فقال الترمذيُّ: ولو أنَّك نقطتَ «حاء» اسم هذا الولي «الحاتميّ»، لظهر لك أنَّه «الخاتميّ»، فهو نقطةُ الدّلالة والحجاب معًا. أمَّا لقبه «مُحْيِ الدِّين»[2]، فإنَّ عدده يوافق عدد الأسئلة المذكورة نفسها (157)، فكيف يتَّفِقُ كُلُّ هذا في الشخص نفسه إلَّا لحكمةٍ أرادها اللّـه، وخصوصيةٍ وهبَهَا لهذا العبد؟!

فقال أبو الطيِّب: غَلَبْتَنا يا أبا عبد اللّـه، فنحن آيِبونَ تائِبون.

فقال الترمذيُّ: الحمد للّـه على إقراركم بالحقّ، واعلموا أنَّكم أختامٌ في مدينة الولاية المحمَّديَّة، وكلّ واحدٍ منكم ختمٌ ونائبٌ عن الختم المحمَّديّ في الفنون والعلوم والمراتب التي حزتم في الحكمة والشعر والأدب.

---

(1) **محمّد**: ميم+ حا+ ميم+ميم+دال = **314**.

(2) **محي الدّين** = **157**.

قال أبو العلاء: لكنْ بقي أمرٌ أخير نريدك أن تخبرنا عنه.

فقال الترمذيُّ: ما هو يا أبا العلاء؟

فقال: ما سبب الخاتم ومعناه؟

قال الترمذيُّ: ما شاء اللّـه! هذا أحد الأسئلة الروحانيَّة، وهو السُّؤال رقم 15. والجواب عنه أنَّ الدنيا لها بدء وختام، وسُنَّة اللّـه في الوجود أن لا تتخلَّف أبدًا، فقضى أن يكون لكلّ ما في الوجود بدءٌ وختام. ومن جُملة ما في الوجود الشَّرائع، فكان لها بدء وختام، وقد كان ختم النبوة والرسالة محمَّد عليه السلام. كما أنَّ مِنْ جُمْلَةِ ما في الوجود الولاية العامَّة، وبدؤُها كان آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وختمُها كان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فقال أبو الطيِّب: فلماذا كان للولاية المحمَّديَّة ختمٌ مخصوص من غير أن يكونَ هو خَتْمَ الولاية العامَّة نفسه؟

فقال الترمذيُّ: لمَّا كانت الشريعةُ المحمَّديَّة تخالِفُ في أحكامها شرائعَ سائرِ الأنبياء والرسل في كونها كانت إلى عموم الإنسانيَّة كلِّها، وشُرِعَ له ما لم يُشْرَعْ لغيره من الأنبياء وحُلِّل له ما لم يُحَلَّل لغيره، كأنْ جُعِلَتْ له الأرضُ كلُّها مسجدًا، بينما لم تَصِحَّ الصلاةُ لغيره إلَّا في أماكنَ مخصوصة، كما أنَّه خُصَّ بكونه خاتم النبوَّة. فلما كان حُكمُه مُباينًا لغيره من الأنبياء، كان حُكْمُ كلِّ نبيٍّ بعدَه حُكْمَ وليٍّ، وليس حُكْمَ نبيّ، مثل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي يظهر آخر الزمان، فحكمُه حُكْمُ وليّ يختم الولاية العامَّة التي ابتدأت بآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ. أمَّا الولاية المحمَّديَّة فهي ولايةٌ مخصوصةٌ لرجلٍ يحمل الاسم نفسه ويحوزَ خُلقَهُ، وما هو بالمهديّ الذي هو من سلالة النبيّ وعترته، والختم المحمَّديّ ليس من سلالة النبيّ، لكنَّه من سلالة أخلاقه. ولكلِّ شيءٍ أَمَدٌ معلوم وأَجَلٌ

محدود حتى النبوَّة ﴿كُلٌّ يجري إلى أجلٍ مُسَمًّى﴾، لكنَّ الولاية التي لكلّ نبيّ من كونها تستمدّ من الاسم الإلهيّ «الوليّ»، فإنَّها مستمرَّة لأنَّ حكم الأسماء الإلهيَّة لا ينقطع، ولأنَّ سندها إلهيّ، والألوهيَّة لا تنقطع من الوجود. فكلُّ نبيٍّ وليٌّ وليس كلُّ وليٍّ نبيًّا، وعندما تنتهي نبوَّة النبيّ التي قدَّر اللّـه أن تنتهي إلى أجلٍ محدود، تبقى ولايته تستمِدُّ من الاسم الإلهيّ «الوليّ».

فقال أبو الطيِّب: دعني أسألك سؤالًا محيِّرًا. ألا تدلُّ ختميَّة رسالة النبيّ على إغلاق التاريخ الدِّينيّ ونهايته؟

فقال الترمذيُّ: قد فهم الشيعة الاثنا عشريَّة هذا الفهم، فوجدوا الحلَّ في القول بالغيبة الكبرى للإمام الثاني عشر، لأنَّهم رفضوا إقفال التاريخ الدِّينيّ بحسب فهمهم. فغيبةُ الإمام ثمَّ رجعَتُهُ في آخر الزمان تجعل التاريخ الدِّينيّ مستمِرًّا ومفتوحًا غير مختوم.

وعلى الحقيقة، إنَّ ختميَّة الرسالة شيءٌ مختلف عن ختميَّة الولاية، فالنبيّ لم يختم الولاية بل خَتَم الرسالة؛ وولايته مستمرَّة لا تنقطع، والتاريخ الدِّينيّ والرُّوحيّ مفتوح لم يُغلق أبدًا، لأنَّ تجلِّيَات الألوهيَّة لا تنقطع من الوجود أصلًا. وبعبارةٍ أخرى، **إنَّ المعنى الرُّوحانيّ للقرآن لم يقفل أبدًا** بل هو مفتوحٌ منذ الأزل وإلى نهاية الأبد، فالحقّ لم يزل متكلِّمًا، والخلق لم يزالوا يستَدِرُّونَ أفهامًا جديدة من هذا الكلام المتدفِّق من الأزل إلى الأبد.

أمَّا ختميَّة الولاية، فهو أمرٌ لا يعني إقفالها، بل على العكس من ذلك، لأنَّ استمدادَ الأولياء هو من الاسم الإلهيّ «الوليّ»، وهو الحقّ، فلا فناء للولاية ولا انتهاء ولا إقفال، لأنَّ حكم هذا الاسم الإلهيّ لا يزول

من الوجود. وختم الولاية هو كمالُها في شخص وَلِيٍّ معيَّن، كما أنَّ كمال الرسالة قد تحقَّق في الرسول العربيّ الأمين. وحينما يعود عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ آخر الزمان، فإنَّه لا يعود من حيث إنَّه رسول، بل من حيث إنَّه وليٌّ من أولياء الأمَّة المحمَّديَّة يندرج في شرع النبيّ محمَّد عليه الصلاة والسلام.

* * *

وفجأةً، سمعوا أصواتًا آتيةً من جهة المشرق، فتطلَّعوا نحو تلك الناحية فرأوا موكبًا ملوكيًّا يجلِّله النور قادمًا نحوهم، ورأوا سربًا من الطيور يظلِّل الموكبَ كأنَّه سحابة صيْف، ورأوا قطيعًا من الغزلان يمشي بين يدَي الموكب، ورأوا وحوشًا من الحيوان باسمةً مستأنسةً وكأنَّما تتبادل أطرافَ الحديث مع قطيع الغزلان، وبَدَا وكأنَّ هذه آمنةٌ مطمئنةٌ إلى تلك السِّباع والوحوش، وبينها أُلْفَةٌ عجيبة.

هي تمشي مع بعض على الرَّغم من أنَّ بعضها يُضَحَّى به من أجل مصلحة الجميع، وذلك هو السلم الحقيقيّ والأمان الطبيعيّ والتوازن بين الكائنات، بحيث يوجب أن تكون الوحوش المفترسة على رأس قائمة الافتراس ولا تتغدَّى إلَّا على ما تستطيع به الاستمرار في الحياة، وتحافظ على التوازن بين الأنواع، ثم تأتي الحيوانات العاشبة في مرتبة أدنى منها، وهي تعلم أنَّ افتراس بعضها يضمن بقاءها وبقاء كلّ الأنواع، إذ لو تركت لحالها تتكاثر لما بقي عشب ولنضبت كلّ الموارد من عشب وماء، وأدَّى إلى انقراضها فجأةً بالكامل. تلك هي حكمة التوازن الطبيعيّ بين الكائنات.

تطلَّع الحكماء إلى ذلك الموكب العجيب يراقبون مَنْ فيه، فإذا هو قد ضمّ كلَّ طبقاتِ رجال الأنفاس التي تحدَّث عنها الحكيم

الترمذيّ. عجبوا لهذا الجمع الغريب الذي يأنس فيه الشَّريد، ويطمئنُّ إليه الطَّريد، ويأمَنُ فيه الغريب، ويصبحُ فيه كلُّ بعيدٍ قريبًا، وتجتمع فيه السِّباع إلى الغزلان، فلا تخشى هذه على نفسها؛ ولا تتطلَّع تلك إلى نَهْشِها وافتراسها إلَّا لضرورة الحياة.

ولمَّا وصل الموكبُ ناحيةَ الحُكَماء وربَّاتِ الحُسْن، أطلَّ عليهم رجل باهرُ النور من مَخْدَعِهِ وألقى السلام، فَرَدُّوا عليه بأطيب تحية وأزكى تسليم. كان يمشي في موكبه جَمْعٌ منَ النِّسْوَةِ لَمْ يُخْلَقْ مِثْلَهُنَّ بَهَاءً. تقدَّم الحاجب فأعلَمَهُم بأنَّ خَتْمَ المملكة الإنسانيَّة جاء لزيارتهم والسَّلامِ عليهم، ورحَّبَ بهم ضِمْنَ أَهْلِهَا مِنْ أَنَاسِيهَا وروحانيِّيها وَطَيْرِهَا ووحشِها، ثمَّ أعطى أَمْرَهُ فَخُلِعَ على الحكماء من فاخر الحُلل حتى ظهروا لأنفسهم وللنَّاس في مرتبةٍ شريفةٍ سَنيَّة، ثمَّ قرَّبهم وأدناهم منه، وبارك زيجاتِهم بربّات الحُسْن فحصل لهم بذلك كمالُ الرُّجوليَّة وتَمامُ الولاية، ودعا لهم بخير.

تقدَّم الختمُ نحو أبي نصر الفارابيّ، فقال له : وقفتُ يا أبا نصر في كتاب سرّ الأسرار لأرسطو[1] على دائرة اصطنعها للإسكندر يوصيه فيها. وهي تلخِّص جماع قوله في المدينة الفاضلة، وتتضمَّن الدائرةُ العالمَ، يقول : «**والعالم بستان** سياجُه الدولة، والدولة سلطانٌ تحيا به السُّنَّة، والسُّنَّة سياسةٌ يسوسُها المُلك، والمُلْكُ نظامٌ يَعْضُدُهُ الجيش، والجيش أعوانٌ يكفلهم المال، والمال رزقٌ تجمَعُهُ الرَّعيّة، والرّعية يكنفهم العدل، والعدل مألوف وبه قوام العالم، **والعالم بستان**». فانظر إلى النهاية قد اتَّصلت بالبداية يا أبا نصر عند هذا الحكيم اليونانيّ.

---

(1) ذكرنا هذا بتصرُّف من كتاب محاضرة الأبرار. 1/ص. 51 ـ 53. والنص موجود أيضًا في **المقدّمة** لابن خلدون.

ثمَّ أزال الختمُ عن عينَيْ أبي نصر غشاوةَ النَّظر، فأبصر ما هنالك وأدرك سرَّ الفيْض من غير الباب الذي طرقَه أهلُ النَّظر من حكماء العرب واليونان، بل تحقَّقَه من باب الذَّوْق، وشرب منه فيضةً لم يَصْحُ مِنْ سُكْرِهَا.

ثمَّ التفَتَ الختم إلى أبي الطيِّب، فسلَّمه ورقةً زُنْجَارِيَّةَ اللَّون. أخذها أبو الطيِّب، فإذا هي قد احتوت على شجرةِ نَسَبِه وعَمود حَسَبِه، وتحقَّق أنَّه موصولٌ بأبيه، ثمَّ قال له: يا أبا الطيِّب **المتنبِّه**.

تعجَّب أبو الطيِّب من هذا اللَّقب الذي ناداه به ختم الأختام، فسأله: هل قلت **المتنبِّه**؟

قال الختم: نعم، قلت ذلك وأؤكده لك، فنحن معاشر المغاربة نلقبك **بالمتنبِّه**. وقد برئنا من اتِّهامك بدعوى النبوَّة دون غيرنا، فلنا مزيَّة ليست لغيرنا. وقد ذكر هذا أبو القاسم الوزير المغربيّ[1] في كتابه «أدب الخواص» حين قال «وقد قال المتنبِّي، وإخواننا المغاربة يسمُّونه **المتنبِّه** فأحسنوا».

قال أبو الطيِّب: يا أبا عبد اللَّـه، لقد أدخلت عليَّ السرور بهذا اللَّقب، وإنِّي كنتُ التقيت بوالد الوزير أبي القاسم وكذلك بجدِّه في بلاط سيف الدولة في حلب، وكانا يدعواني بهذا اللقب العزيز من دون الناس.

فَغَمَرَتْ أبا الطيب سعادةٌ لا مَزِيدَ عليها، وزادت **نباهته**، وانزاحَتْ عنه **نَبْوَتُه** فَسَجَدَ شُكْرًا وتواضعًا للَّـه على أَنْ قرَّبَه وأدناه، وبرئ من تلك التهمة المغلظة التي رماه بها أعداؤه، بينما أنصفه أهل الحقّ ونَسَبوه

---

(1) أبو القاسم الحسين بن علي، ويسمَّى الوزير المغربيّ (371 ـ 418ه/980 ـ 1027 م): أديب لغويّ وكاتب شاعر ووزير. كان من الدهاة حتى قيل فيه «كان من أدهى البشر وأذكاهم». كان أبوه وجدَّه من كتَّاب سيف الدولة بحلب، وقد عرفهم المتنبِّي من دون شك. وقد ولد أبو القاسم قبل وفاة أبي الطيِّب بحوالى 17 سنة.

إلى النَّباهة وأطلقوا عليه لقب «المتنبّه». ثمَّ سلَّم الحاتميُّ منشور براءةٍ للمتنبّه أمام ملأ من أختام الحكمة.

تقدَّم الختم نحو أبي العلاء المعرّي الذي سارع بالقول: لقد عرفت الوزير أبا القاسم المغربيّ الذي تتحدَّثان عنه، وهو الوحيد الذي رثيته في كتاب اللزوميَّات، وقد كتب كتابًا عن شعر أبي الطيِّب وأؤكِّد أنِّي سمعته يستعمل لقب «المتنبّه» حينما كان يحدِّثني عنك يا أبا الطيِّب.

مسح الختم على وجه أبي العلاء فَعَمَّهُ النور. وفجأةً، انفتح بَصَرُه فَعَايَنَ ما حوله إلى مدِّ البصر، وخرج رهينُ المحبِسَيْن إلى فُسحة ضوءِ النَّيِّرَين، وغاص في لُجَّةِ النُّور، وأخذته دهشةٌ زجَّت به في سعادةٍ غامرَةٍ وبَعْثٍ جديد.

ثمَّ قال الختم: يا أبا العلاء، لقد ذكرتُكَ في كتابي «الفتوحات المكِّيَّة» في الباب الرابع والستين: «في معرفة القيامة ومنازلها وكيفيَّة البَعْث»، وقد ذكرتُ قولك:

زعمَ المنجِّمُ والطبيبُ كلاهما ... لا تُبْعَثُ الأجسامُ قلتُ إليكما

إن صحَّ قولكما فلستُ بخاسرٍ ... أو صحَّ قولي فالخَسَارُ عليكُما

فإنَّك ذكرتَ أنَّ الخسارَ على الطبيب والمنجِّم من المشكِّكين في البعث والآخرة في زعمِهما أنَّ الأجسام لا تُبْعَث لأنَّهم لم يؤمنوا بظاهر ما جاءتهم به الرُّسُل عليهم السلام. وأنَّكَ لستَ بخاسر إذا صحّ قولهما، ولم يكن هناك بَعْثٌ ولا قيامة، فقد حصل الخلاص للجميع بهذا القول، سواء كان مُشكِّكًا أو مؤمِنًا. أمَّا إن لم يكن الأمر كما زعموا وصحَّ قول المؤمن بالبعث، فإنَّ المشكِّك لا محالة هالك، بينما المؤمن ناجٍ وحده دون غيره. وليس على المشكِّك إلَّا أن يَؤُوبَ إلى الحقِّ والإيمان، فهو

أسلم له وأنجى. وهذا الحِجاج منك استدراجٌ لخصومِك في المناظرة حتى يرجعوا إلى التصديق بالبعث.

فقال أبو العلاء للختم : أَكْرِمْ بهذه الشهادة وأَنْعِمْ يا أبا عبد اللّـه.

فقال الختم: يا أبا العلاء، إنَّها شهادةٌ وشهود، جمعَتْ بين الخبر والبصر. ولا يخفى عليك، أنَّه قد اختُلف في شهادة الأعمى، ولم يُختلف في شهادة صاحب البصر. فإنَّ الرؤيةَ تُصدِّقُ الخبرَ، ولم نسمع بأحدٍ يطلب أن يُصدِّقَ الخبرُ الرؤيةَ، وقد قيل : «ليس الخبر كالعيان». ومن هنا نشأ الخلاف في شهادة الأعمى، لأنَّ شاهدَ الرؤيةِ أقطعُ من شاهد الخبر وأَيْقَن. وقد مَنَّ اللّـه عليك اليوم بأن جمع لك البصر والخبر.

ثمَّ تقدَّم الختم أخيرًا نحو الحكيم الترمذيّ، وقرَّبه وقال له: لم يبقَ إلَّا أنت يا أبا عبد اللّـه. ثمَّ نادى على فتاةٍ اسمها «حِكْمَة»، وقال له: هذا نصيبُك أنتَ حتى يكتملَ مقامُك وتَصِحَّ دائرةُ ولايَتِك، وتتضاعفَ حكمَتُك، لأنَّ لكلِّ شيءٍ شطرًا، وشَطْرُ الحُكْم حِكمَة، كما أنَّ شَطْرَ المَرْءِ امْرَأَة، وبهما تَمَّتِ المروءة. ولكلِّ شيء مرآة، والمرأة مرآة الرجل، وهو الصَّفَا وهي المَرْوَة، ولا يكون السَّعي سبعًا إلَّا بينهما.

كانت حِكْمَةُ فتنةً للعقل والعين والجَنان. مطلعُ الشمس من وجهها، ومَنْبتُ الورد في خدِّها. انحاشت إليه وانحاشَ إليها، فتحكَّمَتْ وتختَّمَا، وتذكَّرَتْ وتأنَّثَا.

ثمَّ أدناه الختم حتى جعله إمامًا عن يمينه، فزاد أبو عبد اللّـه دهشةً وسعادةً وفرحًا بلقاء الختم المحمَّديّ، واعتذر له عن وضع تلك الأسئلة وامتحان الأولياء بها.

فقال له الختم: فعلتَ خيرًا يا أبا عبد اللّـه، فإنَّك لم تقم بذلك إلَّا للذَّبِّ عن الوَلاية وتمحيص الأولياء من الأدعياء، فليست الوَلاية بخرق

العادات كما تقول العامَّة، لأنَّها ليست كذلك عند أهل اللَّـه الصادقين، ولكنَّهم جعلوا خَرْقَ العادات في بواطنهم فيما اخْتُصُّوا به من العلوم الإلهيَّة والأسرار الربَّانية. وليس خَرْقُ العادة عندهم إلَّا ما يحصل لهم من الفهم في بواطنهم بما يهبهم الحقُّ ممَّا لا يشاركهم فيه ذوقًا مَنْ ليس منهم.

فقال الترمذيُّ: أليس المشيُ على الماء، والسِّباحةُ في الهواء من خوارق العادات في البحار والأجواء؟

فقال الحاتميُّ الخاتميُّ: إنَّ المشيَ على الماء، والسباحةَ في الهواء هما من خرق العادات والأهواء.

فقال الترمذيُّ: وكيف ذلك؟

فقال الحاتميُّ: لا تظنَّ أنَّ الكرامةَ هي هذه الأشياء، وإنَّما الكرامةُ يا أبا عبد اللَّـه أنَّ الوليَّ يمشي على الماء حينما تكون السفينَةُ مَغصوبَةً؛ ويطيرُ في الهواء حينما يَعُمُّ الظُّلمُ والفسادُ وجهَ الأرض.

الكرامةُ يا أبا عبد اللَّـه حكايةٌ مرموزة تدلُّ على أنَّ الوليَّ لا يَطْعَمُ ولا يمشي ولا يطير ولا يَسْتَصْحِبُ الأشياءَ والمخلوقات إلَّا بالصلاح. فإذا انعدم الصَّلاحُ طار بعيدًا في الهواء، وسَبَحَ فوق الماء مُبْعِدًا عن أرض الفساد، مهاجرًا إلى أوطان الخير والصلاح.

فقال الترمذيُّ، وقد أشار إلى الطيور والغزلان والسِّبَاع التي كانت تحيطُ بالموكب: أليس من خرق العادة والكرامة استئناسُ هذه السباع والغزلان، واطمئنانُها فيما لا يكون معه على العادة اطمئنان.

فقال الحاتميُّ: صدقتَ يا أبا عبد اللَّـه، فحين تطمئنُّ الغزلان إلى السِّباع، وتقف الأطيار تظلِّلُ الأخيار هناك يحصل خرق العادات، وينقلب الفساد إلى أرض الصالحات وسماء المنجيات.

الوحوش والسِّباع الحقيقية يا أبا عبد اللّـه هي النفس الحيوانيَّة في الإنسان. والطيور يا أبا عبد اللّـه هي الأرواح المهيَّمة؛ والبحر يا أبا عبد اللّـه هو بحر الحقيقة الذي نسبح فيه من ساحل الشريعة، ونُشْرِعُ قلاعَنا إليه. وحينما تُدرِكُ السِّباع والطير والغزلان أنها آمنةٌ في سِرْبِها، وأنَّ الطباعَ الحيوانيَّة في الإنسان، قد استحالت طباعَ رحمة وسِلْم وحبّ وأمان تأنس بهذا الإنسان لأنَّه أصبح الخليفةَ الأمين على سائر المخلوقات يرجو سلامتها، ويرحم صغارها، ويوقِّر كبارَها.

ثمَّ أضاف: كان أَحَدُ شيوخِنا قد اعتزل في بيته لا يَخْرُجُ من داره إلَّا لصلاة الجمعة، واستمرَّ على هذا النحو عامًا كاملًا، لكنَّ أصحابَه وأتباعَه افتقدوه فتجمهروا حول داره، وألحُّوا عليه في الخروج إليهم، وأن لا يحرمهم من صحبته بعدما اشتاقوا إليه شوقًا عظيمًا. ولأنَّه قام بحقّ الشريعة في إجابة من دعاه، فقد خرج إليهم وترك خلوته. ولمَّا خرج إليهم طارت الطيور التي كانت حَوَالَى البيت وعلى الأشجار التي تحيط بداره. فلمَّا رأى ابتعاد تلك الطيور، وكيف هجرتْ جواره عَلِمَ أنَّه لم يتخلَّق بَعْدُ في خلوته، ولم يولد بَعْدُ مِنْ جديد، وأنَّ زمانَ خروجِه لم يَحِنْ بعدُ، وأنَّه ليس أهلًا لِأَنْ يَعِظَ النَّاسَ ويَدُلَّهم على الخير والصَّلاح لأنَّ نفسَه الحيوانيَّة لم تُصْقَلْ بَعْدُ ولم تُسْلِسِ القيادَ لباريها، وقد أدركتِ الطيور ذلك بغريزتها وما فطَرَها اللّـه عليه من الخلقة في إدراك هذه الأمور الباطنة، فغادرت المكان وهجرت ذلك الجوار. لم يتكلَّم ذلك الشَّيخ بكلمة، وصرف النَّاسَ وعاد إلى خلوته.

بقي عامًا آخر يجاهد نفسه، فجاءه أصحابُه مرَّةً أخرى محتشِدينَ حول منزله يطرقُون بابَه فخرج إليهم، ولاحظ أنَّ الطيور لم تغادر كما في المرَّة السابقة، فتشجَّع وبدأ يتكلَّم ويخبِرُ أصحابَه عن ثمرات خلوته،

فاقتربت الطيورُ منه، وحَطَّتْ على كتفه، وأَنِسَتْ برفقَتِهِ وجواره تستمِعُ إلى عِظَتِهِ حتى سقط منها من سقط مغشيًّا عليه، فأدرك الشَّيخ أنَّه تخلَّصَ من سَبُعِيَّتِه، وأنَّه قد وُلِدَ من جديد، وأنَّه في سِلْمٍ مع جميع المخلوقات.

سكت الحاتميُّ، ثمَّ قال: يا أبا عبد اللَّـه هذه النتيجة هي كرامة الأولياء وما سوى ذلك حكاياتٌ لتأليف القلوب وتدريبها على الخير والصلاح، فإيَّاك أن تقف عند القوالب وتغيبَ عنك حكمة الباطن، لكنْ لا تُفَرِّط في القوالب فإنَّها أغشية القلوب، ولولا الظاهر ما أدرك أحدٌ سِرَّ الباطن.

في كرامات الأولياء والعُشَّاق والمحبِّين كثيرٌ من هذه القصص التي نراهم وقد اجتمع إليهم في صعيدٍ واحد الطيور والسباع والوحوش والبهائم وكل أصناف المخلوقات من نباتٍ وشجرٍ وحيوانٍ وجماد، فتراهم يكلِّمونهم ويتباسطون معهم في أمنٍ وأمانٍ ومحبَّةٍ ووئام.

هذه إشارات لا تفي بها العبارات يا أبا عبد اللَّـه. إنَّ الأولياء يعيشون في سِلْمٍ تام مع الوجود كلِّه، لأنَّهم روَّضوا وحوشَ النفس وسباعَها، وأَسْلَسُوا قيادَها فأدركت الوحوش والبهائم سِرَّ ذلك الترويض فَأَنِسَتْ بالأولياء والعشاق، وخيَّمَتْ في جوارهم.

هذا هو سرُّ التوحيد الحقيقيّ يا أبا عبد اللَّـه. من كان في سِلْمٍ مع السماء كان في سِلْمٍ مع الأرض. أو لتقل: من كان في سِلْمٍ مع الحقّ كان في سِلْمٍ مع الخلق. وإن شئت قلت: من كان في سِلْمٍ مع نفسه كان في سِلْمٍ مع ربِّه. ومن كان في سِلْمٍ مع ربِّه كان في سِلْمٍ مع الوجود كلِّه.

يا أبا عبد اللَّـه، أَصْلِحْ ما بينك وبين السماء يَنْصَلِحْ لك ما بينك وبين الأرض.

ثمَّ قال للأختام الأربعة: المدينة الفاضلة أيُّها الأحباب تحتاج إلى إصلاح. وقد تركت لكم في شأنها كتاب «التدبيرات الإلهيَّة في إصلاح المملكة الإنسانيَّة». على هذه الأرض يتمّ الإصلاح، ومن عالم الكون والفساد تنبثق شعلة النور لتحلّق في سماء الصلاح، ومن أرض الكِيان ينجُم الصالحون لحضرة الحقّ. المملكة الأدميَّة هي الجسم الإنسانيّ التي ينبغي تدبيره بالصلاح حتى لا تقع المنازعة بين العقل والهوى. وقد تحدَّثت في هذه المملكة عن الإمام الخليفة الذي هو الروح الكلّي الذي ينبغي أن يظهر بالعدل والجود.

أيُّها الأحباب، المملكة الإنسانيَّة هي جسمُ الإنسان وكيانُه، فلينظر كلُّ واحدٍ في مملكته، فهو الإمام عليها بروحه، وليتعاهَدْها بالصَّوْنِ والحفظ والصلاح.

أهل المدينة الفاضلة يَعْبُرُونَ بين عالم الحسّ وعالم الخيال حينما يصعدون قمة جبل قاف.

فقال أبو العلاء: وماذا يوجد في قمَّة الجبل؟

قال الحاتميُّ: على القمَّة تلتقي الاستحالات وتجتمع المتناقضات، ويدخل الصغير في الكبير، والكبير في الصغير...

فقال أبو الطيِّب: وكيف ذلك؟

قال الحاتميُّ: ألم تسمعوا عن حكاية الجوهريّ؟

قالوا بصوت واحد: لا.

قال الحاتميُّ: كان الجوهريُّ يعيش في مصر، وذكر أنَّه خرج بعجينِ الخبز من بيته إلى الفرن، وكانت عليه جنابة، فدخل في ماء النيل ليغتسل، ورأى (كما يحصل في المنام)، وهو في الماء، كأنَّه في

بغداد وقد تزوَّج وأقام مع زوجته ستة أعوام، ورُزِق منها بأولاد. ثمَّ رُدَّ إلى نفسه وحسّه، وهو في الماء، ففرغ من غُسْلِه، وخرج من النهر. ثمَّ لبس ثيابه وجاء إلى الفرن وأخذ الخبز وقصد بيته وأخبر أهله بما رآه في واقعته. فلمَّا مضت عدَّة أشهر جاءت تلك المرأة التي رأى أنَّه تزوَّجها في الواقعة، تسأل عن داره. فلمَّا اجتمعَتْ به عرفَها وعرف الأولاد الذين رُزِقَ بهم منها، ولم يُنكرهم. سُئِلَت المرأة عن وقت زواجه بها، فأخبرت أنَّهما متزوجان منذ ستة أعوام، وأنَّ مَنْ معها من صِبْيَةٍ هم أولادُ الرجل منها.

لقد خرج في الحسّ ما وقع للرجل في الخيال. وهذه من مسائل ذي النون المصريّ الستّ التي تحيلها العقول ويقبلها الكشف والذوق. إنَّ أذواق أهل المدينة الفاضلة من جنس هذه الوقائع التي يشتبك فيها الحسّ بالخيال، بحيث يستطيعون عبور تلك العوالم والوصل بينها دون استحالة. هي رحلة في الزمان، أو لنقل إنَّها إدخال زمان في زمان، ولعلَّ في قابل القرون يتحقَّق في الحس هذا الأمر للإنسانيَّة فلا ينكرونه، لأنَّهم استطاعوا وقتئذٍ اختراع آلاتٍ للسفر عبر الأزمنة.

قال أبو العلاء: وهل حصل لك ذوقٌ في مثل هذا الذي يقع في الخيال فيخرج في الحسّ؟

فأجاب الحاتميُّ: أي نعم، حصل لي مثل ذلك.

فقال أبو الطيِّب: أخبرنا عن هذا الأمر، فنحن لا نكاد نصدِّق.

قال الحاتميُّ: هل سمع أحدكم بهذا البيت:

شُغِفَ السُّهادُ بمقلتي ومَزاري فعلى الدُّموعِ مُعَوَّلِي ومُشارِي

فقال جميعُهم: لم نسمع به أبدًا.

فقال الحاتميُّ: لكنَّه بيتٌ قاله حسَّان بن ثابت.

فقال أبو العلاء: وأَيْمُ اللَّـهِ، إنِّي لأحفظُ شعرَ حسَّانٍ كلَّه، ولم يسبق لي أن سمعتُ بهذا البيت.

فقال الحاتميُّ: لكنَّه من شعره تحقيقًا.

فقال أبو الطيِّب: وأنا أيضًا أؤكِّد كلام أبي العلاء، فليس هذا البيت في شعر حسّان الذي نرويه.

فقال الحاتميُّ: اسمعوني جيِّدًا. أنا أعلم أنَّه ليس معدودًا في الشعر المرويّ عن حسَّان، لكنِّي لا أشكُّ لحظةً واحدةً أنَّه من شعره.

فقال الحكيم الترمذيُّ: واللَّـه لقد حيَّرْتَنا يا أبا عبد اللَّـه، فنحن نروي شعرَ حسَّان لم نُسْقِطْ منه بيتًا واحدًا، لكنَّ البيتَ الذي ترويه لم نسمعه منسوبًا إليه من قبل.

فقال الحاتميُّ: «كان عندنا في دمشقَ وقتَ كنتُ مستقرًّا بها رجلٌ من أهل الفضل والأدب والدِّين يقال له يحيى بن الأخفش من أهل مراكش، كان أبوه يدرِّسُ العربيةَ بها، فكتب إليَّ يومًا من منزله بدمشق، وأنا بها يقول لي في كتابه: «يا وليّ، رأيتُ رسولَ اللَّـه ﷺ البارحةَ بجامع دمشق، وقد نزل بمقصورة الخطابة إلى جانب خزانةِ المصحف المنسوبِ إلى عثمان رضي الله عنه، والناسُ يهرعون إليه ويَدخلون عليه يُبايعونَه، فبقيتُ واقفًا حتى خفَّ الناسُ، فدخلتُ عليه وأخذتُ يدَه، فقال لي: هل تعرف محمَّدًا؟

قلت له: يا رسولَ اللَّـه، مَنْ محمَّدٌ؟

فقال: ابنُ العربي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قال، فقلت له: نعم أعرِفُه.

فقال له رسول اللَّـه ﷺ: إنَّا قد أمرناه بأمر، فقل له، يقول لك رسول اللَّـه: انهضْ لما أُمِرتَ به، واصْحَبْهُ أنتَ، فإنَّك تنتفعُ بصحبَته؛ وقل له: يقول لك رسولُ اللَّـه: امتدحِ الأنصارَ، ولْتُعَيِّنْ منهم سَعْدَ بنَ عُبادةَ[1]، ولا بُدَّ.

ثمَّ استدعى بحسَّان بن ثابت، فقال له رسولُ اللَّـه ﷺ: يا حسَّانُ، حفِّظْهُ بيتًا يُوصِلُهُ إلى محمَّد بن العربيّ يَبْنِي عليه ويَنْسُجُ على منواله في العَروض والرَّوِيّ.

فقال حسَّان: يا يحيى، خُذْ إليكَ، وأنشدني بيتًا، وهو:

شُغِفَ السُّهادُ بمقلتي ومَزاري فعلى الدُّموعِ مُعَوَّلِي ومُشارِي

وما زال يردِّدُ عليَّ حتى حفظتُه.

ثمَّ قال لي رسول اللَّـه ﷺ: إذا مَدَحَ الأنصارَ فَاكتُبْهُ بخطٍّ بَيِّنٍ، واحمِلْهُ ليلةَ الخميس إلى التُّرْبَة التي تسمُّونها «قبر السِّتّ»، فستجد عندها شخصًا اسمه حامِد، فادفَعْ إليه المديح».

قال ابن العربيّ: «فلمَّا أخبرني بذلك هذا الرَّائي وفَّقه اللَّـه عملتُ القصيدة من وقتي من غير فكرة ولا رويَّة ولا تَثبُّطٍ، ودفعتُ القصيدةَ إليه.

فكتب إليَّ أنَّه لما جاء قبرَ السِّتِّ وصل إليه بعد العشاء الآخِرة،

---

(1) خصص ابن العربي بعض قصائده التي ذكر فيها سعد بن عُبادة، من ذلك قوله: «عن عطاء بن يسار... عن سعيد عن عُباده» في القصيدة التي مطلعها «حدَّث الشَّيخ أبونا... عن أبيه عن قَتادهْ» (انظر تحقيقنا للدِّيوان الكبير، الجزء الثالث، القصيدة 4)؛ وقوله أيضًا في القصيدة رقم 271 من الجزء نفسه: «سعدٌ سليل عُبادةٍ فَخَرتْ به... يومَ السقيفة جُملةُ الأنصار».

قال: فرأيتُ رجلًا عند القبر، فقال لي ابتداءً: أنت يحيى الذي جاء من عند محمَّد ابنِ العربيّ؟

قال: فقلت له: نعم.

قال: فأين القصيد الذي مدح به الأنصارَ عن أمرِ رسول اللَّـه ﷺ؟

فقلت: هو ذا عندي، فناولتُه إيَّاه، فقرب من الشَّمعة ليقرأَ القصيدة، فلم أره يَخْبُرُ ذلك الخَطَّ، فقلت له: تأمرني أنشدكَ إيَّاها؟

قال: نعم. فأنشدتُه إيَّاها».

فقال الفارابيّ: سبحان اللَّـه. هذه قضيَّة عجيبة غريبة، فماذا سيقول رواة شعر حسَّان عن هذا البيت؟ هل سيسقطونه من حسابهم؟

فقال أبو الطيِّب: نعم يا أبا نصر. كيف لهذا البيت الذي أنشدنا ابنُ العربيّ أن يكون من شعر حسَّان، وعامَّةُ الخلق ممَّن رَوَوْا شعرَه لا يعرفونه؟ وكيف لبيتٍ شعريٍّ قيل في رؤيا أن يحكمَ على عالم الواقع الحسّيّ الذي يحتكم إليه الناس؟

فقال الترمذيُّ: والأنكى من ذلك أنَّه عن أمر رسول اللَّـه، ورؤياهُ حقٌّ، فكيف يُرَدُّ؟

فقال الحاتميُّ: لقد بشَّرني رسول اللَّـه أني من أنصاره الذين نصروه ونفَّس اللَّـه بهم عنه لما اشتدَّ كرْبُه من المنازِعِين، حتى قال «إنِّي لأجدُ نفَسَ الرَّحمن من قِبَلِ اليَمَن».

فقال أبو العلاء: نحن نعلم أنَّه لم يذهب إلى اليمن، فكيف ذلك؟

فقال الحاتميُّ: نعم، هو لم يذهب إلى اليمن لكنَّ نفَسًا أدركه من قِبَلِ اليمن، وما وصله ذلك النَّفَس حتى نفَّسَ اللَّـه عنه من الشدَّة

والضِّيق الذي كان فيه بالأنصار ﷺ. فالنَّفَس تقدَّم إليه في باطنِه وقلبِه يبشِّره بما سيُظهره اللّـه من نصرة الدين وإقامته على أيدي الأنصار.

ثمَّ أضاف: هذا البيت الذي قاله حسَّان بن ثابت عن أمر رسول اللّـه أَصَحُّ بيتٍ قاله، ورواة شعره في عالم الحسّ لا يعرفونه. وهذا كافٍ أيُّها السادة لتعلموا أنَّ عوالِمَ الغيب أَفْسَحُ من عوالم الحسّ، وأنَّها حاكمةٌ عليها عند من يعقل.

فقال أبو العلاء: إذا كان اللّـه قد نفَّسَ عن نبيِّه بما ذكرتَ لنا، فبماذا نفَّسَ عنه لَمَّا جعلك من الأنصار؟

فقال ابن العربيّ: إنَّ الأنصار أُمَّةٌ محمَّديَّة تنصر النبوَّة في كلِّ عصر وأوان. وإنَّ لكلِّ زمانٍ أنصاره. ولقد نفَّس اللّـه عن الأُمَّة بظهور الختم المحمَّديّ ما لحقها من ضيق بعد مرور ستة قرون على انتقال النبيّ، وما زال المددُ هَلُمَّ متواصلًا إلى العالمِين. إنَّ الختم المحمَّديّ من أنصار النبيّ العربيّ المهتدي، وأنتم أيضًا بصفتكم أختامًا في الشعر والأدب والعرفان والحكمة أنصارٌ لهذه الأمة نفَّس اللّـه بكم عنها ما لحقها من ضيق. إنَّ أخطرَ ما يُهَدِّدُ أُمَّةَ الوُسْعِ هو الضيق، ضيقُ الأفكار وضيقُ الأُفقِ، وضيقٌ بالاختلاف، وضيقٌ بالتنوُّع والتعدُّد...

ولقد أطلعني الحقّ على رجلٍ من الأنصار في الزمان الأخير، يُسمَّى محمَّد قاسم الكستي من أهل مدينة بيروت، وهو من العلماء الأدباء، قد نَظَمَ قصيدةً افتتحها ببيت حسَّان بن ثابت، نحا فيها نحو القصيدة التي أمرني النبيُّ بنظمها في مدح الأنصار، وبلغت أبياتها اثنيْن وأربعين بيتًا، بينما كانت قصيدتي سبعة عشر بيتًا (17) على عدد ركعات الصلاة اليوميَّة. فكما أنَّ الصلاة تحفظ وقت المؤمن وزمانه، فكذلك الأنصار في كلِّ زمانٍ يحفظون أمور الأمَّة وينصرون النبوَّة.

ثمَّ توجَّه إلى المتنبّه قائلًا: فلعلَّ لك يا أبا الطيب شعرًا آخر لم يشمَّ منه الخلق بيتًا من الأعيان. ولعلَّ لك قصيدةً كنتَ تحبُّ أن تكتبها ولم يتيسَّر لك ذلك.

ثمَّ توجَّه إلى المعرّي قائلًا: ولعلَّ لك يا أبا العلاء رسالةً في الأدب فوق رسالة الغفران، ولعلَّ الوقت لم يسعفك لإملائها.

ثمَّ توجَّه إلى الفارابيّ قائلًا: ولعلَّ لك يا أبا نصر مقالةً في الفلسفة تسمو على ما كتبت لم يطَّلع عليها حكماء الزمان.

ثمَّ توجَّه إلى الترمذيّ قائلًا: ولعلَّ لك يا أبا عبد اللَّـه أسئلةً خبَّأتَها لِتَرُوزَ بها الأولياء في مُقْتَبَلِ الدَّهْرِ في كلِّ مكان.

لكلِّ أديبٍ وشاعر وعارف وفيلسوف كُنَّاشٌ مَكتوم له وجودٌ مقصور على عالم الإمكان، ولم يخرج قطُّ إلى عالم الأعيان، فما موقعه في التاريخ؟ لا شكَّ أنَّ المؤرِّخين سينكرون وجوده كما أنكرتم أنتم بيت حسَّان الذي ذكرت لكم، ويتلوه شاهد منه. التاريخ إذن تاريخان: مكتوب ومضمر؛ معلوم ومكتوم. وشأن الختميَّة أقربُ إلى التاريخ الثاني منه إلى التاريخ الأوَّل، فلا تُسْرِعُوا في الإنكار عن مراتب الكتميَّة.

قال الحكيم الترمذيُّ: يا أبا عبد اللَّـه، أَتُرَى أَطْلَعَكَ الحَقُّ عَلَى أَنْصَارٍ محمَّدينَ آخرينَ سيأتون في الزمان المقبل؟

ثمَّ قال أبو العلاء: أَهُنَاكَ مَنْ سَيَحْكِي هذه الحكايَةَ عَنَّا ويُخْبِرَ بهذا اللقاء من عالم الخيالِ الخلاَّقِ فيما بيننا، ويستأنفُ الحَكْيَ مِنْ جَدِيدٍ عن الأختام ومدينَتِهِم؟

قال ابن العربيّ: إنَّنا ما اجتمعنا إلَّا لأنَّنا صِرْنَا حَدِيثًا مُؤَثَّلًا بعدنا، وسيأتي من **عبادِ اللَّـه** من **أُمَّةِ العرفان امْرُؤٌ** أديبٌ عارفٌ من أهل **المروءة**

والإحسان، يروي سيرتَنا، وينتصر لنا، ويُخْبِرِ عن قِصَّتَنَا، ويُخَلِّدُ ذكرَنا في المدينة الفاضلة. إنْ هِيَ إلَّا سِلْسِلَةٌ نُورانيَّةٌ مُتَوَاصِلَةُ الحَلقاتِ وَالأَسَانِيدِ العَالِيةِ كابِرًا عن كابِرٍ. ولَنْ تتوقَّفَ الحكايةُ وتَقومَ السَّاعَةُ حتى لا يبقى على وَجْهِ الأرض خَتْمٌ عارفٌ يقول: اللَّـه، اللَّـه.

ثمَّ أضاف قائلًا: أنتم أيُّها السادة أنصارُ رسول اللَّـه من نُخْبَةِ العالمينَ في الشِّعر والأدب والفلسفة والعرفان، وهذه هي الأمَّة المحمَّديَّة المصطفاة من خُلاصة صَفْوة الخلق. وهذا عِلْمٌ شريفٌ عزيزٌ لم تَمْهُرْ صُحُفَهَ أقلامُ الإنْس ولا الجَانّ ولا الملائكة الكرام.

لقد وقفتُ على كلامكم، وعلمتُ منه سرَّ شُفوفِكم وتصدُّرِكم وطموحِكُم لتقلُّد مقام الختمية في الشعر والأدب والحكمة والعرفان التي بلغتْ كمالها عندكم، لكنَّكُمْ نَسِيتُمْ أَنَّ سرَّ الختمية آتٍ من سِرِّ الإنسان الكامل خَتْمِ الأنبياء والرُّسُل، **أحمدُ محمَّدٌ** عليه الصلاة والسلام، وقد مُنِحْتُمْ من نفحات ذلك الجود الأحمديّ المحمَّديّ قطرةً من المروءة الروحانيَّة هي التي أَعْطَتْ لكم ما حُبِيتُم به من التَّمَيُّز.

ثمَّ توجَّه إلى أبي الطيِّب وأبي العلاء: إنَّ لكما نسبةً من الحقيقة الأحمديَّة، وقد سرى لكما هذا السِّر من اسمه «أحمد»، الذي تحملون اسمه.

ثمَّ التفتَ إلى الحكيم الترمذيّ وأبي نصر الفارابيّ: أمَّا أنتما، فلكما نسبة من الحقيقة المحمَّديَّة، واسمكما على اسمه «محمَّد».

هذا أيُّها الحكماء هو سِرُّ تميُّزكم ونسبتكم مع ختم الأنبياء والمرسلين. أمَّا أنا «محمَّد ابن العربي»، فليتني أكون شعرةً في صدر «محمَّد» عليه الصلاة والسلام.

أنا المُحْيِ لا أُكْنِي ولا أتبلَّدُ أنا العربيُّ الحاتميُّ محمّدُ

لقد جئتم بعد **خاتمة القرون الثلاثة الأولى** التي هي خير القرون، ولكم نِسْبَةُ مروءةٍ روحانيَّةٍ مع الفاتحة النورانيَّة (**أَلَمر**).

ثمَّ توجَّه إلى الحكيم الترمذيِّ قائلًا: إنَّ الحرف المناسب لك من هذه الفاتحة يا أبا عبد اللّـه هو الألف. فهو مبتدأ الحروف وله الاستقامة والقيُّوميَّة، كما له الآخريَّة.

ثمَّ توجَّه إلى أبي الطيِّب قائلًا: أما أنت يا أبا الطيِّب، فالحرف المناسب لك في هذه الفاتحة النورانيَّة هو اللَّام. ومن اللَّام كان الميل وكان اللَّوم، وقد نلت من اللَّوم حظًّا ومن الميل حظوظًا، فملت إلى هنا وملت إلى هناك كما مال اللام إلى الألف، وتقلَّبتَ من بلدٍ إلى آخر، وحصل لك اللَّوم من الميل مع هؤلاء وأولئك حتى لقَّبك خصومك بالمتنبِّي. لكنَّك حصَّلتَ الكمال الذي قلتَ عنه في رائعتك **اللامية** التي افتخرتَ بها على سائر الشعراء:

ما نال أهلُ الجاهلية كلُّهُمْ شعري ولا سمِعَتْ بسحريَ بابلُ

وهي القصيدة التي نافح بها عنك أبو العلاء في مجلس الشريف المرتضى في بغداد، وامتُحِنَ بسببها حتى جُرَّ من رجليْه:

وإذا أتتكَ مذمَّتي من ناقصٍ فهي الشّهادةُ لِي بأنِّيَ **كاملُ**

ثمَّ توجَّه إلى أبي العلاء يريد أن يطلعه على حرفه الذي اختصَّ به من فاتحة (**أَلَمر**)، لكنَّ أبا العلاء بادر حتى قال: لعلَّه الميم؟

فقال الحاتمي: أصبتَ يا أبا العلاء يا صاحب اللُّزوميَّات، ورهين المحبسيْن، وخاتمة الأدباء الحكماء. وقد حصل لك من سرِّ علاقتك بأمِّك ما جعل الميمَ حاكمًا عليك. وقد رثيتَها في ميميَّتك الرائعة:

وأمَّتْني إلى الأجداث أُمٌّ يَعِزُّ عليَّ أن سارت أَمامي
وأُكْبِرُ أن يُرَثِّيها لساني بلفظٍ سالكٍ طُرُقَ الطَّعامِ
يُقالُ فَيَهْتِمُ الأنيابَ قولٌ يُباشِرُها بأنباءٍ عِظامِ
كأنَّ نَواجذي رُدِيَتْ بصخرٍ ولم يَمْرُرْ بهنَّ سوَى كلامِ
ومَن لي أن أصوغَ الشُّهْبَ شِعْرًا فَأُلْبِسُ قبرَها سِمْطَيْ نِظامِ
مضت وقد اكتهلتُ فخِلتُ أنّي رضيعٌ ما بلغتُ مدى الفِطام

وهذا تصويرٌ بديع حيث وُفِّقْتَ إلى هذه المعاني الدَّقيقة التي تصوِّر فيها كيف يعزُّ عليك أن تتقدَّمك أمُّكَ إلى القبور، وتتمنَّى لو متَّ قبلها. وما أَرْوَعَ قولَك لمَّا صوَّرتَ شعورَك بالحرج حين رَثَيْتَها بألفاظٍ تخرج من الطريق نفسها الذي يسلكه الطعام إلى جوفك، فكأنَّك تعتذر لأمِّك على أنْ خالط طريقُ رثائها وزاحمه الطريق نفسه الذي يَمُرُّ منها الطعام. وكأنَّ خروج الرثاء لم يصحّ لك إلَّا بدخول الغذاء. وهذا اعتذار بديع، فقد جعلت وصول الغذاء الذي به تستمرّ الحياة شرطًا وسببًا في ذلك الرثاء، فما أشدَّ هذه المزاحمة بين غريزة البقاء، وبين رثاء من نحبُّ بمن غيَّبه الفَناء. وحتى تعتذر عن هضم حقِّها في هذا الرثاء المَشوب، فإنَّك جعلت جزاء أنيابِك التي تهرس الطَّعام تتكسَّر وتسقُط حتى لا تَسُوغَه فَتَهْلك، وكأنَّها رُمِيَتْ بصخر عقابًا لها إذا مَرَّتْ بها كلماتُ رثائها من هول ذلك الفقد وعِظَمِه. ولم تقف عند هذا الحدِّ بل إنَّكَ طلبتَ المساعدة حتى تجعل النجومَ شعرًا كالقلادتيْن تُحلِّي بهما قبرَ أمِّك. ولشدَّةِ ذلك الفقد، فقد حسبتَ نفسَك طفلا رضيعًا لم تبلغ سِنَّ الفِطام مع أنَّك صرتَ كهلًا.

ثمَّ أضاف الحاتميُّ: يا أبا العلاء، لقد حَبَسْتَ نفسَك ودخلتَ خلوة الميم[1] الأربعينيَّة في بيتك وعَمَاك بعد وفاة هذه الأُمّ العظيمة، وألزمت نفسك في حبس شعر اللُّزوميَّات.

سكت الحاتميُّ قليلًا ثمَّ نظر إلى الفارابيّ، وقال: أما أنت يا أبا نصر، فإنَّ حرفَ الراء حاكمٌ عليكَ في كُنْيَتِكَ ونِسْبَتِكِ. ثمَّ إنَّك خاتمة من سبقَكَ من الحكماء الفلاسفة حتى لقَّبوك بالمعلم الثاني لكونك جمعتَ بين روحانيَّة أفلاطون الإلهيّ وأرسطو العقلانيّ، وبين الحكمة الشرعيَّة والحكمة النظريَّة. وقد أنصفك صاحبُنا عبد الحقّ ابن سبعين فَذَكَرَ أنَّكَ أَفْهَمُ فلاسفَةِ الإسلام وأذكَرُهُم للعلوم القديمة، وأنَّك الفيلسوفُ فيهم لا غير، وأنَّك مدركٌ محقِّق. وهذه شهادة معتبرة من أحد المحقِّقينَ المقدَّمين الذي لم يترك فيلسوفًا من فلاسفة الإسلام إلَّا وتعقَّبهُ وانتقده انتقادًا علميًّا لاذعًا، فلم يَسْلَمْ من نقده الشَّيخُ الرئيسُ ابنُ سينا، ولا حُجَّةُ الإسلام أبو حامد الغزالي، ولا أبو الوليد ابن رشد.

قال الفارابيّ: ما هي مزيَّة هذه الفاتحة النورانيَّة في العدد؟ وما حظَّنا من ذلك؟

قال الحاتميُّ: عدد الفاتحة النورانيَّة (أَلَمَر) من حيث العدد هو 271. وهذا العدد من الأعداد الأوَّليَّة التي لا تقبل القسمة إلَّا على نفسها أو الواحد. ولا يخفى أن هذه الأعداد الأوليَّة تناسب في دوائر الولاية مراتب الأولياء الأفراد. ولتعلموا أن الخضر من رؤساء الأفراد المحفوظةِ حياتُهم إلى آخر الزمان، وله العدد الأولي الخاصّ بمقامه. فمنهم من له عدد الهويَّة السارية في كلِّ شيء، والعارية عن كلِّ

(1) إشارة إلى عدد الميم «م» = 40.

شيء، هو= 11، وهو العدد الأوَّليّ الخامس، وقبله أربعة أعداد أوَّليَّة: 2، 3، 5، 7. ومِنْ أكابر الأولياء ورؤسائِهم مَنْ مقامُه الفردانيّ مناسبٌ لعدد الفاتحة النورانيَّة (أَلَمَر) = 271. وهذا العدد هو مجموع الأعداد الفردانيَّة الإحدى عشرة المتتالية:

271 = 43+41+37+31+29+23+19+17+13+11+7

إنَّ هذه الفاتحة (أَلَمَر) تقرأ تفصيلًا: ألف لام ميم را = 11 حرفًا. وهو كما ذكرت لكم عدد الهويَّة «هو». ومجموع أعداد حروف هذه الفاتحة التفصيليَّة (ألف لام ميم راء) يساوي 474. ولهذا العدد وِفْقٌ مُثَلَّثٌ لعلكم تُوفَّقُونَ إليه في ليلة تختُّمكم وتعريسكم.

سكت الحاتميُّ معتَبِرًا بعد هذه النفحات العدديَّة والرياضيَّات القُدُسيَّة، واستغرق الأختام يتأمَّلون في هذه اللطائف الخفيَّة التي لم تَطْرُقْ أسماعَهم ولا قلوبَهم من قبل.

ثمَّ انتقل ابن العربيّ إلى الحديث عن السياسة الدنيويَّة ليميِّزها عن سياسة الإمامة العظمى حتى لا تلتبس بأمور السَّعي إلى السلطة السياسيَّة:

أيُّها الأحباب، إن من أَوْجُهِ الدَّهْرانية[1] التي ينبغي الحذر منها هي حينما يتخلَّى حَمَلَةُ الإرث الدِّينيّ والرُّوحيّ عن وظائفهم الدِّينيَّة والرُّوحيَّة ويطلبون السلطة السياسيَّة والمملكة الدُّنيويَّة لذاتها.

(1) الدهرانيَّة: Secularism، بمعنى العَلْمانيَّة، فكل مشروع دينيّ سياسيّ يطلب السياسة للوصول إلى الحكم هو على الحقيقة مشروع علمانيّ. والأمثلة التاريخيَّة كثيرة مثل الثورة الخمينيَّة؛ ومشاريع ما يسمَّى «الإسلام السياسيّ» (السلفيَّة والإخوانيَّة والداعشيَّة)، لا تختلف في العمق عن المشاريع السياسيَّة العلمانيَّة. إنَّ كل مشروع يختزل الدين في بعده السياسيّ فحسب هو مشروع عَلمانيّ.

لا ينبغي للصالحين أن يَسْعَوْا في الاستيلاء على السُّلطة السياسيَّة، فَرِسَالَتُهُمْ أسمى من ذلك، إنَّهم يقودون المدينة الفاضلة التي تحكم باطن الإنسان، ويؤكِّدون على بعده الرُّوحيّ. وتلك هي السياسة العليا التي ينبغي أن يتشوَّفوا إليها ويعملوا على بلوغها.

إنَّ كيمياء السعادة تكمن في سلوك «طريق الاعتدال التي هي المحجَّة التي تخرج بك إلى **المدينة الفاضلة الذهبيَّة الكاملة** التي من حصل فيها لم يقبل الاستحالة إلى الأنقص منها».

ثمَّ ختم قوله قائلًا: «لا يخفى على ذي عينيْن الفرقُ بين الذَّهب واللُّجَيْن. أين الإنسانُ الحيوانُ من الإنسانِ المخلوقِ على صورةِ الرحمن؟

هو **النسخة الكاملة والمدينة الفاضلة**. الذَّهبُ لا ظلَّ له فليس كمثله شيء، والفضَّةُ على نصيبٍ من الذُّلّ لما فيها من الظِّلّ[1] وما لِظلِّها فَيْءٌ؛ فالنور الخالص لِلْعَيْن والممتَزِجُ لِلُّجَيْن. الذَّهَبُ نُورٌ على نور، واللُّجَيْنُ فَارَ التَّنُّور».

أيُّها الحكماء، إنَّ **مدينة العلم** هي المدينة الفاضلة، وكلُّ ختمٍ هو بابٌ من أبواب هذه المدينة المحمَّديَّة الجامعة: «أنا مدينةُ العلم وعَلِيٌّ بابُها». الزموا الأعتاب حتى تفتح لكم الأبواب، ولا تدَّعوا ختميَّة الولاية ففيها رائحة المزاحمة.

قالوا جميعًا: كيف ذلك؟

---

(1) هكذا في الأصل المخطوط من كتاب الفتوحات المكِّيَّة (الباب 559) بخطّ المؤلِّف وهو الصحيح. أمَّا في النسخ المطبوعة فقد كتبت هذه الجملة بشكل خاطئ، هكذا: «والفضة على نصيب من الظلّ لما فيها من الطل».

قال الحاتميُّ: من طلب نعتَ الولاية فكأنَّما طلب اختصاصًا إلهيًّا، والوليُّ على الحقيقة هو اللَّـه، وهو اسمٌ من أسمائه. ألا ترون أنَّ الإنسان الكامل تَسمّى بالعبد والرَّسول تخصيصًا وتشريفًا، والرِّسالة والنبوَّة منقطعتان، بينما الولاية مستمرَّة لأنَّ سندها إلهيّ، ومن طلبَها وادَّعاها من العباد كمن زاحم الحقّ في اسمٍ من أسمائه، وأَقَلُّ أنواعِ المزاحمة ما كان مزاحمةً إسميَّة. والعبد على قدر ما يخرج من عبوديَّته ينقص من تقرُّبه من مولاه لأنَّه يزاحمه في أسمائه. وقد أبقى الحقّ علينا اسم الوليّ، وهو من أسمائه، ونزعه من رسوله وسمَّاه بالعبد والرسول حتى يكون أكمل المتحقِّقين بالعبوديَّة. إنَّ الولاية التي يتشوَّف إليها الأولياء هي ولاية اللَّـه ورسوله ﴿إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّـه وَرَسُولُهُ﴾، وقول النبيّ عَلَيْهِ السَّلَامُ «أنا وَلِيُّ كلّ مؤمن»، أي ناصر المؤمنين. أمَّا التشوُّف إلى ختميَّة الولاية دون تقييدها بقيد «المحمَّديَّة» يكاد أن يقطع العبد عن كمال عبوديَّته، فانتبهوا، فهذا علمٌ خفيٌّ من أسرار الولاية في الوجود حتى تنسُبوا الولاية إلى اللَّـه وتقيِّدوها بالإضافة إليه، فتقولوا «وليُّ اللَّـه»، أو تتبرَّأوا من هذه المزاحمة بنسبتها إلى رسول اللَّـه وإضافتها إليه، فتقولوا «وليٌّ محمَّديٌّ». وهذا ما سلكناه حينما تكلَّمنا على ختميَّة الولاية المحمَّديَّة، فقد قيَّدنا الولايةَ بالمحمَّديَّة بنسبتها إلى رسول اللَّـه، فصحّ الأمر. وهذا هو الأدب الذي ينبغي أن نتأدَّب به في هذا المقام، وبه تكتمل الوُصْلَةُ بين العبد ومولاه من أكمل الوجوه. وقد أمر العبدُ الكامل الصحابةَ بالتبليغ على قدر تحمُّلهم، ولا شكَّ أنَّ التبليغ من صفات الأنبياء والرُّسل، فترك لنا هذه الصفة التي استحقَّها نَقَلَةُ الوحي باللَّفظ من المقرئين والمحدّثين لا بالمعنى. فمن نقل الوحي بالمعنى فإنَّما نقل فهمَه، فهو رسولُ نفسِه. وغاية الأمر أن نكونَ رُسُلَ رَسولِ اللَّـه.

التفت الحاتميُّ إلى الجماعة وسألهم: كيف كنتم تتخيَّلون الجنةَ يا سادة؟

قال الفارابيّ: اسمح لي أن أُحَوِّرَ سؤالَك قليلًا لأقول: كيف يتخيَّلُ الأشخاصُ الطَّاعِنونَ في السِّنِّ الجنَّةَ؟ لا شكَّ أنَّ أكثرَ الناس شغفًا بموضوع الجنَّة هم الشيوخُ والمسنُّون.

ضحك الجمع من قول الفارابيّ.

ثمَّ قال الحاتميُّ: قل لنا إذن، كيف يتخيَّل هؤلاء الجنَّة؟

قال الفارابيّ: لو أجرينا تحقيقًا لدى هذه الفئة من الناس، وسألناهم هذا السؤال لأجابوا جوابَ المحروم من شيءٍ في حياته الدنيا يريده أن يتحقَّقَ في الجنَّة. وأغلبُ الظَّنِّ أنَّ ذلك الأمرَ يختلف باختلافِ نوعِ الحرمان.

فقال المتنبِّه: هل تزعُم أنَّ الجنَّةَ ما هي إلَّا تلبيةٌ لكلِّ أنواع الحرمان، كمن حُرِم من الميراث، أو من حقوقٍ أخرى، أو امرأةٍ حُرِمَت من الإنجاب، أو مُتَشَوِّفٍ لسلطانٍ حُرِمَ من مُلْكٍ، أو عشيقٍ حُرِمَ مِنْ حبيبه، وهكذا دواليك.

فقال المعرِّي متحسِّرًا ساخرًا: ورابعٌ يطمع في أن يرى الأشياء والأضواء والألوان، ويقضي عطلةً على سواحلِ شواطئ لازُورْدِيَّةٍ ويتمَلَّى برؤية حِسَانٍ بَضَّةٍ بأجسادٍ بِلَّوْرِية.

فأردف المتنبِّه مازحًا: بشرط أن تكون له عيونٌ سليمةٌ ونَظَرٌ صحيحٌ وأصابعُ تَسْرَحُ كالغَنَمِ القَاصِيَة.

قال الفارابيّ: أراكم يا سادة قد استرسلتم في المزاح، لكنْ دعوني أقول لكم، أليس من العدل أن تكونَ الجنَّةُ على هذا النحو لتلبية هذا الحرمان حتى يكونَ لها معنى بالنسبة لكلِّ محروم؟

قال الحاتميُّ: نعم، في الجنَّة شيءٌ من هذا الحرمان الحسّيّ، وإلَّا لم تكن هناك سعادةٌ أبديَّة ونعيمٌ خالد. لكن فيها «ما لا عينٌ رأت ولا أذُنٌ سمعت ولا خَطَرَ على قلب بشر»، أي أنَّ كلّ الحسّيَّات والمعنويَّات قد اختُزلت في هذا التوصيف العجيب الذي جمع مَداركَ المعاينة والإخبار والكشف القلبيّ. إذا كانت الجنَّة عبارةً عن تلبيةٍ لمرغوبات حصل فيها حرمان، فإنَّها لم تَعْدُ أن تكونَ أمرًا متوقَّعًا، بينما حقيقةُ الجنَّة أنَّ جائزَتها الكبرى تَكمُن فيما لا يُتَوَقَّعُ. إنَّ مكافأة أهل الجِنان مجهولةٌ وفَوْقَ توقُّعات أهلِها. ثمَّ هل تساءلتَ يا أبا نصر: كيف نَصْنَعُ حينما تتزاحَمُ الحقوق، ويطلب شخصان فأكثر الشيءَ نفسَه؟ كيف سنَعدِلُ بينهما؟ وهل إذا أعطينا أحدَهُما ذلك الشيءَ الذي حُرِمَا منه، ومنعناه عن الآخر، لكونه لا يقبل القسمةَ على اثنيْن، أفلا نكونُ قد أبَّدنا التحريمَ بالنسبة للثاني؟

الإنسانُ منذ كان يعلم أن ما يصنَعُ القِيمَةَ هي الفرادةُ والتَّفَرُّدُ والاستئثار بما ليس عند الغير. أمَّا الاشتراكُ في الجائزة فمغبونٌ صاحِبُهُ، محرومٌ في لذَّتِه. هذا في الجوائز المعتادة من الأمثال، أمَّا إن كان المتفضِّلُ بالجائزة هو المعطاءُ المحسان الجواد الكريم، فلا شكَّ أنَّه لا ينبغي أن يستشعِرَ الفائزونَ بعطِيَّته أدنى مشاركةٍ أو مزاحمة في هذا الكرم الإلهيّ بلا حدود.

الجنَّة إذن أَوْسَعُ من توقُّعَاتِ الناس، ولهذا فيها «ما لا عَيْنٌ رأتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَر». إنَّ مكافأة الجنَّة على قدْر الواهب لا على قدْر توقُّعات الشخص الموهوب. فمهما علا سقفُ طلباتِنا وَأُفُقُ انتظاراتنا، فإنَّ المعطي يعطي لكلِّ واحدٍ فوق ما يطلب، بل فوق ما يتوقَّع أن يَصِلَه. وهذا هو الكرم المطلق.

قال المعرّي: بماذا سينشغل أصحابُ الجنَّة ما دام أن جميع رغباتهم ستتحقَّق، وأنَّه لا عملَ سيشغلهم ولا رغبةَ سَيُحرمون منها، بل يكفي أن يخطر أمرٌ ببالهم حتى يتمَّ استحضاره وتلبيته. يبدو لي أنَّ تخيُّلَ الجنَّة على هذا النَّحو مُمِلٌّ نوعًا ما. لا شكَّ أنَّ وظيفةً معيَّنَةً ستكون هي الغالبة على أهل الجنَّة.

فأجاب المتنبّه: إنَّها وظيفةُ البَسْتَنَةِ والاعتناءِ بالزهور والنباتات على اختلاف أنواعها. أَلَسْنَا في جنَّةٍ تجري من تحتها الأنهار؟ ثمَّ إنَّ الجِنان مَرْتَعٌ للطيور والغزلان وأنواع المخلوقات اللطيفة التي لها ألسنٌ تتخاطب بها ومنطِقٌ لا يخفى على أفراد جنسها. ولا شكَّ أنَّ مِنْ أسنى المطالب التي كنت دومًا أتخيَّلها هي أن تكون لي قدرةٌ على فهم منطق الحيوان حتى أفهمَ مرادها ورغباتها. ويبدو لي أنَّ جنَّة المدينة الفاضلة ينبغي أن تمنحَ لأهلها قدرةً على فهم كلِّ الألسن بما فيها أَلْسُنُ الطيور وغيرها.

فقال الفارابيّ: صدقتما، فالجنَّة روضةٌ وبستان، وينبغي أن يكون أهلُ الجنة أهلَ بَسْتَنَةٍ وعنايةٍ بالحدائق والمتنزَّهات، وأهل علمٍ بلغات كائناتها ولهجاتهم. فكما أنَّ لهجة الشاميّ مختلفة عن لهجة البغداديّ عن لهجة المغربيّ، فكذلك لهجة طيور الجنَّة مختلفة بحسب أصولهم والمناطق التي ينحدرون منها. لكنّي أرى أنَّ هذه صورةٌ للجنَّة تناسب شخصًا عربيًّا يعيش في بلدٍ صحراويّ قاحل يحلم بأرضٍ ذات خصبٍ ومياه، فهل صورة الجنَّة مختلفةٌ بالنّسبة لإنسانٍ آخر يعيش في بيئةٍ أخرى؟ ألا يمكن أن يكون البستانُ لشخصٍ عاش في بيئةٍ كلّها مياهٌ ونباتاتٌ وأشجار بقعةً من رملٍ وحرارةٍ وصخورٍ جرداء أو ملساء؟

ولنتصوَّر مثلًا شخصًا لم تُسْعِفْهُ الفرصةُ للسفر وزيارة الأماكن البعيدة والاستمتاع بها في حياته بسبب كثرة الأمطار، فلا شكَّ عندي أنَّ صورة الجنَّة عنده أن تتحقَّق أمنيته في أن تكون مكانًا يستطيع فيه السفر ويزور أمكنةً كثيرة دون أن يُصْرَفَ عن ذلك بسبب سوء أحوال الطقس وسقوط الأمطار.

ثمَّ حوَّل المتنبِّه النقاش إلى موضوعٍ آخر: كيف سيكون حال الأجسام في تلك الجنَّة؟

قال الترمذيّ: يعتقد أهل الكتاب بأنَّها ستكون أجسامًا بلا أَعْمَارٍ محدَّدَةٍ، لا يُصيبُها هَرَمٌ ولا شيخوخة، بَيْدَ أنَّ المسلمين يذكرون أنَّ أعمارَ أهلِ الجنَّة على عُمْرِ السَّيد المسيح عندما رفعه اللَّـه إليه، أي ثلاثة وثلاثين (33) عامًا. وليس من شكٍّ عندي أن هذا العُمُرَ مرتبطٌ بالشباب الدائم، لكنَّه عُمْرٌ رمزيّ، وهو نصف عدد 66 الذي يناسب عدد كلمة «اللَّـه»، لأنَّ الحقّ خلق الإنسان الآدميّ على صورته. إنَّ الخلود في هذا النعيم المقيم هو تحقُّق الصالحين بتجلِّيَات الألوهيَّة بصورةٍ أو بأخرى.

ثمَّ سأله المعرّي: هل توجد شمسٌ أو قمرٌ في الجنَّة، وهل يتعاقب عليها اللَّيل والنهار؟

فقال الترمذيُّ: لا يوجد شمسٌ ولا قمر، لذا ليس فيها ليلٌ أو نهار، لأنَّ نورَ الحقِّ يضيءُ الجميع، ولكنْ فيها بُكرات وعشِيَّات.

قال الفارابيّ: ما هو الهدف من الخلود؟

فقال الحاتميّ: إنَّ الحياةَ الخالدة نقيضُ الملل الذي تحدَّث عنه أبو العلاء، لأنَّ حياة الجنَّة بالنسبة لأهلها هي بناء مشروع لتأبيد الحياة. إنَّ الانشغال بهذا المشروع نقيضٌ للملل ونهايةٌ للكَدِّ والتَّعب والعمل.

ثمَّ سأل الفارابيُّ مرَّةً أخرى: اسمحوا لي يا سادة أن أقول لكم بأنَّ جميع الأحياءِ يعرِفونَ أنَّهم سيموتون، لكنْ هل سيعرف الأمواتُ أنَّهم سَيَحْيَوْنَ مرَّةً أخرى؟ هذا سؤالٌ ينبغي أن نستصحبه حتى ندركَ أنَّ قضيَّةَ الجنَّة هي قضيَّةُ حياةٍ وموت، وسؤالُ الموت لازمٌ فيها بشكل أو بآخر.

قال الترمذيّ: نعم هو سؤالٌ مطروح، لكنَّ شخصَ الموتِ سيُؤْتَى به في صورةِ كبش ثمَّ يُذبح للدَّلالة على أنَّ الخلودَ هو مشروعُ تأبيدِ الحياة الذي تحدَّث عنه أبو عبد اللَّـه ابن العربيّ. إنَّ مكافأة الصالحين بالجنَّة يدلُّ على شيءٍ مهم هو أنَّ الحياةَ على الأرض تعني أن يَقْبَلَ الناسُ بالموت لأنَّه رَدِيفُ الحصول على السَّعادة. فبقدر التَّضحية بكلِّ رغباتهم وغرائزهم في أرض الابتلاء وطلبهم لأمورٍ سامية، بقدر الأمل في حصولهم على الجائزة في جنَّة الرحمن.

ثمَّ سأل المتنبِّه: إنَّ الجنَّة عالمٌ فسيح جدًّا يَصْعُبُ تخيُّله، بحيث إنَّنا نعلم أنَّ بين كلِّ بابٍ وآخر من أبواب الجنَّة الثمانية، أربعينَ عامًا مَشْيًا. كما ورد «أنَّ في الجنَّة لمائةَ درجة وإنَّ ما بين الدرجتيْن لكَما بين السماء والأرض». تخيَّلوا كم يلزم المرء ليقطع هذه المسافات، وكم سيمشي من مِيلٍ كلَّ يوم، واضربوا الخارجَ في كلِّ عام، ستجدون أنَّ ذلك يَنِدُّ عن الإدراك في اتِّساع الجنَّة وانفِساحها. إنَّ رغبةَ الإنسان في اكتشاف هذه الجنَّة هي مثل رغبةِ الإنسان دومًا على وجه الأرض في اكتشاف وزيارة الكواكب الأخرى التي تملأ هذا الكون الفسيح رغم بُعْدِهَا عَنّا.

أليس من الاستمتاعِ بالجنَّة زيارةُ كلِّ جهاتها والوقوفُ على عَرَصَاتِها والدُّخولُ من كلِّ أبوابها واللِّقاءُ بجميع أهلِها؟ فأين يدركُ

ساكنَها مَلَلٌ كي يزورَ كلَّ نواحيها؟ ثمَّ هل الحورُ العِينُ المقصوراتُ في خيامها مُقيمةٌ في جهةٍ واحدة من جهات هذه الجنَّة دون أخرى؟

أليس من الأَوْلَى أن تكونَ الحورُ العِينُ في جمالِ التنوُّع وفَضْلِ الحُسْنِ بقدر ما في نساء الدنيا من التنوُّع بين الصُّهبة والسُّمرة والبياض وما سوى ذلك؟

دَنَتْ ربَّاتُ الحُسن من الأختام غَيْرَةً منهنَّ أن يعتري أختامهنَّ تَشَوُّفٌ إلى التَّنويع والتَّعدُّد، فدقَّت كلُّ واحدةٍ خيمةَ حُبِّها على مَعشوقها خوفًا من أن يَفْلِتَ منها.

نظر الحاتميُّ إلى حال أصحابه، فتجسَّدت أمامه صورةٌ إنسيَّةٌ روحانيَّةٌ تلبَسُ غِلالَةً شَفِيفةً من النُّورِ الوَضِيءِ كأنَّها عَينُ الشَّمْسِ تُرْسِلُ خيوطَ غَزْلِها فَتُحِيلُ ما تَلْمَسُه وجودًا وحياة، ثمَّ تدانت فتدلَّتْ، وَتَرَاءَتْ حتى تَوَارَتْ، ثمَّ سَتَرتْ حتى سَفَرَتْ، فَوَا عَجَبًا لِجَمَالٍ سِتْرُهُ بالجَمَال، فأنشد قائلًا:

زَعَمَتْ[1] رَاحَتِي بِأَنَّ فُؤَادِي ... وَضَمِيرِي لَهَا وَكُلُّ وِدَادِي
يَمَّمَتْ نَحْوَنَا فَيَمَّمْتُ أَيْضًا ... نَحْوَهَا وَالـهَوَى يُنَادِي فُؤَادِي
نَالَكُمْ مِنْ بِعَادِهَا مِثْلُ مَا قَدْ ... نَالَهَا مِنْ بِعَادِ عَيْنِ العِمَادِ
بَلِّغُوهَا عَنِّي رِسَالَةَ صَبٍّ ... لَمْ يَزَلْ بَاكِيًا عَلَيْهَا يُنَادِي

عمَّتْه رحمةٌ عارمة مَلَكَتْ عليه كُلَّ وجودِه، وَفَتَرَتْ شِفَاهُه بنَفَسٍ لطيف وهَمْسٍ خَفِيتٍ من مملكة الفرح، فكأنَّه قال: زينُ الباءِ، زَيْنَب. أَوْقَفَ الحاتميُّ الخاتميُّ هذا الشُّهودَ في مجلَى التَّبَصُّر حتى

(1) الحرف الأوَّل من كلِّ بيت من هذه الأبيات الأربعة يشكِّل اسم: زينب.

يستردَّ أنفاسَه من وَجْدِ مُوَلِّهَتِه التي تراءت لأنفاسٍ معدودةٍ في صورتها الرُّوحانيَّة، فعاينَها الأختامُ وتولَّهوا، ثمَّ سرَد عليهم الحديثَ المسلسلَ بالأوَّليَّة: قال زَيْنُ ـ نَبِيِّ، عليه الصلاة والسلام: «الرَّاحِمونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمنُ تَبارك وتعالى، اِرْحَموا مَنْ في الأَرْضِ يَرْحَمكُم مَنْ في السَّماء».

ثمَّ قال: الأوَّليَّة حضرةٌ يدعى صاحبها «عبد الأول»، وكنيته «أبو الوقت». وكما أنَّ آدمَ أبُو البشر، فكذلك كلُّ أَوَّلٍ في الكون. إنَّ حضرةَ الأوَّليَّة بها ظَهَرَ كلُّ أَوَّلٍ من جميع الأنواع كآدم في البشر، وكالعقل الأوَّل في الأرواح، وكالماء من الأركان، وكالدائرة من الأشكال، وكالألف من الحروف، ثمَّ يتنزَّلُ الأمر بعد ذلك في سائر الأنواع. فالختمُ أيُّها السادة عبدُ الأوَّل وصاحبُ الوقتِ من حضرة الأوَّليَّة، وإن كان مَوسومًا بِوَسْمِ الخاتميَّة، فهو الأوَّل باعتبار روحه، والخاتم باعتبار ظهور جسده.

في البدء كانت الكلمة: اللَّـه.

وفي الختم كانت الكلمة: اللَّـه.

فالوجود كلّه محصور في كلمتَي البداية والنهاية: اللَّـه، اللَّـه.

لذا لن تقوم الساعة حتى تكون البدايةُ عينَ النهاية، ولا يبقى على وجه الأرض خَتْمٌ يقول: اللَّـه، اللَّـه.

تذكَّر الأختام بعد كلام الختم أنَّ أوَّل كلمةٍ طرقَتْ أسماعهم لمَّا أهلُّوا صارخين إلى الدنيا من بطون أمّهاتهم هي كلمة الجلالة في الأذان والإقامة التي لقَّنها لهم آباؤهم في آذانهم؛ وأنَّ آخر كلمة تلفَّظوا بها أو لُقِّنوها قبل أن يودِّعوا الدنيا ويُقْبِلوا على الآخرة هي اسم الجلالة أيضًا. تعجَّبوا من أنَّ عُمْرَ هذا الوجود مثل عُمْرِ الإنسان يبدأ بنفس الاسم ويُختتم به. **الإنسان مختصر شريف.**

وَاصَلَ الحاتميُّ حديثه: ارحموا حِبَّكُمْ ممَّن تعشَّق بكم، فتلك رحمةُ الحبِّ والعشق، وليلزَمْ كلُّ واحدٍ منكم مقصورةَ خيمَتِه في قصرٍ عظيم له بيوتٌ تسعة، فالقلبُ ساكنٌ حيثما خيَّم في هذه المدينة الفاضلة. وسترون كُوزَ مائكم في صورةِ وِفْق خَتْمِ الفاتحة النورانيَّة (أَلَمر)، فَلْيَفْتَحْ كلُّ واحدٍ بابَه الخاصَّ بمفتاح **الأَلِف** ولْيُعَرِّسْ بمحبوبَتِه الحوراء في قِبابِ بيوتِها التِّسْعة، وليتخلَّقْ هناك كما تخلَّقَ في بطن أُمِّهِ تِسْعَةَ أَشْهُر. فإذا استكملَ الوَطْءَ خرج من باب **الطَّاءِ** وأقفلَ المغلاقَ خلفَه. وإن أَدركْتُم السِّرَّ، فاعلموا أنَّ الدخولَ من باب اسمِهِ الـ «**قَديم**»، وتحقَّقوا بالقَوامَة من اسمِه الـ «**قَيُّوم**»، وتنعَّموا في عَرَصَاتِ اسمِه الـ «**مِحْسَان**»، وتخيَّروا من عطايا اسمه «**المُعْطِي**»، وانتَهُوا عند أمرِه ونهيِه من اسمه الـ «**مانع**» قبل أن تُغلِقوا خُوخَةَ مِغلاقِ باب «**آل يَاسِين**» بختام الحمد.

ثمَّ دفع لكلِّ واحدٍ منهم خاتَمَ زواجِه، يُزَيِّنُهُ فَصٌّ فيروزيٌّ كأنَّه ماء يَسِيح، منقوشٌ عليه صورةُ الوِفْقِ، فَتَخَتَّمَ الأختامُ بخواتمهم حتى يهتدوا إلى طريق فواتِحهم منَ الحُورِ العِينِ وسَوابِقِ صَافِنَاتِ اليَقِين:

د	ط	ب
ج	ه	ز
ح	ا	و

دخل الأختام خيامهم وعَمَدُوا يَمْلَأونَ أكوازَهم بِمَاءٍ حتى يَبْرُدَ في لَيْلِ الوصال، ثمَّ دَلَفَ كُلُّ وَاحِدٍ يتلمَّسُ طريقَه إلى سريرِ المساكنة بعد يومٍ حافِلٍ بهذا النَّعيم المقيم، ومشوا من أوَّل بيتٍ إلى ختام البيوت

يُعَرِّسُونَ في كلِّ بيت فصلًا من فصول اللَّيل، فطلعتْ لكلِّ واحدٍ منهم حوراءُ من أجمل ما يتمنَّى المرء، فسأل كلُّ واحدٍ صاحبَته: لِمَنْ أنتِ؟

أجابت كلُّ حوراءٍ خَتْمَها: أنا لِمَنْ لا يشربُ الماءَ البارد في الكوز، ثمَّ أخذتْ كوزَ صاحبِها فكسَرَتْه وأهدَتْهُ نفسَها في ليلةِ عشقٍ مَحْمُومٍ وتَخَتُّمٍ مَنْظوم. في كُلِّ دَفْعَةٍ لذَّةٌ لا تَعْدِلُها لَذَّةٌ، وشَهْوةٌ لا تبلُغُها شَهْوَة. لو قُدِّر لها وجودٌ في الحياة الدنيا لَغُشِيَ على ذائقِها من شِدَّةِ حَلاوَتِهَا وعذوبَتِها. كانت ليلةً تعدِلُ عُمْرَ الدنيا كلَّها، فَقَطَفَ كُلُّ خَتْمٍ فاكهةَ جَنْبِهِ كما تُقْطَفُ فَاكهةُ الجنَّةِ غيرَ مَقطوعةٍ ولا مَمْنُوعَة. انتشرَ مِنْ دَفْعَةِ لَذَّةِ الأختام ريحٌ مُثِيرَةٌ عابقةٌ بالاخْتِتَام والاحتِكام، فتلقَّتْها رَحِمُ كلِّ حوراء، وتَكَوَّنَ منها في ذلك الحين ذُرِّيةٌ كانت نتيجةَ هذا التَّوالُدِ الروحاني. أدار كلُّ خَتْمٍ خاتَمَ زواجِه في أُصبعِه، الذي تلقَّاه هديةً ختميَّةً في جُنَّةِ الحوراء الفاتحة، وجَنَّة المدينة الفاضلة، فأدرك سرَّ الدخول من باب بيتِ الـ «قَديم»، والخروجِ من خُوخَة بيتِ قلبِ «آل ياسين».

157	**162**	155
156	158	160
161	**154**	159

صورةُ خاتم وِفْقِ[1] (أَلَمَر).

(1) عدد: **ألف لام ميم راء**، (أَلَمَر) التفصيليّ يساوي: 474. وهو مجموع أعداد الجدول أفقيًّا ورأسيًّا وقطريًّا.

أرسلَتْ تباشيرُ الصُّبْحِ خُيُوطَ غَزْلِهَا فاستفاقَ الأختامُ مِنْ نَوْمَةِ لَيْلَةِ الوِصَال، ووجد كلُّ واحدٍ منهم الكوزَ الذي ملأه ليلًا، مَكسورًا بجنْبِ سريرِهِ، فتحقَّقَ أنَّ المبشِّرةَ حقٌّ وأن ما رآهُ في المنام حصلَ في الحسِّ أيضًا مثلمَا حَصَلَ للجواهريّ، ومثلما حدَث مع ابن العربيّ في روايته لبيتٍ شعريٍّ نظمه حسَّان بن ثابت في مشهدٍ برزخيّ. ترك الأختام قِطَعَ الخزف المكسَّرة في موضِعِها، ولم يرفعوها حتى تحلَّلَتْ إلى طينٍ، وعَفَى عليها الترابُ ليتذكَّروا أنَّ فيهم مِنْ طَلَبِ المحبوبِ **الأزليّ**، وفيهم كذلك مِنْ طَلَبِ الحوراء، فأعطَوْا كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، ولم يظلِموا أنفسَهم بأن صَرَفُوا الحِسَّ أو دَفَعُوا الرُّوحَ، بل جمعوا بين بَرِّ الحِسِّ وبحر الروح وأبحروا في سفينة الجَمْعِ إلى سَاحِلِ الفَرْق.

* * *

أطرَق الحكيمُ الترمذيّ يتأمَّلُ في سرِّ تزاوُجِ الأختام بالحُورِ اللاَّئِي كُنَّ على صورةٍ إنسيَّةٍ، ولَسْنَ بِأَنَاسِيَّ. كان دخولهم إلى جُنَّة الرِّضَا من بيتِ اسمِهِ الـ «قديم»، وخروجهم إلى جَنَّة مدينةِ الحمدِ من قلبِ بيتِ «آل ياسين».

ثمَّ تفكَّرَ في سَعَةِ حِكْمَةِ الخَتْمِ وَعِلْمِه، وشُمُولِ رَحْمَتِهِ، وعُمومِ صلاحِه لحضرةِ الحقِّ، وذلك بفضلِ تَمامِ وراثَتِه منَ النَّبِيِّ الخاتِمِ المبعوثِ رحمةً للعالمين، وتذكَّر كيف تلقَّى في صغره أوَّلَ مَرَّةٍ من والده الحديثَ المسلسلَ بالأوَّليَّة، فَعَمَّتْهُ الرحمةُ وغَرِقَ في لُجَّتِها. ثم تذكَّر لقاءَه بالخضر الذي علَّمَه أنَّ الأولياءَ صنفان: أولياءُ حقوقِ اللَّـه، وأولياءُ اللَّـه حقًا، فأدرك ختامًا معنى الصِّدْقِ ومعنى المنَّةِ من مِشْكاةِ الرحمة.

ثمَّ أخذ أبو عبد اللّـه الترمذيُّ يتلو سورةَ الرَّعْدِ ﴿أَلَمر تِلْك آيَاتُ الكِتَابِ والذي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الحقُّ﴾ فغاب عن ذلك المشهد في موكبِ الختم في جِنان المدينة الروحانيَّة، واختطَفَتْهُ أَلِفُ (أَلَمر)، فصار يَسْبَحُ في سُرادقات هذه الفاتحة النورانيَّة مُتَعَلِّقًا بأهدابِ أُلْفَتِها.

أَلْفَى الحكيم الترمذيّ فجأةً نفسَه وقد عاد إلى حسِّه مُستلقيًا على سرير بيته في مدينة ترمذ، ورأى الكوزَ الذي يشربُ به الماء مكسورًا عند سريره، ونفَحَهُ عَرْفٌ طيِّبٌ منبعثٌ من غطاء سريره، فابتسم. لم يجد أحدًا من حوله في ذلك الموكب وأصحابه الحكماء وشقائق أرواحهم من ربَّات الحُسن، فانكشف عنه الغطاءُ وأدرك سرَّ التوحيد، وأنَّ الزمان قد اتَّحَدَ في الآن الدائم، وأنَّه قد استدارَ كهيئَتِهِ يومَ أنْ خلقَ اللّـهُ السماواتِ والأرضَ، فنالَ حظَّهُ وحقَّهُ من ذَوْقِ هذه الاستدارة بين ثلاثة أيَّامٍ روحانيَّة في حياته:

يوم تحمُّلِه لحديثِ الرحمة في صِباه؛

ويوم لقائه بالأختام؛

ثمَّ يوم رجوعه إلى مقرِّ سكناه في ترمذ.

عَلِمَ الحكيم أن كلامَ اللّـه يَعْبُرُ بالعبد من عالم الغيب إلى عالم الشَّهادة فيسافر عبر التجلِّيَّات في لولبٍ زمنيّ، ويعلم حقيقة كلّ منزلةٍ من المنازل التي نزلها. سَفَرٌ من كينونةٍ وجوديَّةٍ إلى أخرى، وتحقُّقٌ بالحقّ في كلِّ واحدةٍ منها، ثم سَفَرٌ عنها إلى غيرها، هكذا هي الحقائق، إدراكٌ للحقّ في كلّ مرتبة وعدم السُّكون إليها، لأنَّ السُّكون لا يكون إلَّا مع المكوّن، أمَّا مع المكوَّنات فيكون كَوْنُه معها بالحركة.

أرعَدَ الرَّعد وأَبْرَقَ البَرْقُ في مدينة ترمذ، وجَرَتِ السّماء بماء منهمر. كانت حرارةُ البيت قد انخفضت واستحال حَطَبُ المِدفأة إلى رماد، حَنَّ الحكيم الترمذيُّ إلى دفء «حكمة»، ثمَّ وجد نفسَه قد استحال رمادًا مثل طائر العنقاء، فَدَافَعَ آخِرَ نَفَسٍ يَاسِينِيٍّ مُتَوَهِّجٍ في صدره لِيَخْتِمَ قراءةَ سورةِ الرعد في عالم الشّهادة ﴿قُل كَفَى باللَّه شهيدًا بيني وبينَكُم ومَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكتاب﴾.

بيان أدبيّ

نصل مع هذه الرواية الجديدة حول الفاتحة النورانيَّة «**أَلَمَر**» إلى نهاية السلسلة الرابعة ضمن مشروع الرواية العرفانيَّة، وهي السلسلة المتعلِّقة بالفاتحتيْن (أَلَمص، أَلَمَر) التي اشتغلْتُ فيهما تِباعاً بقضيَّة الولاية (رواية **إدريس**)؛ وقضيَّة الختميَّة (رواية **أختام المدينة الفاضلة**).

هناك علاقة قويَّة بين رواية إدريس التي سورتها «الأعراف» التي تُفتتح بالفاتحة النورانيَّة «أَلَمص»، ورواية الأختام في المدينة الفاضلة التي سورتها «الرعد» التي تُفتتح بالفاتحة النورانيَّة «أَلَمَر». وكما أنَّ كلَّ بَرْقٍ يعقُبه رعدٌ، إلَّا إذا كان بَرْقًا خُلَّبًا، فسورة الأعراف بُروق، وسورة الرعد رُعود. والأولى فاتحة والثانية خاتمة، فكانت البدايات أنوارًا وبِشارات، وكانت النهايات أصواتًا وإنذارات. وإن شئت قلتَ، البروقُ مشاهدُ ذاتيَّة، والرُّعودُ مناجاةٌ صَلْصَلِيَّة.

ومن عجيب الموافقات أنَّ الشاعرَ الوشَّاحَ ابنَ سهل الأندلسيّ قد أشار إلى علاقة الفاتحتيْن في سياقٍ مختلف عن هذا الأفق الذي نتحدَّث فيه، لَمَّا قال:

لقد كنتُ أرجو أن تكون مُواصلي فأَسْقَيْتَني بالبُعد فاتحةَ الرّعد[1]
فبالله بَرِّدْ ما بقلبي من الجَوَى بفاتحة الأعراف مِنْ ريقِكَ الشَّهْدِ

كلُّ فاتحةٍ تقابِلُها خاتمة، وكلُّ فاتحٍ يقابله خاتم، وقد اتَّحَدَ الفاتحُ لِمَا أُغْلِقَ، والخاتِمُ لِمَا سَبَقَ في ذاتِ الإنسان الكامل (**البشير النذير**). فبداية كلّ دوْر تبتدئ بفاتحٍ وفاتحة، ونهاية الدوْر تنتهي بخاتمٍ وخاتمة. وكما أنَّ هناك فاتحةً نوارنيَّة هناك خاتمةٌ نورانيَّة. وإذا كانت الأولى قولًا إلهيًّا، فإنَّ الثانية كلمة[2] إلهيَّة تجلَّت في الإنسان. وفاتحة الولاية في غايتها، وهي الختميَّة، لذا ارتبطت فاتحة الأعراف (رواية إدريس) بالولاية، وارتبطت فاتحة الرعد (رواية أختام المدينة الفاضلة) بالختميَّة.

المدينة الفاضلة أو الروحانيَّة

موضوع المدينة الفاضلة أو المدينة الروحانيَّة أو المثاليَّة شغلت الفكر البشريّ والإنسان منذ فجر التاريخ، ونجد فلاسفة اليونان قد اعتنوا بها حتى أفرد لها الحكيم أفلاطون مؤلَّفًا. وقد سبق أن طرحنا هذا الموضوع بشكلٍ مقتضب في البيان الأدبيّ لرواية إدريس تأكيدًا على ترابط روايات مشروع الرواية العرفانيَّة فيما بينها. ولعلَّ سائلًا أن يسأل: ما هي السِّياقات المعاصرة التي دفعت الأديب العرفانيّ أن يطرح موضوع المدينة الفاضلة في هذا الوقت بالذات؟

(1) يشير إلى ما يحيل إليه لفظ فاتحة الرعد من طعم مُرّ (ألَمَر)، ويشير في البيت الثاني إلى ما يحيل إليه لفظ فاتحة الأعراف (ألمَص) من برد **امتصاص** ريقِ الحبيب.

(2) الفرق بين القول والكلام، أنَّ القول ينتج الوجود ﴿إنَّما قولنا لشيءٍ أن نقول له كن فيكون﴾؛ بينما الكلام ينتج العلم ﴿وكلَّم اللَّه موسى تكليما﴾، والفعل إذا أُكِّد بالمصدر لم يكن مجازًا، فالتكليم في الآية على الحقيقة، أي علَّمه بهذا الكلام علمًا كثيرًا.

هل هناك حاجةٌ دعت إلى فتح هذه القضيَّة من جديد في وقتنا الراهن؟

هل الاختلالات الحاصلة في تدبير الشأن العام أَمْلَتْ إعادةَ التفكير في المدينة الفاضلة من أجل مدينة جديدة للإنسانيَّة؟

أسئلة مشروعة فيما نجترحه من قضايا كونيَّة ضمن مشروع الرواية العرفانيَّة. لقد تزامن طرح قضيَّة الأختام في المدينة الفاضلة مع الاحتفاء بالرباط عاصمةً للثقافة في العالم الإسلاميّ لعام 2022، مع غيرها من العواصم الأخرى، وفي طليعتها القاهرة. ولا شكَّ أنَّ اختيار عاصمة ثقافيَّة والاحتفاء بها هو في حدِّ ذاته يحقِّق حلم الحكماء والفلاسفة والعرفاء في المدينة الفاضلة. فالعاصمة الثقافيَّة بالمعنى المعاصر اليوم هي نوعًا ما المدينة الفاضلة التي حلم بها أولئك الحكماء، حينما تصبح الثقافة في مركز الأولويَّات التنمويَّة في الحراك الثقافيّ العالميّ.

لقد حرصنا على ربط قضيَّة الختميَّة بقضيَّة المدينة الفاضلة، وهذا طرحٌ جديدٌ ينأى عن تناول قضيَّة النهايات وفق سياق المجتمعات الغربيَّة بعد الحرب العالميَّة الثانية، حيث هيمنت على أنماط التفكير والسلوك أفكارٌ عدميَّة بعدم جدوى الحياة والتشكيك في كلِّ شيءٍ مثل الإنسان والدِّين والحياة بصفةٍ عامَّة. لقد ساد وقتئذٍ في هذه المجتمعات أفكارٌ تشكِّك في كلِّ شيء، وتنعى موت الإنسان ونهايته وموت العالم و«موت الإله» وموت الأدب وموت المؤلِّف، بل هناك من يقول بموت الراوي، إذ لا يوجد وفق هذه الرؤية إلَّا النص. ولو سأل المرء بكلِّ بساطةٍ: من كتب هذا النصّ؟ لبدأت سفسطةٌ أخرى تحاول أن تجد مخرجًا للمأزق الذي سقطت فيه. إنَّ الفكر الأوروبيّ لم يستطع أن يفهم كيف حَدَثَ كلُّ الدمار

الذي نتج عن الحرب العالميَّة الثانية، فظهرت منذ هذه الفترة اتِّجاهاتٌ في الفكر والأدب والفنون محكومةٌ بأفق الموت، وموسومةٌ بفكرة العدميَّة ونهاية الإنسان وانعدام الثقة فيه وبعدم جدوى الحياة، والتشكيك في كلِّ النُّظم والمؤسَّسات والمرجعيَّات والفلسفات. فعلى سبيل المثال ظهر في الأدب ما يسمَّى بالرواية الجديدة في فرنسا كتعبير عن هذا الشرود الوجوديّ إلى الحدّ الذي دفع الناقد الفرنسيّ رولان بارت إلى نعت هذا النوع الأدبيّ بدرجة الصفر في الكتابة، بمعنى كتابةً على السطح بلا عمقٍ إنسانيّ ولا سياقات، وينبغي أن تُتَمَثَّل فقط كنصٍّ لغويٍّ وشكلٍ أدبيٍّ منفصل عن كلِّ شيء حتى عن المؤلِّف نفسِه. طبعًا لا توجد كتابة بهذا المعنى لأنَّ العلاقة بين أيّ نصّ وصاحبه هي علاقة وجوديَّة، حتى الفواصل والنقط والأشكال الخارجيَّة لها عِلَلٌ وأسبابٌ ومواقعُ معيَّنة عند المؤلِّف، فكيف بما فوقها؟ إنَّ هذا الانفصال المزعوم مجرَّد وَهْم وتعبير عن عجزٍ في تَمَثُّل الأسباب الحقيقيَّة إزاء هذه الحيرة الشَّاردة عن فهم الدمار الكونيّ الذي أحدثه الإنسان الغربيّ في العالم خلال هذه الحقبة.

في تناولنا الأدبيّ لقضيَّة النهايات نأينا عن هذا الأفق الغربيّ المسدود، وطرحنا الختميَّة في اتِّصالٍ بالمدينة الفاضلة، لأنَّنا نؤمن أنَّ **الإنسان آية وليس آلة**، وأنَّه مبعث خيرٍ وأملٍ وفضيلةٍ وصلاح رغم كلِّ الأعطاب التي قد تطرأ عليه حينما ينسى الحكمة من وجوده، والغاية من ولايته على العالم.

إنَّ قضيَّة المدينة الفاضلة تشغل شخوص هذه الرواية، لكنَّها تركِّز على عددٍ محدود من الأختام. وكلّ واحدٍ منهم يرى أنَّ تحقيق السعادة يمكن أن يتمّ بتحصيل الحقيقة، وتحصيلُ الحقيقة مَنُوطٌ بالاجتماع البشريّ الذي يمكِّن سكَّانَ المدينة من تحقيق أهدافهم.

فإذا كان الفارابيّ يرى أنَّ السَّعادة في الاجتماع البشريّ المنظَّم ضمن المدينة الفاضلة، فإنَّ آخرين رأوا أنَّ تحقيق تلك السَّعادة يمكن أن يَتِمَّ بشكلٍ انفراديّ كما حصل مع ابن باجة في «تدبير المتوحِّد»، أو ابن طفيْل في «حيّ بن يقظان»، حيث إنَّ بطليْ هذيْن العمليْن سيسعيان إلى تحقيق سعادتهما بعيدًا عن الاجتماع البشريّ.

شغلت المدينةُ الفاضلة أيضًا إخوانَ الصَّفا، فشبَّهوا ذاتَ الإنسان بها، كما فعل الصَّنيعَ نفسَه أبو حامد الغزاليّ. وتحدَّثَ ابن العربيّ عن ثلاثَ عشْرةَ مدينة من مدائن النور. وبلغت عند الحكيم الترمذيّ سبعَ مدائن. وقد صرَّح الترمذيّ بأسماء تلك المدائن المتَّصلة بذات الإنسان، وذكرها في كتابه «غَوْر الأمور» وهي: الفؤاد، الضمير، الغلاف، القلب، الشُّغاف، الحبّة، اللُّباب.

أمَّا الحاتميُّ فقد أخفى معنى تلك المدائن لدى تعرُّضه لذكرها في الباب الثامن من الفتوحات المكِّيَّة. وهو يشير بها إلى مراتب الصور الكونيَّة التي هي أفلاك الأركان الأربعة (التراب، الماء، الهواء، النار)، ثمَّ أفلاك السماوات السبع، ثمَّ فلك النجوم الثابتة، ثمَّ فلك البروج، والمجموع ثلاث عشرة مدينة (1+1+7+4=13). ويذكر بعضَ ملوك تلك المدن ويسمِّيهم، ويشير ملغِّزًا بأسماء هؤلاء الملوك إلى ما نكشف سرَّه للقارئ فيما بين قوسيْن: التالي (اللسان)، وذو العَرْف (البصر والشّم معًا)، والسَّابح (اللمس)، والسّابق (السَّمع)، والقائم بأمر اللّه (القلب)، والرَّادع (العقل)...

فهذه المدائن متَّصلةٌ بالعالم الذي يقال له **الإنسان الكبير** (Macrocosm)؛ ومتَّصلة بالإنسان الذي يُقال له **العالم الصغير** (Mi-

crocosm)، فالعالم بمثابة الجسد، والإنسان الكامل بمنزلة الروح لهذا الجسد. فالمدينة الفاضلة هي مدينة العلم، **ولولا الإنسان الكامل لكان العالَم جسدًا مُلْقًى لا روحَ فيه**، وإطلاقُ اسمِ الإنسان على العالم إنَّما أتاه من كون جسديَّة العالم لا قيام لها ولا أُنْسَ لها إلَّا بوجود روح الإنسان الكامل فيها:

وتزعُم أنَّكَ جِرمٌ صغيرٌ وفيكَ انطوى العالم الأكبرُ
وأنت الكتابُ المبين الذي بأحرفِه يظهرُ المُضْمَرُ

هناك أسئلةٌ قد يسألها قارئ هذه الرواية: لماذا اقتصر الأختام في هذا العمل الأدبيّ على دوائر العرفان والحكمة والفلسفة والشعر والأدب فقط؟ ألا يمكن أن نفترض أنَّ الختميَّة تصلح لكلّ دوائر المعارف؟

وإذا صحَّ هذا، ألا يُنْذِرُ تَعْيِينُ الختمية في سائر المعارف بانتهاء المراتب وتعطيلِها ووقوفِها عند غايةٍ يجعل سيرورةَ الزَّمن بعدها نزولًا ونُكوصًا؟

وإذا صحَّت الختميَّة في النُّبُوَّة، وأقرَّ بذلك المؤمنون لورود النَّص المنزل بشأنها، كيف تُقبَل الختميَّة في غير النبوَّة ممَّا لم يرد فيه نص منزل؟ وهل يُكتفى في الجواب عن هذا بإيراد الدَّليل من النقل دون الدَّليل من الوجود، والدَّليل من العقل؟

هذه أسئلةٌ جوهريَّة مرتبطة بقضيَّة الختميَّة، لم نشأ أن نسقطها لأنَّنا ندرك أنَّها موجودةٌ بالقوَّة فيما نقترحه على القارئ ضمن هذا العمل.

وبشكلٍ عام، إنَّ للنبوءة ختمًا هو خاتم الأنبياء والرسل، وهو أجلُّهم وأكملهم وأقرَبُهم إلى الحقّ. وقياسًا على ذلك، فإنَّ المحقِّقين قد أقرُّوا بأنَّ للولاية ختمًا عامًّا، وختمًا خاصًّا. فختم الولاية العام هو عيسى بن مريم الذي يظهر آخر الزمان ضمن دائرة الشرع المحمَّديّ؛

بينما ختم الولاية الخاصّ أو الختم المحمَّديّ هو ابن العربيّ الحاتميّ الذي أجاب عن الأسئلة التي تحدَّى بها الحكيم الترمذيّ كل متصدٍّ لختميَّة الولاية، ولم يرفع ذاك التحدّي إلَّا ابن العربيّ بعد مرور ثلاثة قرون من وضعها، واستمرَّ الأمر بالجُمْلة على النَّحو نفسه إلى يومنا هذا، وأقرَّ جمهور العارفين للحاتميّ بهذه المرتبة.

من النصوص المهمَّة في مسألة النهايات والختميَّات نصٌّ وَرَدَ في الباب 369 من الفتوحات المكّيَّة يقول فيه ابن العربيّ: «فما من رسولٍ إلَّا وبجانبه عالِم من عُلماء هذه الأمَّة أو اثنان أو ثلاثة أو ما كان؛ وكلُّ عالِمٍ منهم فله درجة الأستاذيَّة في علم الرسول والأحوال والمقامات والمنازل والمنازلات إلى أن ينتهي الأمر في ذلك إلى خاتم الأولياء المحمَّديّين، إلى أن ينتهي إلى الختم العام الذي هو رُوحُ اللهِ وكلِمَتُه[1]، فهو آخر متعلِّم، وآخر أستاذ لمن أخذ عنه. ويموت هو وأصحابه من أمَّة محمَّد ﷺ في نفَس واحد بريح طيِّبة تأخذُهم من تحت آباطِهم يجدون لها لذَّةً كلذة الوَسْنَان الذي قد جهده السَّهَر وأتاه النَّوْمُ في السَّحَر الذي سمَّاه الشَّارعُ العُسَيْلَةَ لحلاوته، فيجدون للموت لذَّة لا يُقَدَّرُ قَدْرُها، ثم يبقى رَعَاعٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ أشباه البهائم، فعليهم تقوم السَّاعة».

إنَّ ما يعنينا في هذه الرواية العرفانيَّة الأدبيَّة ليس قضيَّة ختميَّة الولاية، ولا ما يترتَّب على القول بها من وجود الختم أو عدمه، والتي هي من القضايا الفرعيَّة التي يمكن الاختلافُ حولها إيمانًا أو إنكارًا؛ لكنْ ما يعنينا **أدبيًّا** هو الجواب عن هذا السؤال الجوهريّ:

---

(1) هو عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو روح اللّه **وكلمته**، وكلمات الحقّ لا تنفد، فليس للمحمَّديّ غاية ينتهي إليها.

كيف يمكن ترتيب لقاء أدبيّ افتراضيّ تخييليّ بين خمسة أعلام كبار (الحكيم الترمذيّ، الفارابيّ، المتنبّي، المعريّ، الحاتميّ) عاشوا في فتراتٍ متباعدة بين القرن الثالث والسابع الهجريّيْن، يجتمعون لمناقشة قضيَّة الختميَّة في علاقتها بقضيَّة المدينة المثاليَّة؟ ثمَّ كيف تنفتح هذه الكينونة الزمنيَّة في الآن الدائم على أسماءٍ أخرى من قرون متباعدة تمتد من أفلاطون لتصل إلى زماننا؟

والقضيَّتان مرتبطتان، فالمدينة المثاليَّة هي خاتمة المدن التي تنتهي إليها كلّ غايةٍ مطلوبة من أيِّ مدينة، ولا أُفُقَ أَرْحَبَ وأوسعَ وأعلى من أفقها. ولا سعادةَ أسمى للإنسان من العيش في غير هذه المدينة.

كما أنَّ هذا يؤشِّر على أنَّ النقاشات الفكريَّة تُسْتَأْنَفُ دومًا من حيث توقَّفت، ويُكمِل بعضها الآخر دون انقطاع أو انفصال. وأسئلة عصرنا هي من جملة الأسئلة النهائيَّة المستمرة والمستأنفة التي طرحها أذكياء العالم على الدَّوام.

وسؤال الختميَّة من الأسئلة الكبرى: 1. من أين أتينا؟ (**الماضي**). 2. أين نحن، وما الغاية من وجودنا ؟ (**الحاضر**). 3. إلى أين نسير، وما هي نهايتنا بعد الموت؟ (**المستقبل**)

أجابت الأديان عن هذه الأسئلة:

1. من أين أتينا؟ فقالت بأنَّ اللّـه خلق السماوات والأرض في ستة أيَّام، وخلق آدم وباقي الخَلْق (**الماضي**)؛

2. أين نحن؟ نحن في الحياة الدنيا مكلَّفون بالصلاح وذلك بطاعة أوامر الخالق واجتناب نواهيه (**الحاضر**)؛

3. ماذا سيحصل بعد الموت؟ سنرجع إلى اللّـه في يوم القيامة حيث الثواب والعقاب، وستكون النهاية إما إلى جنَّةٍ أو نار (**المستقبل**).

فنحن من اللّـه وإليه نعود ﴿إنَّا للّـه وإنَّا إليه راجعون﴾.

فالأصل الأوَّل **أزل**،

والأصل الآخِر **أبد**،

والجامع بينهما **أمد**.

وهكذا ارتبط بالجواب عن هذه الأسئلة معرفةُ الخير والشر.

أمَّا العلم الوضعيّ، فامتنع عن هذا السُّؤال جملةً وتفصيلًا لأنَّه اعتبره خارجًا عن حدود ما يمكن أن يعرفه رياضيًّا أو طبيعيًّا. فقد يتَّفق المؤمن والعالم الفلكيّ معًا على الإقرار مثلًا بأنَّ بداية الكون كانت من نقطةٍ أزليَّة انفجرت انفجارًا كبيرًا هائلا فتولَّد هذا الكون بما فيه، لكنَّ العالِم الفلكيّ خلافًا للمؤمن لن يسأل أبدًا السُّؤال التالي: مَنْ سبَّبَ هذا الانفجار؟

إنَّ هذا العالِم لن يسأل مثل هذا السُّؤال لأنَّ أدواته العلميَّة لا تسمح له بذلك. أمَّا الفيلسوف فقد يسأل مثل هذا السُّؤال لأنَّه مسكون بقضيَّة العِلَّة والسببيَّة. ذكر أرسطو في الأورغانون أنَّ سببَ هذا الانفجار هو القَدَر الخارج عن مشابهة الإنسان أو الكوْن. أمَّا العالم المؤمن المستند إلى وحي، فيقول بأنَّ اللّـه خلق هذا الكون من النقطة الأزليَّة التي خاطبها بكلمة الإيجاد «كن» فكانت وسالت، ونشأ عنها الكون، ثم يضيف بعبارةٍ قرآنيَّة بليغة: ﴿ليس كمثله شيء﴾.

هذا السَّيَلان يعبِّر عنه علماء الفلك الفيزيائيّ بتمدُّد الغبار الكونيّ والغازات إثر الانفجار الهائل.

مثل هذه الأسئلة الكبرى عن البدايات الأولى والغاية من وجودنا، ثمَّ النهايات التي سنؤول إليها، تلخِّص تاريخ البشريَّة في مجمله، ويتفاوت الناس في الجواب عنها بين **مُنْكِرٍ وحائرٍ ومُوقِن**.

ولتقريبِ قضيَّة الختميَّة والنهايات من القارئ، نشير إلى أنَّ كتاب «الشهاب موعظة لأولي الألباب» لأبي أحمد ابن سيدبونة الأندلسيّ (524 ـ 624 هـ) الذي قمنا بتحقيقه، قبل سنوات، هو كتابٌ في المبشِّرات، أي المرائي. والعجيب في موضوع هذا الكتاب هو أنَّه عبارةٌ عن مجالس علميَّة ولقاءات افتراضيَّة حصلت للمؤلِّف في المنام بين شخصيَّات من عصورٍ مختلفة وبيئاتٍ متباعدة (الغزالي، ابن العريف، أبو مدين، الحلَّاج، ابن سيدبونة...). كما أنَّ «رسالة الغفران» للمعرّي هي عبارةٌ عن لقاءاتٍ افتراضيَّة في الآخرة بين مجموعةٍ من الأدباء والشُّعراء من أزمنةٍ وأمكنةٍ مختلفة. إنَّ هذيْن العمليْن وأمثالهما في الثقافات الأخرى[1] يُقرِّباننا من هذا الجنس الأدبيّ الفريد، ويطرحان أسئلةً على مؤرخّي الفكر في نسبة الأقوال الواردة على ألسنة أولئك الأعلام في حيِّزٍ زمنيٍّ خارجَ وعيِ اليقظة المعتاد بإدراك منامي مُفارق.

ومن هذه القضيَّة التي يمكن أن نتخيَّل لها نظائرَ أخرى للقاءاتٍ افتراضيَّة بين مجموعة من الفلاسفة مثلًا حول قضيَّة محدَّدة (نهاية التاريخ عند هيغل وفوكوياما؛ نهاية العقل في الفقه والعلوم المعرفيَّة؛ نهاية الإنسان في قصص الخيال العلميّ؛ وتطبيقات خوارزميَّات الذكاء الاصطناعي...).

إنَّ المدينة الفاضلة كما تخيَّلها الحكماء والفلاسفة سابقًا هي أحد الإرهاصات لما نسمِّيه اليوم: «الواقع الافتراضيّ» (Virtual reali-ty) و«الواقع المعزَّز» (Augmented reality)، الذي حوَّل المكتبة إلى مدينة افتراضيَّة بحيث لم نعد مضطرين إلى زيارة المكتبات التقليديَّة

(1) مثل الكوميديا الإلهيَّة لدانتي.

كما كنَّا نفعل سابقًا، بل يمكن أن نحصل على المعارف والمعلومات دون أن نغادر أمكنتنا. لقد تحرَّرت المعرفة والمعلومة من قيودها وجدرانها المادِّيَّة، ويمكن للجميع أن يصل إليها حتى من أولئك الذين لم يكن بإمكانهم قَطُّ زيارتها من قبل، مثل ذوي الإعاقة والسجناء والمرضى وسُكّان المناطق المعزولة، ومن في حُكْمِهِم.

إنَّ قضية الختميَّة في دائرة النبوَّة والولاية تشبه قضية نهاية التاريخ في دائرة الفلسفة في كثير من الوجوه، فالختميَّة تعني كمالَ أمرٍ من الأمور في لحظةٍ فارقة، ولها علامات. ونهاية التاريخ أو الفلسفة أو العقل أو الإنسان أو الدولة[1] أو الحدود أو الحضارة أو العالم أو ما شئتَ فَقُلْ، هي كذلك لحظةٌ يعتقد القائلون بها أن كمالَ صيرورةِ أمرٍ ينتهي عند حَدٍّ مُعَيَّن.

وعلى الحقيقة إنَّها أطوارٌ وأدوار. والختميَّة هي دائرةٌ بِدايَتُها عَيْنُ نهايَتِها. فالنهاية لا معنى لها إلَّا على اعتبار أنَّها غايةٌ تولَدُ مِنْ رَحِمِهَا بدايةٌ جديدة، لأنَّ «البداية عين النهاية». إنَّ أقربَ نقطةٍ للنهاية في هذا

---

(1) من أبرز الأمثلة على ظهور دول افتراضيَّة ليس لها أرض، لكنْ لها سيادة على فضاءٍ افتراضيٍّ عابرٍ للحدود، الشركات الرقميَّة العملاقة مثل أمازون وفايسبوك وغيرها. إنَّ عدد مستعملي فايسبوك مثلا يبلغ 2.6 مليار مستهلك حول العالم، أي ما يفوق سكّان أكبر دولتيْن من حيث عدد السكان، أيْ الصين والهند. ناهيك عن الثروة الهائلة التي تحقّقها هذه الشركات يوميًّا بحيث تتجاوز أرباحها الناتج الداخليّ الخام لمجموعةٍ من الدول الحقيقيَّة. كما أنَّ لها طموحاتٍ في اقتطاع اختصاصات تدخل ضمن عناصر سيادة الدول، مثل سك العملة وتقديم الخدمات العموميَّة. فقد أعلنت فايسبوك في 2019 عن إطلاق نظام ماليّ جديد وعملة افتراضيَّة باسم «ليبرا» غير خاضعٍ لرقابة الدول والمؤسَّسات الماليَّة. وقد سارعت الصين إلى وضع **حدود رقميَّة** تمنع وصول الشركات الرقميَّة الأميركيَّة (أمازون، فايسبوك..) من دخول الصين، وسمحت لشركات رقميَّة صينيَّة (بايدو، علي بابا...) بالسيادة على فضائها الرقميّ.

التَّصورِ هي البدايةُ عينُها؛ بينما النهاية لدى أنصار نظريَّة نهاية التاريخ، هي أقصى مسافة بُعْدٍ بين بداية ذلك التاريخ ونهايته. إنَّها نظريَّة محكومة بالتطوُّر الخَطِّي المتصاعد، بينما الختميَّة مذهبٌ قائمٌ على تكامل الأدوار واتِّصالها بين نقطة الانطلاق ونقطة الوصول.

ونقطة الوصول لا بدَّ أن تُقْرَنَ مع نقطة الانطلاق، فمولدُ الخاتم روحًا في أوَّل الخلق، ثم ظهورُ جسمه في التاريخ بدايةُ إشعاع النور، فكيف بقومٍ يُنْكِرون الاحتفال بالمولد النبويّ؟

لا أحسَبُهُمْ إلَّا ناكرينَ للاحتفال بأيَّام اللَّـه المجموعة ما بين فواتح وخواتم. كما أنَّ هؤلاء المشغِّبين على المسلمين فرحَهم بحبيبِهم وابتهاجهم به، منكرون بالاستتباع أو الخُلْفِ لختميَّة الرسالة في دعاويهم المتهافتة، إذ التلازم المنطقيّ بين الفاتحة والخاتمة لا يمكن ردُّه أو إبطاله. إن إنكارَ الاحتفال بالمولد إنكارٌ لختميَّة الرسالة، **فلا تُعْقَلُ خاتميَّةٌ دون فاتِحيَّة**.

فما جُعل الأختام إلَّا لضرورة الأخذ عنهم، ولم تظهر مرتبة المعلِّم والمتعلِّم إلَّا لوجود ختميَّة المراتب، فلولاها ما كان معلِّم ومتعلِّم، وَلَتَسَاوَتِ المراتب وعمَّت الفوضى[1] في العالم. وقد اختصَّت هذه الأمَّةُ

(1) من مؤشِّرات اختلالات هذا الزمان، الفوضى التي أحدثتها وسائل التواصل الحديثة في العالم، فيما سماه أمبرتو إيكو، (وهو أحد أساتذتي الذين درست عليهم): «غزو البُلَهَاء» التي أعطت حقّ الكلام لفيالق من النَّوْكَى والحمقى الذين كانوا يقبعون في الحانات وأوكار الدعارة والفساد، فأصبح لهم الحقّ في أن تعلو كلمتهم على كلمة العباقرة والنبغاء؛ وأسهمت هذه الوسائط والإعلام الهابط في رواج هذه السخافات، وصناعة نجوم الكَسْف والرداءة التي تصدَّرتْ المشهد العام، بينما توارى المبدعون الحقيقيُّون الذين يصنعون الاستنارة والرقيّ خلف سديم مجرَّات الصمت والنسيان. فمتى ينجلي ظلام هذا الليل البهيم؟

بالخاتميَّة رسالةً اختصاصَها بالفاتحيَّة هدايةً، لكنَّ هذا الاختصاصَ مشروطٌ في استقلالها بالجواب عن أسئلة العالم والزمان.

لقد اخترنا أن نطرح قضيَّة الختميَّة انطلاقًا من خمسة رجال أساتيذ ومعلِّمين للناس، يعتبر أصحابها نماذج لختميَّة المراتب التي تصدَّروها في الحكمة والفلسفة والشعر والأدب والعرفان. ويمكن أن نقارن صنيعَنا هنا بنظريَّة الرجال الخمسة التي وضعها عبد الحق ابن سبعين، حيث ذكر أنَّ أنواع الطالبين للحقّ خمسة هم: الفقيه، الأشعريّ، الفيلسوف، الصوفيّ، المحقِّق. والأخير هو الكامل الذي يجمع بقيَّة المراتب السابقة عليه.

إنَّ المدينة الفاضلة هي المدينة التي يتبوأ فيها الفضلاء مكان الصدراة حيث يقودون الركب الإنسانيّ نحو الكمال.

وعلى الجملة، فلا حديث عن الختميَّة إلَّا على سبيل الإخبار والترجمة عن أحوالهم. يقول الحاتميّ[1]: «فأمَّا منازل الأقطاب المحمَّديِّين الذين هم الرسل صلوات اللَّـه عليهم أجمعين فلا سبيل لنا إلى الكلام على منازلهم، فإنَّ كلامنا عن ذوق، ولا ذوق لنا في مقامات الرسل عليهم السلام، وإنَّما أذواقنا في الوراثة خاصَّةً. فلا يتكلَّم في الرسل إلَّا رسول. ولا في الأنبياء إلَّا نبيّ أو رسول. ولا في الوارثين إلَّا رسول أو نبيّ أو وليّ أو من هو منهم. هذا هو **الأدب الإلهيّ**. فلا تُعرف مراتب الرسل إلَّا من الختم العام الذي يختم اللَّـه به الولاية العامَّة في آخر الزمان، وهو عيسى بن مريم روح اللَّـه. فإن سُئل عن ذلك، فهو يترجم عنهم وعن تفاضلهم، فإنَّه رسول منهم. وأمَّا نحن، فلا سبيل إلى ذلك،

(1) الباب 262 من الفتوحات المكّيَّة.

فكلامنا في أقطاب الأمم الذين هو ورثة أنبيائهم وأرسالهم، وفي أقطاب هذه الأمة المحمَّديَّة».

ونظرًا لما تثيره قضيَّة ختميَّة الولاية من دعاوى عريضة، قال الحاتميّ في الباب 73 من الفتوحات المكِّيَّة: «فإنَّ الإمام محمَّد بن عليّ الترمذيّ الحكيم هو الذي نبّه على هذه المسائل، وسأل عنها اختبار أهل الدعاوى لما رأى من الدعوى العريضة والضعف الظاهر، فجعل هذه المسائل كالمحكّ والمعيار لدعواهم، ولم يتعرَّضْ لخرق العوائد في ظاهر الكون التي اتَّخذتها العامَّة دلائل على الولاية وليست بدلائل عند أهل اللّـه».

هل كان المتنبِّي (المتنبّه) يتكسَّب بالشعر؟

أراني ملزمًا بطرح هذا السؤال الذي يشبه أكذوبةَ دعوى النبوَّة التي حاكها خصوم المتنبِّي (المتنبّه) في روايات متهافتة تزكم الأنوف بالوضع الرديء والحسد البغيض والكذب الصُّراح لِصَرْفِ الناس عن قضيَّة مطالبته باسترداد نَسَبه المنكوب، لأسبابٍ اقتضتها سرِّيَّة الدَّعوة العلويَّة وقتئذٍ. وقد فصّلتُ الجواب في هذه الرواية عن هاتيْن القضيَّتيْن بإعادة بناء سيرة المتنبِّي (المتنبّه) من خلال شعره.

الشاعر النبيه أو «**المتنبّه**»[1] بحسب تسمية المغاربة القدماء له، لم يكن شاعرًا يتكسَّب بشعره وإنْ جَنَى أموالًا من قوله للشعر، ولم يكن شرِهًا على المال كما صوَّره أعداؤه، لكنَّه كان يحمل قضيَّةً بدأت شخصيَّة ثمَّ تحولَّت حتى أصبحت قضيَّةَ أُمَّةٍ وثقافةٍ ولغةٍ وتاريخ. بدأ

(1) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان في ترجمة الوزير أبي القاسم المغربيّ.

يطالب بنَسَبه العلويّ، وانتهى إلى رفض دولة الخدم والجواري التي تسلَّط فيها الأعاجم على العرب ولغتهم وتاريخهم. لقد رفض المتنبّه أن يقبّل الأرض بين يديْ سيف الدولة كما كان يفعل الشعراء، ثمَّ إنَّه اشترط أن يُلقي شِعْرَه جالسًا على خلاف ما كان يُلزَمُ به الشعراء وقتئذٍ. ثمَّ تراه تيّاهًا ينزّهُ نفسَه على ممدوحيه من الأمراء والملوك بما لا يجوز من شاعر أن يفعله أو يتشوَّف إليه بالفخر عليهم في مجالسهم، وتراهم يقبَلون منه ذلك ولا ينكرونه لأنَّهم عرفوا قَدْرَ الرجل وقَدْرَ الشاعر، وعرفوا منه ما سعى خصومه أن يستروه، وجَهِدوا في أن يُسوِّدوا صفحات كُتُبِ التاريخ والتراجم بشهادات زورٍ أو عداوات للمتنبّه لم يَسْلَمْ منها حتى كبارُ أُدبائِنا ومُثقَّفِينا[1] إلى اليوم.

كم تطلبون لنا عيبًا فَيُعجِزُكُمْ ويكرهُ اللّـه ما تأتون والكَرَمُ

وكفى بهذا البيت ردًّا على تلك التُّهَم الباطلة التي كان شاعر العربيَّة الأوَّل يسمع أصداءها خافتةً من وراء ظهره.

لم يكن المتنبّه شاعرًا من جنس الشعراء، بل كان يعتبر نفسه ملِكًا في مملكة الشعر، والأميرَ السَّيِّدَ المؤتمن عليها. وقد قال:

وفؤادي من الملوك وإن كان لساني يُرى من الشعراء

أو قوله لممدوحه متزهِّدًا في ماله:

فَسِرْتُ إليكَ في طلب المعالي وسارَ سِوايَ في طلبِ المعاشِ

(1) من هؤلاء طه حسين الذي تحامل على المتنبّي ولم يُخْفِ كرهَه له ربَّما لأنَّ نفسيَّةً تيّاهةً بذاتها مثل نفسيَّة عميد الأدب العربيّ، رحمه اللّـه، تخفي غيرتها من نفسيَّةٍ أخرى تيّاهة بذاتها إلى الحدّ الذي ذكرناه عن المتنبّي. يقول طه حسين «وليس المتنبّي.. من أحبّ الشعراء إليَّ وآثرهم عندي، ولعلَّه بعيدٌ كلَّ البُعْدِ عن أن يَبْلُغَ من نفسي منزلةَ الحبّ أو الإيثار». (مع المتنبّي، ص 10، 2013)

أو قوله:

وما شكرتُ لأن المال فرّحني سيّانَ عنديَ إكثارٌ وإقلالُ

لقد كان المتنبّه يطلب المعالي، ويرى نفسَه أميرَ مدينة الشعر والشعراء وختمَهُم، ولهذا كان يفتخر على الأمراء ومَنْ دونهم بقوله:

سيعلم الجمعُ ممّن ضمَّ مجلسُنا بأنني خيرُ من تسعى به قَدَمُ

أنا الذي نظرَ الأعمى إلى أدبي وأسْمَعَتْ كلماتي مَنْ به صَمَمُ

أنامُ مِلْءَ جفوني عن شوارِدها ويَسهرُ الخلقُ جَرَّاها ويختصمُ

كما كان يعلم أنَّه رغم شرفِ نَسَبِه وشرَفِ جدوده، إلَّا أنَّ شرفَه الحقيقيّ الذي يعتزُّ به آتٍ من فُتُوَّتِه وفرادَةِ شِعْرِه:

لا بقومي شَرُفْتُ بل شَرُفُوا بي وبنفسي فَخَرْتُ لا بجدودي

وبهم فَخْرُ كُلِّ من نَطَقَ الضَّا دَ وعَوْذُ الجاني وغَوْثُ الطّريد

إن أَكُنْ معجبًا فعُجْبُ عجيبٍ لم يجدْ فوق نفسه من مَزيدِ

أنا تِربُ النَّدى وربُّ القوافي وسِمامُ العِدى وغَيْظُ الحسود

أنا في أُمّة تداركها اللـ ـهُ غريبٌ كصالحٍ في ثَمودِ

كان المتنبّه مُفْرَدَ العصر وَوِتْرَ الجَمْع وخُلاصَةَ الأثر وزبدةَ الشِّعر، وكم يجافي بعض الناسُ الحقيقةَ حين لا يرون فيه إلَّا شاعرًا مزهوًّا بنفسه تَيَّاهًا بأدبه متكسِّبًا بشعره. لم يكن المتنبّه ذلك الشاعر الذي يتكسَّب بشعره، بل كان يعلم أنَّ أموال الدنيا لا تساوي شِعره، فهي فانية، وشعره باق.. وقد كان.

كم كان سيدفع سيفُ الدولة لو علم أنَّنا ما زلنا نُنْشِدُ أشعارَ أبي الطيِّب التي ذكره فيها إلى يوم الناس هذا؟

بل إنَّنا لا نَذْكُرُ اليومَ وغدًا سيفَ الدولة إلَّا بذكرنا لأبي الطيِّب المتنبِّه. لا شكَّ أنَّ أَمْوَالَ الحمدانيِّين كلَّها لم تكن تكفي لأداء ثمن تلك القصائد الخالدات.

وما الدَّهرُ إلا من رُواةِ قصائدي إذا قلتُ شعرًا أصبح الدَّهْرُ مُنْشِدا
فسار به من لا يَسِيرُ مُشَمِّرا وغنَّى به من لا يُغنِّي مغرِّدا

لقد حرصنا على أن نحتفل بالشعر في هذا العمل، وخصَّصنا له حيِّزًا معتبرًا لإعادة قدح الوعي بوحدة الأدب؛ ولأنَّنا لا نؤمن بالحدود المصطنعة أمام الإبداع، فقد نقرأ قصيدةً كأنَّها كتبت بتقنيَّات السَّرد، وقد يكتب أديبٌ روايةً بلغة الشعر فقط، فأين الحدود؟ سؤال نتركه مفتوحًا.

مسك الختام

كلمة أخيرة حول هؤلاء الأختام الذين أحيينا ذكرهم في هذا العمل الروائيّ العرفانيّ، فإنَّنا نستذكر من خلالهم بعض دوائرنا الحضاريَّة، التي عاشوا فيها ردحًا من الزمان، وأبدعوا فيها ما خلّد ذكرَهم في العالمين، فها قد تحوَّلت في عَقْدٍ من السنين إلى ما يشبه الأرض اليَبَاب. فماذا حلَّ بالشام، وماذا حلَّ بحلب ودمشق، وماذا حلّ بمعرّة النعمان؟ وماذا حلَّ بنا أيضًا في زمن انتشار «وباء كورونا»[1] ؟

لقد أصبحنا رهائن في منازلنا، وخَلَتْ مدننا من الآدميِّين، وتَمَّ تطبيق الحَجْر الصحِّيّ والمنزليّ على المواطنين. وإنِّي أستذكر في

(1) كتبت هذه السطور إبان انتشار وباء كورونا، وقد أعلنت وقتئذٍ كثيرٌ من دول العالم حالة الحجر الصحّيّ وتقييد الحركة على الناس.

وقت هذه العزلةِ الاضطراريَّة التي عشناها مع هذه الوباء العالميّ، العزلةَ الاختياريَّة لأبي العلاء المعرّي حين لزم بيته قرابةَ خمسين سنة (50)، واستحقَّ فعلًا لقبَ «رهين المحبسيْن».

استشعر الناس مع اكتساح وباء كورونا بأنَّ نهاية العالم قربت، وأنَّ دورةً زمانيَّة قد خُتمت. لا شكَّ أنَّ كلَّ تصوُّراتنا ستتغيَّر بعد زوال هذا البلاء، فنرجو أن تكون البشريَّةُ حريصةً على إدراك أهمِّيَّة الأفق الروحانيّ الذي يؤسِّس للعلاقة السليمة مع الوجود الحقّ.

الأدب الموصول بالحقّ وحده يستطيع أن يساعدنا على اجتياز هذا الامتحان العسير، وَلْنَجْعَلْ من العزلة الاضطراريَّة خلوةً يستردُّ فيها الأدب العرفانيّ مواطنَ الجمال والنُّدرة والتَّمَيُّز والنُّبوغ، وتلك مهمَّة شريفة نبيلة لغرس بذرة الحياة والأمل في النفوس والقلوب.

عبد الإله بن عرفة

(الرباط، المغرب)

حِسابُ الجُمَّل الكبير

الترتيب النَّفَسيّ		الترتيب المشرقيّ		الترتيب المغربيّ	
ء	1	ا	1	ا	1
ه	2	ب	2	ب	2
ع	3	ج	3	ج	3
ح	4	د	4	د	4
غ	5	ه	5	ه	5
خ	6	و	6	و	6
ق	7	ز	7	ز	7
ك	8	ح	8	ح	8
ج	9	ط	9	ط	9
ش	10	ي	10	ي	10
ي	11	ك	20	ك	20
ض	12	ل	30	ل	30
ل	13	م	40	م	40
ن	14	ن	50	ن	50
ر	15	س	60	ص	60
ط	16	ع	70	ع	70
د	17	ف	80	ف	80

100	ق	100	ق	19	ز
200	ر	200	ر	20	س
300	س	300	ش	21	ص
400	ت	400	ت	22	ظ
500	ث	500	ث	23	ث
600	خ	600	خ	24	ذ
700	ذ	700	ذ	25	ف
800	ظ	800	ض	26	ب
900	غ	900	ظ	27	م
1000	ش	1000	غ	28	و

إصدارات للكاتب

روايات:

- رواية **أَلَمَر: أختام المدينة الفاضلة**، دار الآداب، بيروت، 2022.
- رواية **إدريس: أَلَمَص الوِلاية**، دار الآداب، بيروت 2019.
- رواية **خُنافة: أَلَر الرحمة**، دار الآداب، بيروت 2018.
- رواية **الجنيد: أَلَمَ المعرفة**، دار الآداب، بيروت 2017.
- رواية **طوق سر المحبة**، دار الآداب، بيروت 2015.
- رواية **ياسين قلب الخلافة**، دار الآداب، بيروت 2013.
- رواية **ابن الخطيب في روضة طه**، دار الآداب، بيروت 2012.
- رواية **طواسين الغزالي**، دار الآداب، بيروت 2011.
- رواية **الحواميم**، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء 2010.
- رواية **بلاد صاد**، دار الآداب، بيروت 2009.
- رواية **بحر نون**، دار الأمان، الرباط، المغرب 2007.
- رواية **جبل قاف**، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب 2002.

(**طبعات أخرى**: منشورات ضفاف، دار الأمان، منشورات الاختلاف - بيروت، 2013).

* * *

إصدرات علميَّة:

- **الدِّيوان الكبير لابن العربيّ الحاتميّ**، الجزء الأوَّل في السلطانيَّات والزينبيَّات: تحقيق ودراسة وتعليق، دار الآداب، بيروت 2021.

- **الدِّيوان الكبير لابن العربيّ الحاتميّ**، الجزء الثالث: تحقيق ودراسة وتعليق، دار الآداب، بيروت 2021.
- **الدِّيوان الكبير لابن العربيّ الحاتميّ، المجلَّدة السابعة** (قسم من الجزء الأوَّل والجزء الثاني): تحقيق ودراسة وتعليق، دار الآداب، بيروت 2019.
- **الدِّيوان الكبير لابن العربيّ**، الجزء الرابع: تحقيق ودراسة وتعليق، دار الآداب، بيروت 2018.
- **تحقيق مقدمة ديوان المعارف الإلهيَّة لابن العربيّ**، ضمن: المتن الأكبريّ في الكتاب التذكاريّ لابن العربيّ الحاتميّ، دار نينوى، دمشق 2018.
- **جماليات السرد في الرواية العرفانيَّة**، دار الآداب، بيروت 2014.
- **لماذا نفرح بالمصطفى**، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء 2013.
- **الرواية العرفانيَّة في تجربة عبد الإله بن عرفة**، مطبعة الرسالة، الرباط 2012.
- **السماع الصوفي**، الرابطة المحمَّديَّة للعلماء، الرباط 2012.
- «**الشهاب موعظة لأولي الألباب**: دراسة وتحقيق لكتاب ابن سيدبونة الخزاعيّ الأندلسيّ (524 ـ 624 هـ) مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، المغرب 2005.
- **كتاب حول علم الدلالة ونشأة المفاهيم في اللغات** (بالفرنسيَّة)، دار المنشورات الجامعية، ليل، فرنسا 1997.

* * *

روايات مترجمة إلى اللغات العالميَّة:

- **Tawq Sir Al MAHABBA**, Ketebe Kitap ve Dergi Yayinciliği AŞ. Istanbul, Turkey, **2022**.

(ترجمة رواية «طوق سر المحبة» إلى اللغة التركيَّة)

- **Cüneyd-i BaĞdadî**, Ketebe Kitap ve Dergi Yayinciliği AŞ. Istanbul, Turkey, **2020**

(ترجمة رواية الجنيد إلى اللغة التركية: «الجنيد البغداديّ: السعي إلى الحكمة»)

- **Tawaseen Al Ghazali, Les mystères inédits** (roman), Editions Sagesse d'Orient, Paris, France, **2016**.
- **Mount Qâf**, *A Biographical Novel on The Andalusian Mystic Muhyiddin Ibn Al Arabi*, Strategic Book Publishing and Rights Co. USA, Singapore, **2015**.

فهرس المحتويات

مكتبة
t.me/soramnqraa

إهداء 5
قصيدة الختم 7
العارف الحكيم 11
الفيلسوف الحكيم 39
الشاعر الحكيم 57
الأديب الحكيم 105
ختم الأختام في مجلس الحكمة 139
بيان أدبيّ 209
حِسابُ الجُمَّل الكبير 227
إصدارات للكاتب 229
فهرس المحتويات 231

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

تطرح هذه الرواية قضيَّة ختميَّة المراتب التي انشغلت بها الأديان والفلسفات منذ فجر التاريخ إلى اليوم. مع أربعة نماذج من الأختام. هم تِباعًا: الترمذيّ (الحكيم)، والفارابي (الفيلسوف)، والمتنبِّي (الشاعر)، والمعرِّي (الأديب).

يلتقي هؤلاء الأختام في مجلسٍ تخييليّ في المدينة الفاضلة في زمنٍ يمتدّ من أفلاطون إلى عصرنا ليناقشوا هذه القضيَّة الكبرى. وكلّ واحدٍ منهم يستدعي شهودًا من الإنس والجنّ لتأييد موقفه (طه حسين، وبشارة الخوري، وأحمد شوقي، ونزار قبَّاني، وشكسبير، والمِسْتِر بِينْ..)، ويزعم بأحقِّيَّته في رئاسة هذه المدينة المثاليَّة إلى أن يظهر لهم ختم الأختام (ابن العربيّ)، ليحكم بينهم ويكشف لهم عن حقيقة المدينة...

د. **عبد الإله ابن عرفة** أديبٌ روائيٌّ وشاعرٌ ومحقِّقٌ للتراث الأندلسيّ وباحثٌ في العرفان وتراث فلاسفة الإسلام. مؤسِّس مشروع «الرواية العرفانيَّة» ورائدها.

telegram @soramnqraa

دار الآداب